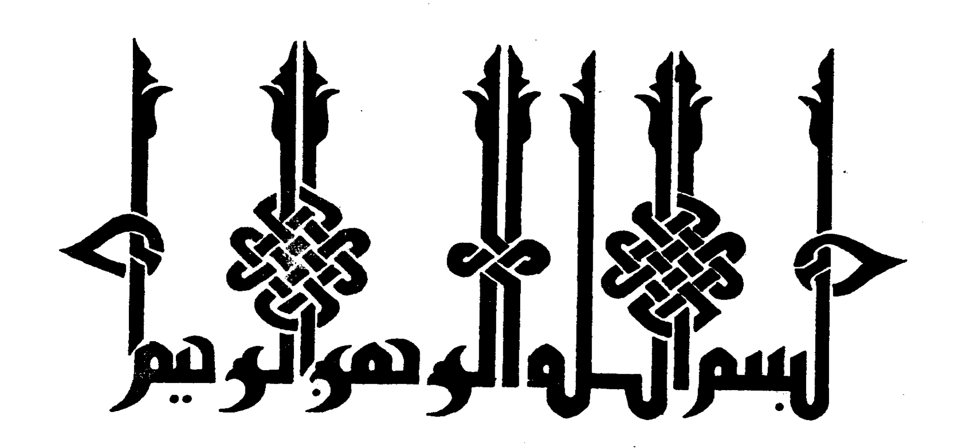
بذل الماعون
في فضل الطاعون

للحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي
ابن حجر العسقلاني
(٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)

حققه وخرج أحاديثه

أبو إبراهيم كيلاني محمد خليفة

مكتبة التوعية الإسلامية
دار الكتب الأثرية
طباعة. نشر. توزيع



الطبعة الأولى
١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

أما بعد ،

فإن الله تعالى رحيم بعباده ، من عمل حسنة كتبها له عشرا أو أزيد ، ومن عمل سيئة كتبها واحدة أو يغفرها له ، يقبل من محسنهم ، ويغفر لمسيئهم إن رجع إليه واستغفره ، أما إذا تمادوا فى المعصية ، وفشت بينهم أنواع الذنوب والفواحش ، فإن الله تعالى عند ذلك قد يعمهم بعقاب ؛ ليذكرهم بأسه وقدرته عليهم ؛ ليرجعوا إليه ويستغفروه.

وأنــواع هذه العقوبات كثيرة ؛ منها المجاعات والجوائح والأمراض والزلازل وغير ذلك ، وتختلف العقوبة تبعاً لاختلاف المعاصي المرتكبة كما شهدت بذلك الأحاديث.

وإذا عم الله الناس بعقاب اختلف حال الهالكين فيه ؛ فمنهم من يكون ذلك رفعة في درجاته ، وقد يكون مغفرة لذنوب بعضهم ، وقد يكون فى حق آخرين نكالاً وعذاباً وانتقاماً ، وهذه سنة الله في العقوبات تقع عامة ، فتكون طهرا للمؤمنين وانتقاما من الفاجرين.

وهذه العقوبات تتنوع على مر الأزمان ، وزماننا الحالى يشهد العديد من تلك العقوبات الإلهية ، فمن ذلك تلك المجاعات المنتشرة في إفريقيا ، ومنها تلك الأعاصير والعواصف والفيضانات المدمرة في أوربا وغيرها ، ومنها تلك الأمراض المنتشرة في جميع أنحاء العالم والتي ما عرف لها علاج مع ذلك التقدم المذهل في عالم الطب ، وما ذلك كله إلا عقوبة من الله عز وجل بسبب ابتعادهم عن دينه وانتهاك حرماته ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ . [الشورى : ٣٠] .

وكتابنا الذى نقدم له يتناول نوعا من هذه العقوبات ، أرسله الله على عباده في أزمان

متعددة ، خاصة في القرنين الثامن والتاسع من الهجرة ، وقد عاصرهما الحافظ ابن حجر.

وقد صنف الحافظ هذا الكتاب تلبية لرغبة بعض إخوانه إذ سألوه جمع الأخبار الواردة في الطاعون ، كما صرح بذلك في مقدمة الكتاب.

أضف إلى ذلك مانراه سببا آخر في تصنيف الكتاب، وهو تأثره بأمر الطاعون إذ وقع في حياته ثماني مرات ، ومات بالطاعون ثلاث من بنات الحافظ هن : فاطمة ، وعالية ، وزين خاتون ، فاجتمع هذان السببان ليصنف لنا الحافظ هذا الكتاب الحافل بمختلف العلوم.

والحافظ إذ يتناول الطاعون بالدراسة ، لايدع - كعادته - شيئا يتصل به إلا أتى به ، فنراه تكلم:

ـــ عن مبدأ الطاعون ، ومن أول مَنْ نَزَل بهم.

ـــ ثم عن اشتقاقه ، وكونه أخص من الوباء ، وبيان كونه من وخز الجن ، وأن الجن يسلطون على الإنس بالطاعون وغيره ، والحكمة من ذلك ، وكيف يحمي الإنسان نفسه من كيد الجن.

ـــ ثم بين أن الطاعون شَهادة للمسلمين ، وساق الأحاديث الواردة في ذلك ، وأن درجات الشهداء متفاوتة.

ـــ ثم بين حكم البلد الذى يقع فيه الطاعون ، وذكر الزجر عن الخروج من البلد الذى يقع فيه الطاعون فراراً منه ، وبيان الحكمة في ذلك.

ـــ ثم بين ما يشرع فعله في الطاعون بعد وقوعه ، والآداب المتعلقة بمن أصابه الطاعون.

ـــ ثم ختم الكتاب ببيان الطواعين الواقعة في الإسلام إلى عصره رحمه الله تعالى.

كل ذلك وغيره بأسلوب الحافظ المتميز ، من ذكر الأدلة ، والحكم على الأحاديث ، والجمع بين الأقوال أوالترجيح بينها ، والاستقصاء في كل ما يقول ، والحافظ في ذلك كله لا يحتاج إلى تعريف ، فيكفيه شرفاً أنه الحافظ ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة.

نسبة الكتاب للحافظ :

مما يثبت نسبة الكتاب للحافظ ما يلي :

١- ذكره الحافظ السخاوي ضمن مؤلفات الحافظ ابن حجر ، وذلك في كتابه « الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر » وهو لازال مخطوطا ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٧٦٨ تاريخ.

٢- عزا المصنف تفصيل بعض المسائل إلى فتح الباري ؛

أ - فقال ص ٦٧ : وقد تكلمت عليه في شرح البخارى .

ب - وقال ص ٨٠ : وقد استوعبت الكلام على ذلك في فتح الباري .

فثبتت بذلك نسبة الكتاب إلى مؤلفه ولله الحمد والمنة.

* * * * *

* * *

*

عملي في تحقيق الكتاب

أولاً : مقابلة نسخ الكتاب :

وقد توفر لديَّ من الكتاب ست نسخ مخطوطة ، وأحب أن أنبه إلى أمر وجدته أثناء المقابلة ، وهو ذلك الاختلاف في ترتيب الباب الرابع من الكتاب ، فوجدت ثلاثة منها على ترتيب وقد اعتمدناه لموافقته لسياق الكلام ، واثنتين منها على ترتيب آخر ، بينما السادسة سقط منها هذا الجزء الذي فيه الاختلاف ، وقد نبهنا على هذا الإختلاف في موضعه من الكتاب ص ١٥٥ .

ولعل هذا الاختلاف في الترتيب نشأ عن تقديم وتأخير في بعض أوراق نسخة من الكتاب تتابع عليه النساخ منها ، ومما أخذ عنها من النسخ ، ولا سيما أن السياق على هذا الترتيب غير مخل بالمعنى وقد يعتبر السياق مقبولا به.

وصف النسخ :

١- النسخة الأولى : نسخة مكتبة أيا صوفيا في السليمانية بتركيا ، وهي محفوظة بها تحت رقم (٨٨٠) ، عدد أوراقها (١٥١) ، عدد أسطرها (١٥) سطراً ، مكتوبة بخط نسخ جيد ، وهي نسخة تامة.

وقد كتبت هذه النسخة في حياة الحافظ رحمه الله تعالى ، وقبل وفاته بثمانية أشهر ، فقد ذكر ناسخها أنه فرغ من تعليقها في الثالث عشر من شهر ربيع الآخر سنة اثنين وخمسين وثمانمائة ، في حين أن الحافظ توفي في شهر ذي الحجة من نفس السنة.

وهذه النسخة مع أنها كتبت في حياة المصنف ، إلاّ أنها خلت من زيادات مهمة زادها الحافظ بعد فراغه من تصنيفه كما ذكر في نهاية الكتاب ، كما أن بها سقطاً وتصحيفات وتحريفات ليست بقليلة.

ولعل هذه هي النسخة التي حدث بأوراقها تقديم وتأخير ، إذ هي أقدم النسختين اللتين لم نعتمد ترتيبهما ، والأخرى هي نسخة الحرم.

٢- النسخة الثانية : نسخة خزانة تيمور بدار الكتب المصرية ، وهي محفوظة بها تحت رقم (١٩٨) حديث ، ميكروفيلم (٨١٤٩) ، عدد أوراقها (١٠٧) ورقة ، عدد السطور

(١٩) سطراً ، مكتوبة بخط فارسي جميل ، وهي نسخة تامة ، مقابلة كما ذكر ناسخها مع نسخة بخط محمد بن محمد أمير حاج الحنفي تلميذ كمال الدين بن الهمام شارح الهداية.

وقد كتبت هذه النسخة بعد وفاة الحافظ بثماني سنين ، فقد ذكر ناسخها أنه كتبها سنة ستين وثمانمائة .

٣- النسخة الثالثة : نسخة الخزانة العامة بالرباط ، وهي محفوظة بها تحت رقم (٣١٩) ، عدد صفحاتها (١٣٩) ، متوسط عدد أسطرها (٢١) سطرا ، مكتوبة بخط كوفي صعب القراءة ، وهي نسخة تامة.

وهذه والتي قبلها بهما زيادات مهمة لم نجدها في بقية النسخ ، وذلك لأن الحافظ بعد أن فرغ من تصنيف الكتاب زاد فيه زيادات يسيرة.

٤- النسخة الرابعة : نسخة دار الكتب المصرية ، وهي محفوظة بها تحت رقم (٢٣٥٣) ، ميكروفيلم (١٩٣٩٢) ، عدد أوراقها (١٣٢) ورقة ، عدد أسطرها (١٩) سطراً ، مكتوبة بخط ثلث جيد. وهي نسخة تامة ، وهي من النسخ التي اعتمدنا ترتيبها.

وهذه النسخ الثلاث هي التي اعتمدنا ترتيبها.

٥- النسخة الخامسة : نسخة مكتبة الحرم النبوي الشريف ، وهي محفوظة بها ضمن كتب علم الطب ، وعدد أوراقها (١٥١) ورقة ، عدد أسطرها (١٧) سطراً ، مكتوبة بخط نسخ ، وقد ضبط ناسخها كلمات كثيرة ، وهي نسخة جيدة ، إلاّ أن بها نقصاً في آخرها يقدر بثلاث ورقات ، وهي النسخة الثانية التي لم نعتمد ترتيبها .

٦- النسخة السادسة : نسخة مكتبة دار العلوم ندوة العلماء بلكناو بالهند ، وقد حصلت عليها عن طريق المكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وهي محفوظة بها تحت رقم (١٤٢٦) ميكروفيلم ، عدد أوراقها (٧١) ورقة ، عدد أسطرها (٢١) سطراً ، مكتوبة بخط فارسي.

وهذه النسخة مع دقتها في بعض المواضع ، إلاّ أن بها سقط سطور في مواضع كثيرة ، كما أن بها جزءاً كبيراً ساقطاً يقدر بربع الكتاب.

ولقد قمت بمقابلة النسخ ، وتلافيت الخلاف بينها إذا كان هيناً ، وذلك لأنه سيثقل هوامش الكتاب بدون فائدة ، واعتمدت في الغالب ما اتفقت عليه أكثر النسخ ، إلاّ إذا انفردت نسخة أو أكثر بشئ صحيح اعتمدته ، ولم أثبت الخلاف إلاّ إذا كان محتملا للوجهين ، أو كان فيه تنبيه على خطورة الاعتماد على نسخة واحدة في تحقيق المخطوطات.

وسأشير في الهامش إلى هذه النسخ بما يلي:

النســخة الأولى : نسخة تركيا.
النسخة الثانيــة : نسخة تيمور.
النسخة الثالثــة : نسخة الرباط.
النسخة الرابعــة : نسخة الدار.
النسخة الخامسة : نسخة الحرم.
النسخة السادسة : نسخة الهند.

تنبيه : حول اسم الكتاب :

وقع تضارب بين النسخ في تسمية الكتاب ، بل إن النسخة الواحدة يحدث فيها اختلاف في ذلك بين ما على غلافها والتسمية في كلام الحافظ. والحاصل أن خمسة من النسخ جاء على غلافها اسم الكتاب "بذل الماعون في فضل الطاعون" ، وجاءت التسمية هكذا في تسمية الحافظ في نسختين فقط ، وجاء اسم الكتاب في بقية المواضع « بذل الماعون في فوائد الطاعون » .

وقد اعتمــدت التســمية الأولى بناء على تسمية الحافظ السـخاوي للكتــاب في كتابه « الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر » .

ومما هو جدير بالذكر أن للسيوطى اختصاراً لكتابنا هذا ، سمّاه "مارواه الواعون بأخبار الطاعون" ، ويوجد منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط جاءت بعد كتاب بذل الماعون مباشرة ، وقد صرّح فيه أيضا بالتسمية التي اعتمدناها .

***

ثانياً: تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب :

وقد قمت بتخريج أحاديث الكتاب بعزوها إلى أماكنها في كتب الحديث ، والتزمت بما أشار إليه الحافظ دون العزو لكتب أخرى قد تكون خرجت الحديث.

وقد عزّ عليّ عزو بعض الأحاديث إلى أماكنها وذلك في أحاديث معدودة.

وهذا التخريج له فائدة كبيرة وهي : توثيق تخريج صاحب الكتاب للحديث ، واستدراك ما عسى أن يكون وقع فيه من وهم أو سهو في ذلك ، كما وقع للحافظ في كتابنا هذا في ثلاثة مواضع :

الموضع الأول : قال في ص٧٣ بعد ذكر حديث مسلم عن ابن مسعود في ليلة الجن: « وأخرجه أبو داود كذلك ، لكن وقع في روايته : كل عظم لم يذكر اسم الله عليه » .

ولقد أعياني البحث عنه في سنن أبى داود السجستانى فلم أجده ، ثم وجدته في مسند أبى داود الطيالسي ، فلعل لفظ «الطيالسى» سقط من النساخ ، وهذا بعيد لاتفاق جميع النسخ على ذلك ، أو يكون هذا سهواً أو سبق قلم من الحافظ رحمه الله تعالى.

الموضع الثانى : قال في ص ٧٩ بعد أن ذكر حديثا عن أبي سعيد الخدرى : « متفق عليه » .

وقد بحثت عنه كثيرا في مسلم فلم أجده ، وتيقنت أن الحديث لم يروه مسلم بعد أن طالعت كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدى فوجدته ذكر الحديث ضمن أحاديث أفراد البخاري من مسند أبي سعيد الخدري .

الموضع الثالث : قال في ص ١٨٠ : « وفي سنن أبى داود » . ثم ساق حديثا ، ولم أجد الحديث في سنن أبى داود مع دوام البحث عنه ، ولعله سبق قلم من الحافظ ؛ وذلك لأن الحافظ نفسه ذكر الحديث في الفتح (١٥٩/١٠) وقال: وقد أخرجه ابن ماجة وسنده ضعيف.

ولقد أشرت إلى هذه المواضع في أماكنها من الكتاب ، وهذا يرشدنا إلى أهمية تخريج أحاديث الكتب المحققة ، لأن السهو والوهم من سمات البشر.

ثالثاً : تسهيل الاستفادة من الفصل الأخير في كل باب :

قسم الحافظ الكتاب إلى أبواب ، كل باب يشتمل على فصول ، وقد خصص الحافظ الفصل الأخير من كل باب لذكر بيان مشكل ما في الباب.

فرأيت أن وجود هذا الفصل في آخر كل باب بمعزل عن الكلمات المضبوطة أو المشروحة سيكون قليل الجدوى ولا يستفاد منه استفادة كاملة.

فعمدت إلى تلك الكلمة المضبوطة أو المشروحة في موضعها الأصلي من الكتاب فأعطيتها رقما ، ثم آتي إلى الحاشية وأنقل كلام الحافظ حولها من الفصل الأخير مع التنبيه على أن ذلك من كلام الحافظ ، فأقول عقب كلامه: (منه رحمه الله تعالى) ، وأحيانا أنقل كلام الحافظ بتمامه ، وأحيانا أقتصر على بعضه ، منبها على ذلك عقب كلامه ، وسأثبت هذا الفصل الأخير في موضعه الطبيعي من كل باب ، محافظة على صورة الكتاب الأصلية.

رابعاً : وضع عناوين وشرح غريب.

وزيادة في حسن تقسيم الكتاب ، فقد قمت بوضع عناوين ، ولتمييزها عن غيرها فقد وضعتها بين معكوفتين ، وأغلب هذه العناوين - إن لم يكن كلها - أخذته من الفهرسة الموجودة في أول الكتاب.

وقد قمت بضبط وشرح بعض الكلمات الغريبة تيسيراً على القارئ الكريم.

***

والله أسأل أن يكون عملي في هذا الكتاب وغيره خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يكون علما مما ينتفع به إلى يوم الدين ، وأسأله سبحانه أن يغفر لي ولكل من ساعدني في إخراج الكتاب ، إنه سميع عليم قريب مجيب.

وكتب

أبو إبراهيم

كيلاني محمد خليفة

تحريرا في : ١٢/شعبان/١٤١٠

الموافق : ٩/مارس/١٩٩٠

ترجمة موجزة للمصنف [1]

١- اسمه ونسبه :

هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر الكناني العسقلاني الأصل ، ثم المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة ، الشافعي ، الشهير بـ (ابن حَجَر) نسبة إلى أحد أجداده ، المُلقَّب بـ (الحافظ).

٢- ميلاده ونشأته :

وُلد في ثالث عشر (وقيل: ثاني عشر) شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمصر العتيقة ، تُوفي والده وهو طفل لم يتجاوز الأربع سنين ، فنشأ يتيماً في كنف أحد أوصيائه ، وهو الزكي الخروبي ، وأُدْخِل الكُتّاب وهو ابن خمس سنين ، وحفظ القرآن عند الصدر السفطي وهو ابن تسع سنين.

ثم حفظ عمدة الأحكام وألفية الحديث للعراقي ، والحاوي الصغير ، ومختصر ابن الحاجب ، والتنبيه للشيرازي وألفية ابن مالك ، وانصرف في أول أمره إلى العناية بالأدب والتاريخ ، فأُولع بالنظم فقال شعراً كثيراً مليحاً ، ثم حبَّب الله إليه طلب الحديث فاقبل عليه بالكُلِّيّة ، وسمع الكثير بمصر وغيرها ، ورحل وانتقى وحصَّل.

٣- رحلاته :

رحل الحافظ رحلات كثيرة في طلب العلم ، فارتحل إلى الشام والحجاز واليمن وأقاصي مصر ، والتقى في هذه الرحلات بجماعة من كبار الشيوخ وسمع منهم كثيرا من الكتب والأجزاء الحديثية ، ولا يخفى أثر هذه الرحلات في تنمية معارفه ، وصقل موهبته العلمية.

٤- مشايخه :

تتلمذ الحافظ على جماعة من كبار العلماء ، وأدرك من الشيوخ جماعة كل واحد منهم رأس في الفن الذي اشتهر به ، فالتنوخي في القراءات ، والعراقي في الحديث ،

---

(١) نقلا عن مقدمة كتاب « معرفة الخصال المكفرة » بتحقيق جاسم الفهيد الدوسري ، مع تصرف يسير ، طبعة دار البشائر الإسلامية .

والبلقيني في سعة الحفظ وكثرة الاطلاع ، وابن الملقن في كثرة التصانيف ، والمجد الفيروزآبادي صاحب القاموس في حفظ اللغة ، والعز بن جماعة في تفننه في علوم كثيرة .

ومن مشايخه أيضاً : ابن أبي المجد والبرهان الشامي والحافظ نور الدين الهيثمي والغماري والجزري وغيرهم .

ومشايخه – كما قال ابن فهد – كثيرة جدا لا توصف ، ولا تدخل تحت الحصر ، وقد جمع أسماء شيوخه وما رواه عنهم في كتابه (المجمع المؤسس بالمعجم المفهرس).

٥- تلامذته :

ارتحل إليه الطلاب من كل مكان، وتتلمذ على يده الكثيرون ، ويقدّر عددهم بخمسمائة شخص ، ومن أشهرهم: البقاعي ، وابن تغري بردي ، وابن قاضي شهبة ، وابن فهد المكي وزكريا الأنصاري ، والسخاوى .

٦- وظائفه و مناصبه :

تولى ابن حجر الكثير من المناصب الجليلة ، فقد تقلّد القضاء عدّة مرات ، وامتنع في كثير من الأحيان عن قبول ذلك ، لكنه كان يوافق بسبب إلحاح السلطان عليه ، وتبلغ مدة اشتغاله في القضاء إحدى وعشرين سنة ، وقد قام بحقوق القضاء حق القيام ، وشهد له معاصروه بالعفة والنزاهة إلاّ أنه – رحمه الله – ندم على توليه ، وصرّح بأنه جنى على نفسه بذلك ، فاعتزل القضاء وزهد فيه زهداً كبيراً ؛ لكثرة ما توالى عليه من المحن والأنكاد بسببه ، وعندما اعتزله سنة (٨٥٢) صرّح بأنّه لم يبق في بدنه شعرة تقبل اسم القضاء .

وقد تولّى الحافظ التدريس في مدارس كثيرة ، وكان التدريس آنذاك لا يتولاّه إلاّ العلماء الأفذاذ ، فدرّس في الشيخونية وبالشريفية الفخرية والصالحية والنجمية والبيبرسية والحسنية وجامع ابن طولون وغيرها .

كما أقام مجالس الإملاء وذلك في سنة (٨٠٨) واستمرت هذه المجالس إلى وفاته ، وقيل : إنه قد أملى ما لا يقل عن ألف مجلس .

٧- أخلاقه وصفاته :

وصفه تلميذه ابن تغري بردي فقال : "وكان - رحمه الله - إماماً عالماً حافظاً شاعراً أديباً مصنفاً ، مليح الشكل ، مُنور الشيبة ، حلو المحاضرة إلى الغاية والنهاية ، عذب المذاكرة ، مع وقار وأبّهة ، وعقل وسكون ، وحلم وسياسة ، ودربة بالأحكام ، ومداراة للناس ، قلّ أن يخاطب الرجل بما يكره ، بل يُحسن إلى من يُسيء إليه ، ويتجاوز عمن قدر عليه" .

وقال ابن العماد : "وكان - رحمه الله - صبيح الوجه ، للقصر أقرب ، ذا لحية بيضاء ، وفيّ الهامة ، نحيف الجسم ، فصيح اللسان ، شجيّ الصوت ، جيّد الذكاء ، عظيم الحذق ، راَوية للشعر وأيام من تقدّمه ومن عاصره ، هذا مع كثرة الصوم ولزوم العبادة واقتفاء السلف الصالح ، وأوقاته مقسمة للطلبة مع كثرة المطالعة والتأليف ، والتصدي للإفتاء والتصنيف" ا هـ .

وكان سريع الحفظ ، فقد ذكر عنه ابن فهد أنه حفظ سورة مريم في يوم واحد ، وأنه كان يحفظ الصحيفة من الحاوي الصغير من مرتين ، الأولى تصحيحاً ، والثانية قراءة في نفسه ، ثم يعرضها حفظاً في الثالثة ، كما كان سريع القراءة ، وأغرب ما وقع له في ذلك أنه قرأ في رحلته الشامية المعجم الصغير للطبرانى[١] في مجلس واحد فيما بين صلاتيّ الظهر والعصر ، وقرأ في مدة إقامته بدمشق - وهى سبعون يوماً - قريباً من مائة مجلد مع ما يعلّقه ويقضيه من أشغاله .

وكان ذكياً سريع البديهة ، وإليك حادثة تشهد له بذلك :

حكى العلامة المناوي في فيض القدير (٥٤٦/٣) أن الحافظ لما كان شيخاً للقضاة مرّ يوماً بالسوق في موكب عظيم وهيئة جميلة ، فهجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار ، وأثوابه ملطّخة بالزيت ، وهو في غاية الرثاثة والشناعة ، فقبض على لجام بغلته وقال : "يا شيخ الإسلام! تزعم أن نبيكم قال : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" ، فأي سجن أنت فيه ، وأى جنّة أنا فيها؟!" فقال : "أنا بالنسبة لما أعد الله لي في الآخرة من النعيم كأنّى الآن في سجن ، وأنت بالنسبة لما أعد الله لك من العذاب الأليم كأنك في جنة" . فأسلم اليهودى .

---
(١) عدد أحاديثه (١٢٠٠) تقريباً .

٨- شعره :

أولع الحافظ منذ صباه بالأدب وقرض الشعر ، وشعره جيد ، وهو من الشعراء المبرزين في عصره ، وله ديوان شعر . ومن لطيف شعره قوله :

ثلاث من الدنيـــا إذا هي أقبلت ... لشخص فلا يخشى من الضر والضير
غنىً عن بنيها ، والسلامة منهم ، ... وصحـــة جســم ثم خاتمـــة الخــير

وقوله :

خليلـيّ ولّى العمــر منّا ولم نتـب ... وننوي فعـــال الصالحـــات ولكنّـــا
فحتى متى نبني البيوت مُشيّـدة ... وأعمـــارنا منـــا تُهــــدّ وما تُبنى

٩- من ثناء أهل العلم عليه :

أثنى عليه جماعة من شيوخه ومعاصريه ، ولما حضرَت شـيخه العراقي الوفاة ، قيل له : من تُخلّف بعدك ؟ قال : « ابن حجر ثم ابني أبو زرعة ثم الهيثمي » .

وقال ابن فهد : « هو - متّع الله بطول بقائه - إمام عـلّامة ، حافظ محقق ، متين الديّانة ، حسن الأخلاق ، لطيف المحاضرة ، حسن التعبير ، عديم النظير ، لم تر العيون مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه » .

وقال أيضا : « الإمام العلامة الحافظ ، فريد الوقت ، مفخرة الزمان ، بقية الحفاظ ، علم الأئمة الأعلام ، عمدة المحققين ، خاتمة الحفاظ المبرزين والقضاة المشهورين » .

وقال السخاوي : "وقد شهد لَهُ القدماء بالحفظ والثقة والأمانة ، والمعرفة التامة ، والذهن الوقّاد ، والذكاء المفرط ، وسعة العلم في فنون شتى ، وشهد له شيخه العراقي بأنه أعلم أصحابه بالحديث ، وقال كل من التقي الفاسي والبرهان الحلبى : « ما رأينا مثله » .

وقال رضى الدين الغزي : "وبالجملة : فهو إمام زمانه ، وحافظ وقته وأوانه ، وعنده من الذكاء والفِطنة وصفاء القريحة ما تحيّر فيه الأبصار" .

وقال الســيوطي : « شيخ الإسلام ، وإمام الحفّاظ في زمانه ، وحافظ الديار المصرية ، بل حافظ الدنيا » .

وقال ابن العماد : « قال بعضهم : كان شاعراً طبعاً ، مُحدّثاً صناعة ، فقيها تكلّفاً ، انتهى إليه معرفة الرجال واستحضارهم ، ومعرفة العالي والنازل ، وعلل الحديث ، وغير ذلك ، وصار هو المُعوّل عليه في هذا الشأن في سائر الأقطار ، وقدوة الأمة ، وعلامة العلماء وحجة الأعلام ، ومُحيي السنة » .

وقال الشوكاني : « وشهد له بالحفظ والإتقان القريب والبعيد ، والعدو والصديق ، حتى صار إطلاق لفظ (الحافظ) عليه كلمة إجماع » .

١٠ - مصنفاته :

صنف الحافظ كتباً كثيرة ، منها ما يقع في عدة مجلدات ، ومنها ما يقع في أوراق معدودة ، وقد رُزقت مصنفاته الشيوع والانتشار ، فسارت بها الركبان ، وتهادتها الملوك والأمراء ، أما عددها : فقال رضي الدين الغزي : « بلغني عن جماعة من أصحابه أنها تزيد على المائة » ا هـ . قلت : بل على المائتين ، ومن أشهرها :

١ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى .
قال ابن فهد : "هو أوْلاها بالتعظيم ، وأوّلها في التقديم" .
٢ - تهذيب التهذيب .
٣ - تقريب التهذيب .
٤ - لسان الميزان .
٥ - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير .
٦ - الإصابة في تمييز الصحابة .
٧ - المطالب العالية في زوائد المسانيد الثمانية .
٨ - القول المسدد في الذبّ عن المسند للإمام أحمد .
٩ - إتحاف المهرة بأطراف العشرة . (خ) .
١٠- نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار .

ومما يحسن التنبيه عليه أن الكتاب المتداول بين الناس بعنوان (الاستعداد ليوم المعاد) المنسوب تأليفه إلى الحافظ باطل النسبة إليه بلا شك ، ومن قرأه ورأى ما فيه من الأحاديث المكذوبة الموضوعة علم يقيناً أن الحافظ منه بريء !

وقد كتب الشيخ عبد الرحمن فاخوري – حفظه الله – مقالا نشره في مجلة الجامعة السلفية بالهند (مج ١٠/عدد ٣ – ربيع الأول ١٣٩٨ هـ) بعنوان : (أما لهذه الأيدي من يقطعها!!!) بيَّن فيه بيانا شافيا بطلان نسبة هذا الكتاب إلى الحافظ ، فراجعه إن شئت الاستزادة .

١١- وفاته :

في أثناء شهر ذي القعدة سنة (٨٥٢ هـ) أصاب الحافظ إسهال مع رمي دم [1] ، واستمر به هذا المرض إلى أن انتقل إلى جوار ربه بُعيد صلاة العشاء من ليلة السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة ، رحمه الله رحمة واسعة ، وأجزل مثوبته .

وصُلِّي عليه قُبيل صلاة الظهر بمصلى المؤمنين بالرميلة خارج القاهرة ، وحضر الصلاة عليه السلطان الظاهر جمقمق ، وشهد جنازته خلق عظيم ، وتنافس العلماء والأمراء على حمل نعشه ، وقيل : إن السماء أمطرت على نعشه مطراً خفيفاً ، ودُفن بالقرافة الصغرى ، وقد غُلِق الباب بعده ، وخُتم به هذا الشأن كما قال السيوطي .

ورثاه جماعة من الشعراء ، منهم تلميذه شهاب الدين الحجازي ، ومطلع مرثيته :

كلّ البريّـة للمنيـة صـــائرة   وقُفُو لها شيئا فشيئا ســـائرة

وفيها يقول :

لهفي على الإملاء عُطِّل بعــده   ومعاهد الإسماع إذ هي شاغرة
لهفي عليه حافظُ العصر الذي   قد كان معــــدوداً لكل مناظـرة
لهفي على الفقه المهذّب والمحرّر   حاوي المقصـود عند محاضـرة
لهفي عليه خزانة العلـــم التى   كانت بهـا كل الأفاضـل ماهرة

(١) هو المرض المعروف الآن بـ " الدوسنتاريا ".

١٢- مصادر الترجمة :

١ – الضوء اللامع للسخاوي (٢/٣٦ – ٤٠) .

٢ – لحظ الألحاظ لابن فهد (ص ٣٢٦ – ٣٤٢) .

٣ – بهجة الناظرين لرضي الدين الغزى (ق ٧٧/ب – ٧٩/أ)

٤ – نظم العقيان (ص ٤٥ – ٥٣) .

٥ – حُسن المحاضرة (ص ١/٣٦٣ – ٣٦٦) .

٦ – ذيل الطبقات (ص ٣٨٠ – ٣٨٢) (طبقات الحفاظ ص ٥٤٧ – ٥٤٨) وكلها للسيوطي .

٧ – شذرات الذهب لابن العماد (٧/٢٧٠ – ٢٧٣) .

٨ – البدر الطالع للشوكاني (١/٨٧ – ٩٢) .

٩ – التاج المكلل لصدّيق حسن خان (ص ٣٦٢ – ٣٦٣) .

١٠ – الأعلام للزركلى (١/١٧٨ – ١٧٩) .

١١ – معجم المؤلفين لعمر كحالة (٢/٢٠ – ٢٢) .

١٢ – ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته – لشاكر عبد المنعم . وغيرها .

* * * * *

* * *

*

نماذج من صور المخطوطات



بسم الله الرحمن الرحيم [illegible]
الحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من أحوال أهل النار
[illegible] في الدنيا والآخرة إنه هو العزيز
الغفار ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مقدر
الأرزاق والأعمال والأعمار والمتطول على المعترف
في عبادته من عباده بالنعم التي ليست بمقدار ونشهد
أن محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار ملاذ الخلائق
في النوازل الكبار والشافع المشفع يوم [illegible]
الكبار [illegible] من غضب الملك الجبار صلى الله عليه
وعلى آله المتقين الأبرار صلاة وسلاماً دائمين
آناء الليل وأطراف النهار أما بعد فقد تكرر
السؤال من الإخوان [illegible] في جميع الأخبار
الواردة في الطاعون مع شرح غريبها وتيسير معانيها
على الأفهام ونشرها وتبيين أحكامها [illegible]
فأجبت رغبتهم في ذلك والله أسأل الإعانة جميع

الصفحة الأولى من نسخة تركيا

آخر الكتاب قال مصنفه أدام الله النفع بوجوده
وكان الفراغ منه في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين
وثمانمائة [illegible] بعد ذلك إلى [illegible]
في شوال [illegible] والحمد لله وحده وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم تسليماً كثيراً
[illegible]
آمين

[illegible] الفراغ من تعليقه [illegible]
[illegible] سنة [illegible]
بإسم العبد الفقير إلى الله تعالى [illegible]
أبي العباس أحمد بن المرحوم بدر الدين [illegible]
[illegible]
[illegible]
آمين

(الغلاف والصفحة الأولى والأخيرة من نسخة تركيا)



(الغلاف والصفحة الأولى والأخيرة من نسخة تيمور)

الصفحة الأولى من نسخة الرباط



صفحة الغلاف من نسخة الرباط

الصفحة الأخيرة من نسخة الرباط

(الغلاف والصفحة الثالثة والأخيرة من نسخة الرباط)



الصفحة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية

(الغلاف والصفحة الأولى من نسخة الدار)



(الغلاف والصفحة الأولى والأخيرة من نسخة الحرم)

الصفحة الأخيرة من نسخة الهند

النهاية

الصفحة الأولى من نسخة الهند

(الصفحة الأولى والأخيرة من نسخة الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على كل حال ، ونعوذ بالله من حال أهل النار ، ونسأله العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، إنه هو الغفور الغفار .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، مقدر الأرزاق والأعمال والأعمار ، والمتطول على المقصرين في عبادته من عباده بالنعم التي ليست بقصار ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المصطفى المختار ، ملاذ الخلائق في النوازل الكبار ، والشافع المشفّع فيمن أوبقته الكبائر بخلاصه من غضب الملك الجبار ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله المتقين الأبرار ، صلاة وسلاما دائمين آناء الليل وأطراف النهار ، أما بعد :

فقد تكرر سؤال الإخوان – نفع الله بهم – في جمع الأخبار الواردة في الطاعون ، مع شرح غريبها ، وتيسير معانيها على الأفهام ، وتقريبها ، وتبيين أحكامها ، وتحسين أقسامها ، فأجبت رغبتهم في ذلك ، والله أسأل الإعانة في جميع المسالك .

ورتبته على خمسة أبواب :

الباب الأول : في مبدئه .

الباب الثاني : في التعريف به .

الباب الثالث : في بيان كونه شهادة .

الباب الرابع : في حكم الخروج من البلد الذي يقع بها والدخول إليها .

الباب الخامس : فيما يشرع فعله بعد وقوعه .

وختمت كل باب بفصل يشتمل على كشف ما فيه من مشكل لفظ أو اسم ، وسُقت الأحاديث [1] محذوفة الأسانيد غالباً ، لكن أنبه على من أخرجها من الأئمة وعلى حكمها من الصحة أو الحسن أو الضعف ، ملخصا لبيان علته تارة ، ومستوعباً أخرى .

وسميته « بذل الماعون في فضل الطاعون » . (والله أسأل : أن لا يجعل ما علمنا علينا وبالاً ، وأن يختم لنا بالحسنى بفضله وكرمه سبحانه وتعالى) [2] .

---

(١) وفي نسخة الهند (الأخبار).

(٢) ما بين القوسين ساقط من نسخة الهند.

ذكر فهرسة فصول أبوابه [1]

(١) هذه الفهرسة غير موجودة في نسخة الرباط وتركيا.

السادس : في ذكر الدليل على أن شهيد المعركة أفضل من سائر الشهداء بغير القتل إلاّ الطاعون فإنه يساويه .

السابع : في ذكر الشروط التي تُلحِقُ شهيد الطاعون بشهيد المعركة .

الثامن : في ذكر الجواب عن دعاء النبي ﷺ للمدينة أن لا يدخلها الطاعون مع كونه شهادة .

التاسع : في ذكر الجواب عن حديث ورد يُشكل على كون الطاعون شهادة ورحمة ، وفيه بيان السبب في كثرة وقوع الطاعون .

العاشر : في ذكر بيان ما أشكل من ألفاظ هذا الباب .

الباب الرابع : في حكم البلد الذي يقع فيه الطاعون . وفيه أربعة فصول :

الأول : في ذكر الزجر عن الخروج من البلد الذي يقع فيه فرارا منه .

الثاني : في قصة عمر – رضي الله عنه – في رجوعه من طريق الشام لما بلغه أن الطاعون وقع بالشام ، وخبر عبد الرحمن بن عوف في ذلك ، وسياق الأخبار الشاهدة لصحة ذلك ما بين مرفوعة وموقوفة ، وبيان اختلاف الصحابة في ذلك ومَنْ بعدهم من العلماء ، وبيان حكم من خرج فاراً منه ، وما اعتل به من أجاز الفرار وبيان الرد عليهم من أوجه : فيها بيان الجمع بين حديث "لاعدوى" وحديث "فرّ من المجذوم فرارك من الأسد" .

الثالث : في ذكر بيان الحكمة في النهي عن الخروج من البلد الذي يقع به الطاعون.

الرابع : في ذكر بيان ما أشكل من ألفاظ هذا الباب .

الباب الخامس : في معرفة ما يشرع فعله في الطاعون بعد وقوعه . وفيه خمسة فصول :

الأول : هل يشرع الدعاء برفعه أوْ لا ؟ وعلى الأول : هل يشرع الاجتماع لذلك إذا وقع عاما أوْ لا؟ وعلى الأول : هل يكتفى فيه بالقنوت كما في سائر النوازل أو يقاس على النازلة الخاصة فيشرع الصوم قبله ثم الخروج إلى الصحراء كما في الاستسقاء ؟

الثاني : هل الطاعون إذا وقع عامًا بالنسبة للشخص الواحد كالمرض المخوّف إذا حصل له أوْ لا ؟

الثالث : في بيان ما يحترز به أيام وقوع الطاعون وغيره من الأمراض العامة ، واتصل بذلك الكلام على العدوى أيضاً .

الرابع : في الآداب المتعلقة بمن أصابه الطاعون وهي : التوجه إلى الله تعالى بسؤال العافية ، والصبر على القضاء ، والرضى به ، وحسن الظن بالله ، وبيان أدب العيادة وفضلها ، وصفة ما يدعو به العائد من الآثار القوية .

الخامس : في ذكر بيان ما يشكل من ألفاظ هذا الباب .

وفي آخر الكتـاب خاتمـــة في بيان الطواعـين الواقعة في الإسلام ، ونبذة مما قيل فيها .

* * * * *

* * *

*

الباب الأول

في مبدأ الطاعون
[وفيه أربعة فصول]

الفصل الأول
[في بيان كونه رجزا]

أخبرني أبو المعالى الأزهري ، أخبرنا أبو العباس الحلبي ، أخبرنا أبو الفرج بن الصيقل ، أخبرنا أبو محمد بن صاعد ، أخبرنا أبو القاسم الشيباني ، أخبرنا أبو علي التميمي ، أخبرنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل ، حدثنى أبي ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن حبيب بن أبي ثابت قال : كنت بالمدينة فبلغنى أن الطاعون بالكوفة ، فلقيت إبراهيم بن سعد - يعنى ابن أبي وقاص - فسألته ، فقال : سمعت أسامة بن زيد يحدث سعداً أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذا الوجع رجس وعذاب أو بقية عذاب - حبيب يشك - عذب به ناس من قبلكم ...» الحديث (١) .

وهكذا أخرجه الشيخان البخاري ومسلم من حديث شعبة (٢) .

ورواه الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت فقال : عن إبراهيم بن سعد عن أسامة وسعد جميعاً . أخرجه مسلم أيضاً (٣) .

ورواه الثورى عن حبيب فقال: عن إبراهيم بن سعد عن أسامة وسعد وخزيمة بن ثابت

وبه إلى الإمام أحمد (٤) قال : حدثنا وكيع .

ح وقرأت على إبراهيم بن أحمد التنوخي بالقاهرة ، وإبراهيم بن محمد المؤذن بمكة ، كلاهما عن أحمد بن أبي طالب سماعا ، أخبرنا أبو المنجّا بن اللّتى (٥) ، أخبرنا أبو

---

(١) المسند (٥/٢٠٩) .

(٢) البخاري (١٠/١٧٨) ٧٦ - كتاب الطب ، ٣٠ - باب مايذكر في الطاعون .
ومسلم (٤/١٧٣٩) ٣٩ - كتاب السلام ، ٣٢ - باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها .

(٣) مسلم في نفس الموضع السابق .

(٤) المسند (١/١٨٢) .

(٥) أبو المنجّا بن اللّتي : المنجّا: بفتح النون وتشديد الجيم. واللّتي : بفتح اللام وتشديد المثناة فوق ، وقيل له ابن اللتي ؛ لأن جده كان يؤتى باللبن والسمن فيلت أحدهما بالآخر ، أو يأمر من يلته . قاله الإمام النووي في كتاب الترخيص في الإكرام بالقيام ص (٨٠) ط . دار البشائر الإسلامية ، بتحقيقنا .

الوقت ، أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن أعين ، أخبرنا إبراهيم بن خزيم ، حدثنا عبد بن حميد ، حدثني أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا وكيع بن الجراح .

ح وقرأته عالياً على أم الحسن التنوخية ، عن أبي الفضل بن قدامة ، أخبرنا محمود بن إبراهيم في كتابه ، أخبرنا محمد بن أحمد بن عمر ، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الأصبهاني ، حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي ، حدثنا محمد بن عبد الله المُخَرِّمي (١) ، حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن إبراهيم بن سعد ، عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت – رضي الله عنهم – قالوا : قال رسول الله ﷺ « إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب به قوم ... » الحديث .

لفظ أبي بكر بن أبي شيبة أخرجه مسلم(٢) عن أبي بكر بن أبي شيبة على الموافقة ، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى عن محمود بن غيلان عن وكيع ، فوقع لنا بدلاً عالياً جداً .

ورواه عامر بن سعد أيضا عن أسامة .

أخبرني أبو الفرج بن العربي ، أخبرنا أبو الحسن بن قريش قراءة عليه وأنا أسمع بقراءة الحافظ أبي الفتح اليعمري ، أخبرنا إسماعيل بن عبد القوي بن عزون قال : قرئ على فاطمة بنت سعد الخير وأنا أسمع ، أن فاطمة بنت عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الجوزدانية أخبرتهم بقراءة الحافظ بن محمد اليُونَارْتى (٣) ، قالت : وأنا حاضرة أسمع ، أخبرنا محمد بن عبد الله بن رِيذة (٤) ، أخبرنا أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٥) ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدبرى ، أخبرنا عبد الرزاق (٦) ، أخبرنا

---

(١) المُخَرِّمي: بضم الميم ، وفتح الخاء المعجمة ، وتشديد الراء المكسورة. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) مسلم (١٧٣٩/٤) ٣٩ – كتاب السلام ، ٣٢ – باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.

(٣) اليُونَارْتى: بضم الياء التحتانية ، وسكون الواو ، ثم نون ، وفتح الراء ، بعدها مثناة. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) رِيذة: بكسر الراء ، وسكون التحتانية ، بعدها ذال معجمة. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) المعجم الكبير (١٣١/١).

(٦) المصنف (١٤٦/١١).

معمر ، عن الزهرى ، عن عامر بن سعد ، عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا الوباء رجز أهلك الله به بعض الأمم ، وقد بقي في الأرض منه شئ ، يجئ أحياناً ، ويذهب أحياناً ... » الحديث .

أخرجه أحمد (١) عن عبد الرزاق على الموافقة العالية .

وأخرجه مسلم (٢) عن أبي كامل الجحدري ، عن عبد الواحد بن زياد ، عن معمر ، وخالفه مسدد ، عن عبد الواحد بن زياد ، عن معمر .

قرأت على فاطمة بنت محمد المقدسية بصالحية دمشق ، عن محمد بن عبد الحميد ، عن إسماعيل بن عبد القوى بن عزون سماعاً بهذا الإسناد إلى الطبرانى (٣) قال : حدثنا معاذ بن المثنى ، حدثنا مسدد ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ .... فذكره غير أنه قال : « شئ عذب به الأمم قبلكم ... » الحديث .

وهذا الاختلاف لا أثر له بدليل رواية الأعمش والثوري الماضيتين قبل حديث جمعا فيها بين أسامة وسعد .

وبه إلى الطبرانى (٤) ، حدثنا هارون بن كامل ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث واللفظ له .

قال : وحدثنا إسماعيل بن الحسن ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب .

كلاهما عن يُونس ، عن ابن شهاب نحو حديث عبد الرزاق ، ولفظه : « إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقي بعد في الأرض فيذهب المرة ويأتي الأخرى » .

أخرجه ابن خزيمة من طريق ابن وهب ، وهكذا رواه عامة أصحاب الزهرى عنه ، عن عامر بن سعد ، عن أسامة بن زيد وحده .

---

(١) المسند (٥/٢٠٧).
(٢) مسلم فى نفس الموضع السابق.
(٣) المعجم الكبير (١/١٣٢).
(٤) المعجم الكبير (١/١٣٢).

وقد رواه ابن أبي ذئب عن الزهري بسند آخر .

وبه إلى الطبراني (١) ، حدثنا عمرو بن حفص السدوسي ، حدثنا عاصم بن علي ، حدثنا ابن أبي ذئب ، عن الزهري ، عن سالم - هو ابن عبد الله بن عمر - عن عبد الله ابن عامر بن ربيعة : أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في طريق الشام ، لما بلغه أن بها الطاعون ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن هذا الوجع أو السقم عذاب عُذِّب به من كان قبلكم ... » الحديث .

ورواه محمد بن المنكدر وسالم مولى أبي النضر وعمرو بن دينار كلهم عن عامر بن سعد عن أسامة .

أخرجه البخاري ومسلم (٢) من طريقه ، وفى بعض طرقه : « عُذِّب به بعض بنى إسرائيل » .

وفي رواية عمرو بن دينار ، عن عامر بن سعد : جاء رجل إلى سعد بن أبي وقاص يسأله عن الطاعون وعنده أسامة ، فقال أسامة : أنا أخبرك ... فذكر الحديث .

وهذا لا يدفع الرواية عن سعد لاحتمال موافقته أسامة ، بأن يكون تذكر الحديث لما حدث به أسامة .

وقد أقدم ابن عبد البر على تخطِئة الرواية عن غير أسامة وتبعه عياض وليس بجيد ، والله تعالى أعلم .

وسيجئ ما يتعلق ببقية هذا الحديث واستيفاء طرقه في الباب الرابع إن شاء الله تعالى .

***

(١) المعجم الكبير (١/١٣٠).
(٢) البخارى (٦/٥١٣) ٦٠ - كتاب أحاديث الأنبياء باب ٥٤.
مسلم (٤/١٧٣٧) نفس الموضع السابق.

[الفصل الثاني]

ذكر البيان بأن الطاعون إنما كان عذابا على الكفرة ممن مضى لا على المسلمين منهم ، وأنه لمؤمني هذه الأمة رحمة وشهادة

قال الإمام أحمد (١) : حدثنا يزيد – هو ابن هارون – ، حدثنا مسلم بن عبيد قال : سمعت أبا عَسِيْب (٢) مولى رسول الله ﷺ يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أتاني جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون ، فأمسكت الحمى بالمدينة ، وأرسلت الطاعون إلى الشام ، فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ، ورِجْس (٣) على الكافرين » .

قرأته عالياً على أم يوسف المقدسية بصالحية دمشق ، عن إبراهيم بن صالح بن العجمي : أن يوسف بن خليل الحافظ أخبرهم ، أخبرنا خليل بن بدر ، أخبرنا الحسن ابن أحمد المقرئ ، أخبرنا أحمد بن عبد الله الحافظ ، حدثنا أحمد بن يوسف ، حدثنا الحارث بن محمد ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا مسلم بن عبيد أبو نُصَيرة قال : سمعت أبا عسيب ... فذكر مثله سواء ، لكن قال في آخره : « على الكافرين » .

هذا حديث حسن .

وأبو عسيب بمهملتين ، وآخره موحدة ، بوزن عظيم ، اسمه أحمر ، وهو بكنيته أشهر ، وقد وقع لنا حديث هذا بعلو في معجم الطبراني والمعرفة لابن منده ، ولفظه في الطبراني : « فأرسلت الحمى إلى قباء » ، وله حديث آخر أخرجه ابن منده ، ولا أعرف له غيرهما .

والراوي عنه أبو نُصَيرة بنون ومهملة مصغر ، وأبوه عبيد بالتصغير أيضا ، وهو ثقة عند أحمد وغيره .

---

(١) المسند (٨١/٥).

(٢) عسيب: بفتح العين ، وكسر السين المهملتين ، ثم تحتانية ساكنة ، ثم موحدة. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) رجس: هو بكسر الراء وسكون الجيم ، بعدها مهملة ، لا يغاير قوله في الرواية الماضية رجز ؛ لأنهما بمعنى ، قال ابن السميدع: الرجز والرجس واحد وهو العذاب. قلت: إطلاق الرجس على الرجز من إبدال الزاي سينا وهو كثير ، والرجس أيضا المبعد والنجس وليس هو المراد هاهنا. (منه رحمه الله تعالى باختصار).

ولحديثه شواهد منها : في البخاري [1] عن عائشة : « أنه كان عذابا يبعثه الله على من يشاء ، فجعله رحمة للمؤمنين » . وسيأتي في الباب الثالث ، ويأتي فيه أخبار أخرى في كونه رحمةً لأمة محمد ﷺ .

وقريب من التفسير المذكور ما أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق أنس بن مالك : أنه دخل على عائشة هو و رجل آخر ، فقال لها ذلك الرجل : يا أم المؤمنين ، حدثينا عن الزلزلة . فقالت : إذا استباحوا الزنا ، وشربوا الخمر ، وضربوا بالمعازف ، غار الله في سمائه فقال للأرض : تزلزلي بهم ، فإن تابوا ونزعوا وإلاّ هدمتها [2] عليهم .

قال : يا أم المؤمنين أعذاباً لهم؟ قالت : بل موعظة ورحمة للمؤمنين ، وعذاباً وسخطاً للكافرين . قال أنس : ما سمعت حديثا بعد رسول الله ﷺ أنا أشد به فرحاً مني بهذا الحديث .

* * * * *

* * *

*

(1) البخـــاري (٥١٣/٦) .٦٠ - كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ٥٤. و (١٩٢/١٠) ٧٦ - كتاب الطب ، ٣١ - باب أجر الصابر على الطاعون .

(2) وفي نسخة الهند (هدّيها) .

[الفصل الثالث]

ذكر بيان الرجز المذكور ومن نزل عليه

قرأت على فاطمة المقدسية ، عن عبد الرحيم بن عبد المحسن ، أن عبد الغني بن سليمان أخبرهم ، أخبرنا عَشير[1] بن على ، أخبرنا مرشد بن يحيى المدينى ومحمد بن أحمد بن إبراهيم بن الحطاب[2] ، قالا : أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسن القُهُسْتانى[3] ، أخبرنا أبو الحسن علي بن حسان ، حدثنا أبو جعفر محمد بن عبد الله ابن سليمان ، حدثنا عثمان - هو ابن أبي شيبة - ، حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا سفيان .

وحدثنا عبد الله بن الحكم ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل .

قالا : حدثنا أبو إسحاق ، عن عمارة - هو ابن عبد الله السلولي - عن علي بن أبي طالب : أن نبياً من الأنبياء عصاه قومُه فقيل له : نقتلهم بالجوع . قال : لا . قال : نسلط عليهم عدواً من غيرهم . قال : لا ، ولكن موت دفيق . قال علي : فسلط الله عليهم الطاعون فجعل يقل العدد ، ويحرق القلوب . لفظ سفيان ، ولفظ إسرائيل نحوه وزاد : وهو بقية عذاب عُذِّب به من كان قبلكم .

هذا إسناد حسن أخرجه مُطَيّنٌ في مسنده هكذا ، وكأنه جعل له حكم الرفع إذ لا مجال للرأى فيه .

ثم رأيت في المبتدأ لابن إسحاق في سبب تأسيس داود عليه السلام بيت المقدس : أن الله تعالى أوحى إلى داود أن بني إسرائيل قد كثر طغيانهم ، فخيِّرهم بين ثلاث : إما أن أبتليهم بالقحط سنتين ، أو أسلط عليهم العدو شهرين ، أو أرسل عليهم الطاعون ثلاثة أيام . فخيرهم فقالوا : أنت نبينا فاختر لنا . فقال : أما الجوع فإنه بلاء فاضح لا صبر عليه ، وأما العدو فلا بقية معه ، فاختار لهم الطاعون ، فمات منهم إلى أن زالت الشمس سبعون ألفا ، ويقال مائة ألف ، فتضرع داود إلى الله تعالى ليرفعه

---

(١) عَشير: بمهملة ، ثم بمعجمة ، وزن عظيم. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) الحطاب: بحاء مهملة. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) القُهُسْتانى: بضم القاف والهاء ، وسكون المهملة بعدها مثناة. (منه رحمه الله تعالى).

عنهم ، فقال داود : إن الله قد رحمكم فأحدثوا لله شكراً بقدر ما أبلاكم ، فشرع في تأسيس المسجد إلى أن كان إكماله على يد ولده سليمان عليهما السلام .

ووجدت أصل هذا الحديث عند أحمد [1] والنسائي في الكبرى بسند على شرط مسلم من طريق ثابت البناني ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب مرفوعاً ، وصححه ابن حبان ، لكن لم يسم فيه داود ، وقال الموت بدل الطاعون ، وفي آخره أنه ﷺ كان يقول عقب صلاة العصر – وفي رواية الفجر – : « اللهم بك أقاتل ، وبك أحاول – وفي رواية : أصاول – ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو جعفر بن جرير الطبري [2] واللفظ له ، وأبو محمد بن أبي حاتم ، في تفاسيرهم ، وإبراهيم الحربي في غريبه باختصار ، كلهم من طريق يعقوب بن عبد الله بن سعد القُمِّي ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير قال: أمر موسى قومه من بني إسرائيل ، وذلك بعد ما جاء قومَ فرعون الآيات الخمس ، الطوفان وماذكر الله في الآية – يعني قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ ... ﴾ [الأعراف : ١٣٣] – فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فقال : ليذبح كل رجل منكم كبشاً ، ثم ليخضب كفه في دمه ، ثم ليضرب به على بابه ، فقال القبط لبني إسرائيل : لِمَ تجعلون هذا الدم على أبوابكم ؟ فقالوا : إن الله يرسل عليكم عذابا يقتلكم وتهلكون . فقال القبط : فما يعرفكم الله إلا بهذه العلامات ! فقالوا : هكذا أمرنا نبينا ، فأصبحوا وقد طُعِن من قوم فرعون سبعون ألفا ، فأمسوا وهم لا يتدافنون ، فقال فرعون عند ذلك لموسى عليه السلام : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ ﴾ وهو الطاعون ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤] فدعا ربه فكشفه عنهم .

هذا مرسل قوي الإسناد .

والقُمِّي : بضم القاف ، وتشديد الميم ، نسبة إلى قم ، بلد مشهور في العجم ، وهو أشعري النسب ، ويكنى أبا الحسن ، قواه النسائي ووثقه الطبراني ، وقال الدارقطني : ليس بالقوي ، وذكره ابن حبان في الثقات .

(١) المسند (٤/٣٣٣) ، (٦/١٦) .
(٢) جامع البيان (٩/٤٠) .

وشيخه جعفر بن أبي المغيرة خزاعي النسب ، وهو قُمّي أيضاً ، وهو تابعي صغير ، واسم أبي المغيرة دينار ، أفاده أبو نعيم في تاريخ أصبهان ، وقال ابن منده : ليس بالقوي ، ونقل ابن شاهين توثيقه عن أحمد ، وذكره ابن حبان في الطبقة الثالثة من الثقات ، وأخرج له البخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي والنسائي . وقد ذكر أبو داود في كتاب الصلاة من السنن عن محمد بن حميد قال : سمعت يعقوب القمي يقول : كل شيء ، حدثتكم عن جعفر ، عن سعيد ، عن النبي ﷺ فهو مسند عن ابن عباس . انتهى .

وقد أخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن يعقوب بعض هذا الحديث موصولا بذكر ابن عباس فيه ، وأخرجه الطبري [1] كذلك لكن أدخل بين سعيد بن جبير وابن عباس رجلا ، والأول أثبت .

وأخرج الطبري [2] وابن أبي حـاتم من طـريق ابن أبي نجيـح ، عن مجاهـد قـال : (الطوفان – يعني المذكور في الآية الماضية – هو الطاعون . وذكرا فيه أقوالا أخرى أرجحها أنه الماء .

ومن طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال :) [3] الرجز العذاب [4] . وهذا لا ينافي الحديث الماضي أنه الطاعون ، فقد ثبت وصفه بأنه عذاب ، وبهذا أجاب إبراهيم الحربي في غريبه بعد أن أخرج أثر مجاهد هذا . ويستفاد منه : أن المراد بالذين أصابهم الرجز في حديث أسامة هم قوم فرعون .

قال عياض في قوله : "رجز على بني إسرائيل" : قيل : مات من بني إسرائيل في ساعة واحدة عشرون ألفا ، وقيل : سبعون ألفا . قلت : قد خرجت الثاني لكنهم كانوا من قوم فرعون لا من بني إسرائيل ، ثم وقفت على المستند [5] في ذلك وهو ما أخرجه الطبري [6] من طريق سليمان التيمي التابعي المشهور ، عن سيار أن رجلاً كان

(١) جامع البيان (٩/٤١).
(٢) جامع البيان (٩/٣١).
(٣) ما بين القوسين ساقط من نسخة الدار.
(٤) جامع البيان (٩/٤١).
(٥) وفي نسخة الهند (مستنده).
(٦) جامع البيان (٩/١٢٤).

يقال له بَلْعام [1] كان مجاب الدعوة ، وأن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام ، فَرُعبوا منه رعباً شديداً ، قال : فأتوا بلعام فقالوا : ادع الله عليهم . قال : حتى أوامر ربي [2] . فوامر فقيل له : لا تدع عليهم فإنهم عبادي ، ونبيهم معهم . قال : فأهدوا له هدية فقبلها ، ثم راجعوه فقال : حتى أوامر ربي . فوامر فلم يرجع إليه شيء ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرة الأولى . قال : فأخذ يدعو عليهم فيجري على لسانه الدعاء على قومه ، وإذا أراد أن يدعو لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه ، فلاموه ، فقال : ما يجرى على لساني إلا هكذا ، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاككم ، إن الله يبغض الزنا ؛ وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا ، فأخرِجوا النساء لتستقبلهم ، فإنهم قوم مسافرون ، فعسى أن يزنوا فيهلكوا . ففعلوا ، وكان للملك بنت بها من الجمال ما الله أعلم به ، فقال لها أبوها : لا تمكني من نفسك إلا موسى . قال : فوقعوا في الزنا ، فراودها رأس سبط من الأسباط على نفسها ، فقالت : ما أنا بممكنة من نفسي إلا موسى . قال : إن منزلتي من موسى كذا وكذا ... فأرسلت إلى أبيها فأذن لها فيه فأمكنته . قال : ويأتيهما رجل من بني هارون ومعه الرمح فيطعنهما . قال : وأيده الله بقوة فانتظمهما جميعا ورفعهما على رمحه فرآهما الناس . قال : وسلط الله على بني إسرائيل الطاعون فمات منهم سبعون ألفا .

وهذا حديث مرسل جيد الإسناد ، وسيار شامي ، ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

وقد أخرج الطبري [3] هذه القصة أيضاً : من طريق محمد بن إسحاق ، عن سالم أبي النضر : أن موسى لما نزل في أرض بني كنعان [4] ، أتى قوم بلعام إلى بلعام فقالوا : هذا موسى جاء في بني إسرائيل ليخرجنا من بلادك ... فذكر القصة نحوه وأبسط منه ، وقال فيه : ثم قال : لم يبق إلا المكر والحيلة ، جمّلوا النساء وأعطوهن السلع ، ثم أرسلوهن إلى العسكر ؛ فإنهم إن زنا رجل واحد منهم كفيتموهم . ففعلوا ، فلما دخل

---

(١) بَلْعام: بفتح الموحدة وسكون اللام بعدها مهملة ، ويقال له أيضاً بلعم بغير ألف كما في الرواية الثانية ، وهو: ابن عابورا ، بمهملة ، وموحدة مضمومة ، وواو ساكنة ، وراء مفتوحة ، ويقال: آبر: بهمزة بدل العين ، وموحدة مضمومة بغير إشباع ، وبلاألف آخره. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) أوامر ربي : أشاور ربي .

(٣) جامع البيان (٩/١٢٥).

(٤) كنعان: بفتح الكاف ، وسكون النون ، بعدها مهملة ، وبعد الألف نون. (منه رحمه الله تعالى).

النساء العسكر ، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كشتابنت صور برجل من عظماء بني إسرائيل - وهو زِمْرِي [1] بن شاوُم [2] رأس سبط شمعون [3] بن يعقوب - فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ، ثم أقبل حتى وقف بها على موسى فقال : إني أظنك ستقول هذا حرام عليك . قال : أجل ، هي حرام عليك لا تقربها . قال : فوالله لا نطيعك في هذا . ودخل بها قبته فوقع عليها ؛ فأرسل الله الطاعون في بني إسرائيل ، وكان فِنْحاص [4] بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى ، وكان قد أعطي بسطة في الخلق ، وقوة في البطش ، وكان غائباً فجاء والطاعون يجوس [5] في بني إسرائيل ، فأخبر الخبر ، فأخذ حربته ثم دخل القبة فانتظمهما بحربته وهما متضاجعان ، ثم خرج بهما وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون فحسب مَنْ هلك مِنَ الطاعون فيما بين أن أصاب زِمْرِي المرأة إلى أن قتله فنحاص سبعون ألفا ، والمقلل يقول عشرون ألفا .

وأخرج الطبري هذه القصة مختصرة من أوجه أخرى ، لكن ما فيها ذكر الطاعون إلا في هاتين الروايتين ، ورجالهما ثقات ، وكل منهما تشد الأخرى .

وقد جاء في خبر آخر أنه أرسل على طائفة من بني إسرائيل وهم ﴿ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ [البقرة : ٢٤٣] كما سيأتي بيانه ، وقول من قال : إنهم خرجوا فراراً من الطاعون .

قال عياض : يحتمل الحديث وجهين ؛ أحدهما : أنه أول ما بدأ في الأرض وحدث بالناس حَدَثَ بهم . والثاني : أنهم عذبوا به .

قلت : ولا منافاة بين الوجهين فيحمل على أنه أول عذاب حدث من جنسه بأولئك ، ولكن تظهر المغايرة بينهما بأن يكون سبق لغيرهم لا على سبيل التعذيب ، ثم حدث بهم على سبيل التعذيب ، فتكون الأولية مقيدة فيهم بالتعذيب لا بمطلق الطاعون ، ولا يخفى بعده ؛ لأن الطاعون يعذب الجسد بلا شك سواء كان تتسبب عنه الرحمة أَوْ لا .

---

(١) زِمْرِي: بزاي مكسورة ، وميم ساكنة ، ثم راء. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) شاوم: بشين معجمة ، وواو مضمومة. منه رحمه الله تعالى.

(٣) شمعون: بشين معجمة مفتوحة. منه رحمه الله تعالى.

(٤) فنحاص: بكسر الفاء ، وسكون النون ، بعدها حاء مهملة ، وآخره صاد مهملة. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) يجوس: بجيم وسين مهملة ، أي: يتخللهم. (منه رحمه الله تعالى).

[الفصل الرابع]

ذكر كشف مشكل مافي هذا الباب الأول سوى ماوقع في أثناء الباب

قوله : الطاعون : سيأتي في الباب الثاني.

قوله : المُخَرِّمي : بضم الميم ، وفتح الخاء المعجمة ، وتشديد الراء المكسورة.

قوله : اليُونَارتي : بضم الياء التحتانية ، وسكون الواو ، ثم نون ، وفتح الراء بعدها مثناة.

قوله : رِيذة : بكسر الراء ، وسكون التحتانية ، بعدها ذال معجمة.

قوله : عَسِيب : بفتح العين ، وكسر السين المهملتين ، ثم تحتانية ساكنة ثم موحدة.

قوله : رِجْس : هو بكسر الراء ، وسكون الجيم ، بعدها مهملة ، لا يغاير قوله في الرواية الماضية رجز ؛ لأنهما بمعنى واحد ، قال ابن السَمَيْدَع – بفتح المهملة ، والميم ، وسكون التحتانية ، وفتح الدال المهملة ، وبالعين المهملة – : الرجز والرجس واحد وهو العذاب.

قلت : إطلاق الرجس على الرجز من إبدال الزاى سينا وهو كثير ، والرجس أيضا المبعد والنجس ، وليس هو المراد هاهنا ، وسأذكر مزيدا لذلك في الباب الثاني إن شاء الله تعالى.

قوله : عشير : بمهملة ، ثم بمعجمة ، وزن عظيم.

والحطاب : بحاء مهملة.

والقُهُسْتاني : بضم القاف والهاء ، وسكون المهملة ، بعدها مثناة.

قوله : بَلْعام : بفتح الموحدة ، وسكون اللام ، بعدها مهملة ، ويقال له أيضا بلعم بغير ألف كما في الرواية الثانية ، وهو : ابن عابورا بمهملة ، وموحدة مضمومة ، (و واو ساكنة ، وراء مفتوحة ، ويقال : آبُر : بهمزة بدل العين ، وموحدة مضمومة) (١) بغير إشباع ، وبلا ألف آخره.

قوله : كنعان : بفتح الكاف ، وسكون النون ، بعدها مهملة ، وبعد الألف نون.

---

(١) مابين القوسين ساقط من نسخة الهند.

قوله : زِمْري : بزاي مكسورة ، وميم ساكنة ، ثم راء .

وشاوُم : بشين معجمة ، وواو مضمومة .

(شَمعون : بشين معجمة مفتوحة) [1] .

قوله : فِنْحاص : بكسر الفاء ، وسكون النون بعدها حاء مهملة ، وآخره صاد مهملة .

قوله : يجوس : بجيم وسين مهملة : أي يتخللهم .

* * * * *

* * *

*

(١) مابين القوسين ساقط من نسخة الهند.

[الباب الثانى]

فى التعريف به
[وفيه تسعة فصول]

[الفصل الأول]

[فى ذكر اشتقاقه]

قال الجوهري : الطاعون وزنه فاعول من الطعن ، عدلوا به عن أصله ووضعوه دالا على الموت العام كالوباء. ويقال : طُعن فهو مطعون وطعين ، إذا أصابه الطاعون ، وكذا إذا أصابه الطعن بالرمح .

* * * * *
* * *
*

[الفصل الثانى]

ذكر صفته وسبب حدوثه

قال إبراهيم الحربى في غريب الحديث : الوباء هو الطاعون والمرض العام . قال : والطاعون معروف ، وهو قرحة يبلى الله بها من شاء ، يطول ذكر سببها .

وقال ابن العربى في شرح الترمذى : الطعن الذى يُصيبه الطاعون ، وهو : الوجع الغالب الذى يطفئ الروح كالذبحة [1] ، وإنما سمي طاعونا لعموم [2] مصابه وسرعة قتله ، فدخل فيه مثله .

وقال أبو الوليد الباجى في شرح الموطأ : هو مرض يعم الكثير من الناس ، في جهة من الجهات بخلاف المعتاد من أمراض الناس ، ويكون مرضهم واحد بخلاف بقية الأوقات فتكون الأمراض مختلفة .

ونقل ابن التين عن الداوودى قال : الطاعون حبة تخرج في الأرفاغ [3] وفي كل طى من الجسد . والصحيح أنه الوباء . كذا قال (وكذا) [4] قال الخليل بن أحمد في العين : الطاعون هو الوباء .

وقال ابن الأثير في النهاية في قوله ﷺ "فناء أمتى بالطعن والطاعون" . الطعن : القتل بالرمح ، والطاعون : المرض العام والوباء الذى يفسد له الهواء ، فتفسد به الأمزجة والأبدان . ومراد الحديث أن الغالب على فناء الأمة بالفتن التى تسفك فيها الدماء ، وبالوباء ، وقد تكرر ذكر الطاعون في الحديث .

---

(١) الذُبْحَة : بفتح الذال المعجمة والموحدة ، وقد تسكن الباء ، وبالمهملة ، وجع يعرض في الحلق من الدم ، أو قرحة تظهر فيه من داخل فينسد معها ، وقد ينقطع معه النفس. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) وفى نسخة الرباط وتركيا (لعظم).

(٣) الأرفاغ: بالفاء والغين ، جمع رفغ: بضم الراء وقد تفتح وسكون الفاء ، هى أصول المغابن كالآباط والحوالب ومطاوى الأعضاء ، وهو مجتمع العرق والوسخ ، وقد يطلق الرفغ على الوسخ ، وليس مرادا هنا. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) زيادة من نسخة الحرم والدار.

وقال القاضى عياض في شرح مسلم : قوله - يعنى في حديث أسامة في الطاعون - : « إن هذا الوجع أو السقم » العرب تسمى كل مرض وجعا . وقوله : « رجز » : الرجز العذاب . وقد قال في الرواية الأخرى رجس [1] عذب به بعض الأمم .

قال : وقال ابن عبد البر بعد أن ذكر الحديث : إن الطاعون غُدَّة [2] كغدة البعير تخرج في المراق [3] والآباط . قال غير واحد من أهل العلم : وقد تخرج في الأيدى والأصابع ، وحيث شاء الله من البدن .

قال عياض : أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد ، والوباء عموم الأمراض ، فسميت طاعونا لشبهها بالهلاك بذلك ، وإلا فكل طاعون وباء ، وليس كل وباء طاعونا ، ويدل على ذلك حديث أبى موسى : « الطاعون وَخْز [4] أعدائكم من الجن » ، وإن وباء الشام الذى وقع في الأحاديث إنما كان طاعونا ، وهو طاعون عمواس وكان قروحا .

وقد لخص الشيخ محيى الدين النووى في شرح مسلم كلام عياض ، وقال في تهذيب الأسماء واللغات [5] : الطاعون مرض معروف ، وهو بُثَرٌ [6] وورم مؤلم جدا ، يخرج مع لهيب ويسوّد ما حواليه أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة ، ويحصل معه خفقان القلب والقئ ، ويخرج في المراق والآباط غالبا ، وفي الأيدى والأصابع وسائر الجسد .

---

(١) وفي الرباط والهند (رجز).

(٢) غُدَّة: بضم الغين المعجمة وتشديد الدال. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) المَرَاقّ: بفتح الميم ، وتخفيف الراء ، وتشديد القاف ، هو ما رق من أسفل البطن ولان ، ولا واحد له من لفظه ، وميمه زائدة ، قاله الجوهرى. وقال أبو عبيد الهروى فى الغريب: واحدها مرق ، وهو ماسفل من البطن من المواضع التى ترق جلودها . (منه رحمه الله تعالى).

(٤) وَخْز: بفتح الواو ، وسكون الخاء المعجمة ، بعدها زاى ، وهو طعن غير نافذ ، هذا أصل الوخز ، وإنما قيل لطعن الجن: إنه غير نافذ ؛ لأنه يقع من الباطن إلى الظاهر ، فيؤثر فى الباطن أولا ، ثم قد ينفذ إلى الظاهر وقد لا ينفذ ، بخلاف طعن الإنس ، فإنه يؤثر أولا فى الظاهر ، ثم قد ينفذ إلى الباطن وقد لا ينفذ. (منه رحمه الله تعالى وله بقية).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١٨٧/٣).

(٦) بُثَر: بضم الموحدة ، وفتح المثلثة ، جمع بَثْر: بفتح الموحدة والمثلثة وقد يسكن ، وهو كالدمل الصغير. (منه رحمه الله تعالى).

وقال في الروضة (١) : فسر بعضهم الطاعون بانصباب الدم إلى عضو ، وقال أكثرهم : إنه هيجان الدم (في جميع البدن) (٢) وانتفاخه . قال المتولي : وهو قريب من الجذام ، من أصابه تآكلت أعضاؤه ، وتساقط لحمه . انتهى .

وأصـل كلام المتولي مستمد من كلام القاضي حسين في تعليقته المشهورة ، فإنه قال : الطاعون داء يصيب الإنسان وهو قريب من الجذام ، والعضو الذي يصيبه ذلك يتآكل ويَرِمَ (٣) . وقال في تعليقته الأخرى التي علقها عنه البغوي : الطاعون يشبه الجذام يَتْجَرح بهُ عضو الإنسان ويرم .

وقال الغزالي في البسيط : الطاعون انتفاخ جميع البدن من الدم مع الحمى ، أو انصباب الدم إلى بعض الأطراف فينتفخ ذلك الموضع ويحمر ، وقد يذهب العضو إن لم يتدارك أمره في الحال . انتهى .

وقال البندنيجي : الطاعون أن يسْوَدَّ موضع من البدن .

وقال أبو علي ابن سينا وغيره من حُذَّاق الأطباء : الطاعون مادة سُمِّيَّة تحدث ورما قتّالا يَحْدث في المواضع الرخوة والمغابن (٤) من البدن ، وأغلب ما يكون تحت الإبط ، أو خلف الأذن ، أو عند الأرنبة (٥) ، قال : وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد ، يستحيل إلى جوهر سُمّي يفسد العضو ويغير ما يليه ، ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة فيحدث القيء والغثيان والغَشْي والخفقان ، وهو لرداءته لا يقبل من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع ، وأرداه ما يقع في الأعضاء الرئيسية ، والأسود منه قلّ مَنْ يَسلّم منه ، وأسلمه الأحمر ثم الأصفر .

---

(١) الروضة (٦/١٢٦).

(٢) ما بين القوسين غير موجود بجميع النسخ وزدناه من الروضة.

(٣) ويرم: بفتح التحتانية ، وكسر الراء ، وتخفيف الميم ، من الورم. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) المغابن: جمع مغبن ، هي بواطن الآباط والأفخاذ وشبهها ، ويقال أيضا لمعاطف الجلد. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) الأرنبة: أي قصبة الأنف ، وهي مما يقل وقوع الطاعون به حتى أنكره بعضهم ، لكن قد وجد مصداق ذلك في الفناء الكبير بالديار المصرية والشامية سنة تسع وأربعين ، واستغربوه جدا حتى ذكر ذلك الصفدي في رسالة له متعجبا منه. (منه رحمه الله تعالى).

قال ابن سينا : والطواعين تكثر عند الوباء ، وفي البلاد الوبيئة ، ومِنْ ثَمّ أطلق على الطاعون وباء وبالعكس . قال : وأما الوباء : فهو فساد جوهر الهواء الذى هو مادة الروح ومدده ، ولذلك لا تمكن حياة الإنسان بل جميع الحيوان بدون استنشاقه ، بل متى عدم الحيوان استنشاق الهواء مات .

فحاصل ما اجتمع لنا من كلام من تقدم كلامه أن الطاعون أنواع :

أشهرها : ما يخرج في البدن من الورم خصوصا في المغابن ، وأنه قد يقع في اليد والأصابع وجميع الأعضاء لكنه نادر بالنسبة لما يقع في المغابن .

الثانى : يقع في أى عضو كان من البدن أيضا مثل القرحة والبثرة ، لكن لا اختصاص له بالمغابن دون غيرها .

الثالث : ما يطفئ الروح كالذبحة ، وليست الذبحة طاعونا ، وإنما في أنواع الطاعـون ما يضاهيها ، ولذلك يختلف حال من وقعت به في زمن الطاعون وفي غير زمنه ، وإنما قلت ذلك لأنه ثبت في الحديث الصحيح - كما سيأتى في موضعه - أن الطاعـون لا يدخل المدينة ، وثبت فيه أيضا أن النبى ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الذبحة ، وكذلك البراء بن معرور ، وكلاهما كان بالمدينة ، لكن يحتمل أن يقال : إن ذلك كان قبل دعاء النبى ﷺ بأن الطاعون لا يدخلها .

الرابع : ما يقع في عضو ما فيتآكل منه كالجذام ، كما تقدم في كلام القاضى الحسين ، ورأيت له في ذلك سلفا .

فأخرج عمر بن شبّة في أخبار البصرة من طريق ضمرة ، عن عبد الله بن شوذب قال : كتب زياد إلى معاوية فذكر قصة فيها : فخرجت على أصابعه طاعونة فما أتت عليه جمعة حتى مات . وفيه : أن أصابعه تآكلت فأشاروا عليه بقطعها لأن لا تنتقل الآكلة ثم لم يفعل ذلك ومات .

تكملة

ذكر علاء الدين بن النفيس في كتاب الموجز في الطب : أن الوباء ينشأ عن فساد يعرض لجوهر الهواء بأسباب سماوية أو أرضية ، فمن الأرضية الماء الآسن والجِيَف الكثيرة كما يقع في مواضع المعركة إذا لم تدفن القتلى ، والتربة الكثيرة النزّ والكثيرة التعفن ، وكثرة الحشرات والضفادع . ومن السمارية كثرة الشهب والرجوم في آخر الصيف وفي آخر الخريف ، وكثرة الجنوب والصيافي [1] الكانونين ، وإذا كثرت علامات المطر في الشتاء ولم تمطر . انتهى .

ومستند ذلك كله التجارب ، وقد ذكر الجاحظ أن العَقْعَق [2] إذا أحس بتلك الريح هرب من تلك الأرض . قال : وكذلك الفار يهرب تحت الأرض .

---

(١) الجنوب: قال ابن منظور: ريح تخالف الشمال تأتي من يمين القبلة. أ هـ.
والصيافي: جمع الصيف ، قال الفيروزآبادي: الصيف كسيد ويخفف: المطر الذي يجيء في الصيِّف أو بعد الربيع. أ.هـ.

(٢) العَقْعَق: قال ابن الأثير في النهاية (٣/٢٧٦): في حديث النخعي: "يقتل المحرم العقعق". هو طائر معروف ذو لونيْن: أبيض وأسود ، طويل الذّنب ، ويقال له: القعقع أيضا ، وإنما جاز قتله ؛ لأنه نوع من الغربان.

ذكر البيان الدال على أن الطاعون غير مرادف للوباء وأن إطلاقه عليه إنما هو بطريق المجاز لكونه أخص منه

ثبت في الصحيحين والموطأ (1) من حديث أبي هريرة قال : قال رسـول الله ﷺ : « على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » .

وأخرج البخاري (2) من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : " المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة فلا يدخلها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى " .

وقد أخرج البخاري ومسلم (3) في كتاب الحج جميعا من طريق أبي أسامة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله ... الحديث . وفيه قول بلال : اللهم الْعَن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء .

فلو كان الطاعون هو الوباء لتعارض الحديثان ، لكن لا تعارض بينهما ؛ لأن الطاعون أخص من الوباء ، وقولها : أوبأ : أفعل تفضيل من الوباء ، وهو يمد ويقصر . قال أهل اللغة : هو المرض العام . يقال : أوبأت الأرض فهي وبيئة ، ووَبِئت فهي وبئة ، ووُبِئت بالضم فهي موبوءة .

وأرادت عائشة في وصفها المدينة بالوباء كثرة ما كان فيها من الحمى ، وقد دلَّ حديث أبي عَسِيْب الماضي (4) أنه ﷺ اختارها على الطاعون وأقرها بالمدينة ، ثم دعا الله فنقلها إلى الجحفة ، كما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أيضا (5) ، وبقيت

---

(1) البخاري (95/4) 29 – كتاب فضائل المدينة ، 9 – باب لا يدخل الدجال المدينة.
مسلم (1005/2) 15 – كتاب الحج ، 87 – باب صيانة المدينة من دخول الطاعون والدجال إليها.
الموطأ (892/2) 45 – كتاب الجامع ، 4 – باب ما جاء في وباء المدينة.

(2) البخاري : نفس الموضع السابق.

(3) البخاري (99/4) 29 – كتاب فضائل المدينة ، باب 12.
مسلم (1003/2) 15 – كتاب الحج ، 86 – باب الترغيب في سكنى المدينة ، والصبر على لأوائها.

(4) تقدم ذكره وتخريجه ص 33.

(5) يعني قوله صلى الله عليه وسلم : "وانقُل حمَّاها إلى الجحفة". وهو قطعة من الحديث السابق عن عائشة رضي الله عنها.

منها بقايا في المدينة ، ففى قصة العرنيين في الصحيحين (١) من حديث أنس أنهم استوخموا المدينة ، وفي لفظ أنهم قالوا : إن هذه أرض وبيئة . وفي رواية : أن أبدانهم سقمت ، وأن ألوانهم اصفرت . والجمع بين الحديثين أن الحمى كانت تصيب بالمدينة من أقام بها من أهلها ، ومن ورد عليها من غير أهلها ، فلما دعا لها النبى ﷺ بأن تنتقل الحمى عنها إلى الجحفة ، ارتفع ذلك عن أهلها ، إلا من ندر . وبقى من لم يألف هواها يصيبه من ذلك ، وقد وقع فيها الوباء بالموت الكثير في زمن عمر رضى الله عنــه .

ففى صحيح البخارى (٢) من طريق أبى الأسود الدؤلى قال : أتيت المدينة وقد وقع بها مرض ، والناس يموتون موتا ذريعا ، فجلست إلى عمر ... فذكر حديثا . والذريع بالذال المعجمة ، بوزن عظيم ، الكثير السريع . ولا يعارض هذا الدعاء برفع الوباء عنها ؛ لأنه إنما وقع بها نادرا ، وأما الطاعون فلم ينقل قط أنه وقع بها من الزمان النبوى إلى زماننا هذا ولله الحمد ، وسأذكر الحكمة في كون المدينة لا يدخلها الطاعون مع ثبوت كونه شهادة في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

وقد ظهر بما أوردته أن الطاعون أخص من الوباء ، وأن الأخبار الواردة في تسمية الطاعون وباء لا يلزم منه أن كل وباء طاعون ، بل يدل على عكسه وهو أن كل طاعون وباء ، ولكن لما كان الوباء ينشأ عنه كثرة الموت وكان الطاعون أيضا كذلك ، أُطلِق عليه اسمه ، ويفارق الطاعون الوباء بخصوص سببه الذى لم يرد في شيء من الأوباء نظيره ، وهو كونه من طعن الجن ، وهو عندى لا يخالف قول الأطباء فيما تقدم من كونه ينشأ عن مادة سمية ، أو هيجان الدم ، أو انصبابه إلى عضو أو غير ذلك ؛ لأنه لا مانع أن ذلك يحدث عن الطعنة الباطنة فيحدث (عنها) (٣) المادة السمية ، أو يهيج بسببها الدم أو ينصب ، فللأطباء إذ لم يتعرضوا لكونه من طعن الجن معذرة ؛ لأن ذلك أمر لا يُدرك

---

(١) البخارى (١/٣٣٥) ٤ - كتاب الوضوء ، ٦٦ - باب أبوال الإبل والدواب والغنم ومرابضها .
وقد ذكره البخارى فى مواضع كثيرة من الصحيح فانظر أطرافها فى هذا الموضع.
ومسلم (٣/١٢٩٦) ٢٨ - كتاب القسامة ، ٢ - باب المحاربين والمرتدين.
(٢) البخارى (٥/٢٥٢) ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٦ - باب تعديل كم يجوز؟
(٣) وفى نسخة الحرم والدار (منها).

بالعقل ولا بالتجربة ، وإنما تلقيناه من خبر الشارع ، فتكلموا على ما ينشأ من ذلك الطعن (بقدر) [1] ما اقتضته قواعد علمهم والله أعلم .

نعم يَرِدُ على من زعم منهم أو من غيرهم أنه من فساد الهواء إشكال ، وقد تكلم عليه ابن القيم في الهدى وأبطله من أوجه :

منها : وقوعه في أعدل الفصول ، وفي أصح البلاد هواء وأطيبها ماء ، وبأنه لو كان من الهواء لعم الناس والحيوانات ، ونحن نجد الكثير من الناس والحيوان يصيبه الطاعون ويجانبه من جنسه ومن يشابه مزاجه من لم يصبه ، وشوهد يأخذ أهل بيت من بلد بأجمعهم ، ولا يدخل بيتا بجوارهم أصلا ، أو يدخل بيتا فلا يصاب منه إلا البعض ، وشوهد عند فساد الهواء ربما كان أقل مما يكون عند اعتداله ، وبأن فساد الهواء يقتضي تغير الأخلاط وكثرة الأمراض والأسقام ، وهذا يقتل بلا مرض أو بمرض يسير ، وبأنه لو كان من فساد الهواء لعم جميع البدن بمداومة الاستنشاق ، والطاعون إنما يحدث في جزء خاص من البدن لا يتعداه لغيره ، فيقتل صاحبه غالبا ، وبأنه لو كان بسبب فساد الهواء لدام في الأرض ، لأن الهواء يصح تارة ، ويفسد تارة ، والطاعون يأتي على غير قياس ولا تجربة ولا انتظام ، فربما جاء سنة على سنة ، وربما أبطأ عدة سنين ، وبأن كل داء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء من الأدوية الطبيعية على ما صح في الحديث : "ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاءً ، علمه من علمه ، وجهله من جهله" أخرجه ابن ماجه [2] من حديث ابن مسعود بسند حسن ، وصححه ابن حبان والحاكم ، وله شواهد بعضها في صحيح مسلم . وهذا الطاعون أعيا الأطباء دواؤه ، حتى سلَّم حذاقهم أنه لا دواء له ولا دافع له إلا الذى خلقه وقدره . والله أعلم .

وقال الكلاباذى في معاني الأخبار بعد أن ساق قول عمرو بن العاص الآتى في الباب الرابع "إن هذا الوجع" ، وحديث عبد الرحمن بن عوف "إذا سمعتم الوباء ببلد

---

(١) وفى نسخة الرباط (بحسب).

(٢) سنن ابن ماجة: (١١٣٨/٢) ٣١ - كتاب الطب ١ - باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء . لكن بدون ذكر زيادة "علمه من علمه وجهله من جهله" ، وعزو الحافظ هذه الزيادة لابن ماجه فى هذا الموضع. وفى الفتح (١٣٥/١٠) ، يرجِّح أن الحافظ قد يكون اطلع عليها فى بعض نسخ ابن ماجه . وقد أخرج أحمد الحديث بتلك الزيادة فى المسند (٤٤٣/١) من رواية ابن مسعود ، وفى (٢٧٨/٤) من رواية أسامة بن شريك.

فلا تقدموا عليه" : الوجع والوباء مرض كسائر الأمراض التي تصيب الناس من الطبائع وغلبة بعض الأمشاج ، وإن لم يكن طعن إنسان ولا وخز جنٍّ ، فيجوز أن يكون الطاعون على ضربين :

ضرب منه : داء ووجع ووباء يقع من غلبة بعض الأمشاج الذى هو الدم ، أو الصفراء إذا احترقت أو غير ذلك ، من غير سبب يكون من الجن .

وضرب منه : من وخز الجن ، وهذا كما يكون القرح داء ووجعا يصيب الإنسان من احتراق الدم وغلبة الأمشاج ، فيخرق له الجلد ، ويشرح له اللحم ، وإن لم يكن هناك طعن

ومنه ما يكون من طعن الإنس ، قال الله تعالى : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ (١) وقد قرئ بفتح القاف وضمها ، فبالفتح : الجراح ، وبالضم : الخراج ، فكما سمى الطعن والخراج قرحا ، كذلك سمى النبى ﷺ وأصحابه الطاعون وجعا وداء . وقال الله تعالى ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ﴾ (٢) والألم الوجع ، والوجع مرض وداء ، فكما لم تناف إحدى القراءتين الأخرى في الجراح والخراج ، كذلك لا ينافي أحد الحديثين الآخر في الوخز والوباء ، فكما يجوز أن يكون القرح جراحا وخراجا ، كذلك يجوز أن يكون الطاعون وخزا وداء . انتهى .

ومحصل كلامه أن تسمية الطاعون وباءً أو وجعا أو داء محمول على معنى غير المعنى في كونه وخزا من الجن ، والذى يظهر أن الذى ذكره غير لازم ؛ فإن الوباء يطلق على كثرة الموت - كما تقدم - وأنه أعم من الطاعون ، وأما الداء والوجع فيطلق كل منهما على كل مرض طاعونا كان أو غيره ، وأما كَون بعض الأوجاع في الطاعون قد تكون من غلبة الطبائع لاينافي كونه من طعن الجن ؛ لاحتمالٍ أن يحصل ذلك التغيّر عند وجود الطعنة فينزعج (بذلك) (٣) المطعون فيفور به الدم ، وتحصل له الكيفية الرديئة يُشخصها الأطباء بحسب ما اقتضته قواعدهم ، ولا ينافي ذلك أصل سببه الأول . والله أعلم .

***

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٢) سورة النساء: ١٠٤.

(٣) وفى نسخة الحرم (بدن).

[الفصل الثالث]

ذكر الأحاديث الواردة في أن الطاعون وخز الجن والكلام عليها

قال الإمام أحمد (١) : حدثنا عبد الرحمن - هو ابن مهدى - ثنا سفيان - هو الثورى - عن زياد بن عِلاقة (٢) ، عن رجل ، عن أبي موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : "فناء أمتي بالطعن والطاعون" . فقيل : يارسول الله ، هذا الطعن قد عرفناه ، فما الطاعون؟ قال : « وخز أعدائكم من الجن ، وفي كل شهادة » .

رواه عبد الرزاق في مصنفه عن الثورى ، ومن طريقه أخرجه الطبرانى (٣) . ورواه وكيع عن سفيان ، فقال : عن جرير بدل أبي موسى ، كذا نقلته من مسند أبي بكر بن أبي شيبة ، وما أظنه إلا وهما .

وهذا الإسناد إلى زياد بن علاقة على شرط الصحيح ، ولولا الراوى المبهم لكان المتن محكوما بصحته ، لكن قد سماه بعض الرواة عن زياد بن علاقة ، وقد كان شعبة يرويه عن زياد بن علاقة ، ويقول : إنه كان يحفظ اسم المبهم .

قال أحمد (٤) أيضا : ثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة ، عن زياد بن علاقة ، حدثنى رجل ، - قال شعبة : قد كنت أحفظ اسمه - قال : كنا على باب عثمان ننتظر الإذن ، فسمعت أبا موسى يقول : قال رسول الله ﷺ : "فناء أمتي بالطعن والطاعون" . قال : فقلنا : يارسول الله ، هذا الطعن قد عرفناه ، فما الطاعون؟ قال : "طعن أعدائكم من الجن وفي كل شهادة" . قال زياد : فلم أرض بقوله فسألت سيد الحى وكان معهم ، فقال : صدق .

وقد أخرجه الطبرانى من طريق الحكم بن عتيبة ، عن زياد بن علاقة ، (فوافق شعبة على وصف المبهم بأنه من قوم زياد بن علاقة .) (٥)

---

(١) المسند (٤/٣٩٥).

(٢) علاقة: بكسر المهملة ، وتخفيف اللام ، بعدها قاف. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) مسند أبى موسى ضمن الأجزاء المفقودة من المعجم الكبير ، وقد أورد الهيثمى الحديث فى مجمع الزوائد (٢/٣١١) وقال: رواه أحمد بأسانيد ، ورجال بعضها رجال الصحيح ، ورواه أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الثلاث.

(٤) المسند (٤/٤١٧).

(٥) ما بين القوسين ساقط من نسخة الدار.

وأخرجه أيضا من طريق إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق ، عن زياد بن علاقة ، عن رجل من الحى ، عن أبي موسى ، فذكر الحديث مثل شعبة ، لكن قال فيه : "طعن عدوكم" بلفظ الإفراد على إرادة الجنس . وقد وقع لنا هذا الراوى مسمىً من وجه آخر عن الثورى وغيره ، قال أبو الحسن الخلعى [1] فى فوائده : أخبرنا الخصيب [2] بن محمد بن عبد الله الخصيبى القاضى ، أنبا أبي ، أنبا الحسن بن عَلُّوَيَه [3] القطان .

وأخرجه الطبرانى فى الأوسط عن الحسن بن علوية المذكور ، ثنا إسماعيل بن عيسى العطار ، أنبا إسماعيل بن زكريا ، عن مسعر [4] وسفيان الثورى كلاهما عن زياد ابن علاقة ، عن يزيد بن الحارث ، عن أبي موسى الأشعرى فذكر الحديث مثل سياق عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان .

قال الطبرانى : لم يروه عن مسعر إلا إسماعيل ، تفرد به إسماعيل . قلت : وهما ثقتان ، ولعل إسماعيل بن زكريا حمل رواية الثورى على رواية مسعر .

ويزيد بن الحارث هو الثعلبى [5] ، وقد أثبت البخارى فى تاريخه سماعه من عبد الله ابن مسعود وهو أقدم وفاة من أبي موسى ، فلا يستبعد سماعه من أبي موسى ، وذكره ابن حبان فى ثقات التابعين ؛ فالحديث حسن .

وقد تابع مسعراً على تسميته يزيدَ بن الحارث سَعَّادُ بن سليمان ، أخرجه البزار [6] والطبرانى فى الأوسط من طريق أبي عتاب سهل بن حماد الدلال عنه ، وصرح فى روايته بالتحديث فى جميع إسناده إلى يزيد بن الحارث ، وساق المتن مثل رواية عبد الرحمن عن سفيان ، إلا أنه قال فيه : قال : فقلنا يارسول الله .

---

(١) الخلعى: بكسر المعجمة ، وفتح اللام ، اسمه على بن الحسن. (منه رحمه الله تعالى) .

(٢) الخصيب: بفتح المعجمة ، وكسر المهملة ، بعدها تحتانية ساكنة ، ثم موحدة ، والخصيبى نسبة إلى هذا الاسم. (منه رحمه الله تعالى) .

(٣) عَلُّوَيَه: بفتح العين المهملة ، وتشديد اللام المضمومة ، وسكون الواو ، بعدها تحتانية مفتوحة. (منه رحمه الله تعالى) .

(٤) مسعر: بكسر الميم ، وسكون المهملة. (منه رحمه الله تعالى) .

(٥) الثعلبى: بمثلثة مفتوحة ، ومهملة ساكنة. (منه رحمه الله تعالى) .

(٦) البزار "كشف الأستار" (٣/٣٩٦) .

وسَعَّاد بفتح السين المهملة ، وتشديد العين المهملة ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال أبو حاتم الرازى : ليس بقوى . انتهى .

ومثل هذا يصلح أن يعتبر به ، وأن يكتب حديثه فى المتابعات ، وقد تابعهما [1] أبو مريم عبد الغفار بن القاسم الأنصارى ، عن زياد بن علاقة عن يزيد بن الحارث ، عن أبي موسى ، أخرجه الطبرانى أيضا ، وأبو مريم ضعيف جدا .

وقد خالف الجميع أبو بكر النهشلى [2] فى تسميته .

قال أحمد [3] : حدثنا يحيى بن أبي بكير ، ثنا أبوبكر النهشلى ، ثنا زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك قال : خرجنا فى بضع عشرة نفسا من بنى ثعلبة ، فإذا نحن بأبي موسى ، وإذا هو يحدث عن رسول الله ﷺ ، فذكر الحديث مختصرا .

هكذا سماه أبو بكر النهشلى ، وهو ثقة أخرج له مسلم ، وقد اختلف فى اسمه ، لكنه مشهور بكنيته . قال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والعجلى : ثقة . وقال أبو حاتم : شيخ صالح يكتب حديثه .

قلت : ولا معارضة بينه وبين رواية من سماه يزيد بن الحارث ؛ لما تقدم فى رواية شعبة أن زياد بن علاقة سمعه من سيد الحى بعد أن سمعه من الأول ، فيحتمل أن يكون الأول هو يزيد بن الحارث ، وسيد الحى هو أسامة بن شريك ، وهو صحابى معروف أخرج له أصحاب السنن الأربعة .

وقد أخرج الحديث المذكور البزار [4] عن الفضل بن سهل ، عن يحيى بن أبي بكير به فقال فى روايته : عن قطبة بن مالك بدل أسامة بن شريك ، وما أظنه إلا وهما من البزار أو من شيخه ؛ فإن أحمد بن حنبل أحفظ من الفضل بن سهل وأتقن ، وقد تابعه العباس بن محمد الدورى ، عن يحيى بن أبي بكير ، أخرجه البيهقى فى الدلائل [5] ، ويحتمل أن يكون عند زياد بن علاقة عن جماعة ، وقطبة المذكور صحابى أيضا ، وهو عم زياد الراوى عنه .

---

(١) يعنى: مسعرا ، وسعاد بن سليمان.

(٢) النَّهْشَلى: بفتح النون ، وسكون الهاء ، بعدها معجمة. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) المسند (٤/٤١٧).

(٤) البزار "كشف الأستار" (٣/٣٩٥).

(٥) دلائل النبوة (٦/٣٨٤).

وقد أخرج الطبراني الحديث المذكور من طريق يحيى بن عبد الحميد الحِمّاني (١) وأبي بلال الأشعري قالا : ثنا أبو بكر النهشلي ، ثنا زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : "فناء أمتي بالطعن والطاعون" قالوا : يارسول الله ، هذا الطعن قد عرفناه ، فما الطاعون؟ قال : "وخز أعدائكم من الجن ، وفي كل شهادة" .

وهكذا رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب الطواعين عن يحيى بن عبد الحميد وهو المحفوظ ، وقد خالف الجميع حجاج بن أرطاة فقال: عن زياد بن علاقة ، عن كُرْدُوس (٢) الثعلبي ، عن أبي موسى .

قال ابن خزيمة في كتاب التوكل : روى حجاج بن أرطاة فذكره وقال في روايته : "وفي كل شهداء" . ثم قال : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، ثنا معتمر بن سليمان ، عن حجاج .

وهكذا أخرجه الطبراني من طريق محمد بن عبد الأعلى ، وأخرجه أيضا من طريق أبي غسان مالك بن عبد الواحد المسمعي ، والبزار من طريق يحيى بن حبيب بن عربي ، كلاهما عن معتمر بن سليمان التيمي ، فإن كان الحجاج حفظه احتمل أن يكون عند زياد بن علاقة عن جماعة ، كما تقدم في بعض طرقه : أنهم كانوا بضع عشرة نفساً من بني ثعلبة ، لكن وقع لي من طريق زياد بن علاقة عن كردوس ، عن أبي موسى حديث غير هذا وهو في الطاعون أيضا ، وسأذكره في الباب الرابع ، فلعل حجاج بن أرطاة دخل له حديث في حديث .

وفي الجملة هذه الطريق الضعيفة لا تقدح في صحة الطريق القوية ، فإن أمثل طرقه التي سُمِّيَ فيها المبهم رواية أبي بكر النهشلي ، وأسامة بن شريك صحابي مشهور ، وسائر الروايات شاهدة لصحتها إلا ما شذ به الفضل بن سهل وخلط فيه حجاج بن أرطاة والله أعلم .

---

(١) الحِمّاني: بكسر المهملة ، وتشديد الميم ، وبعد الألف نون. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) كُرْدُوس: بضم الكاف ، وسكون الراء ، وضم المهملة ، وسكون الواو ، وآخره مهملة. (منه رحمه الله تعالى).

((١) ثم وجدت الدارقطني ذكر علته في العلل ، وجزم بأن الاضطراب فيه من زياد بن علاقة ، فقال : واختلف فيه على زياد ، ورواه الثوري عنه واختلف فيه عليه ، فقال أبو أحمد الزبيدي : عنه ، عن زياد ، عن كردوس ، عن المغيرة . وكذا قيل عن وكيع ، وقال حجاج بن أرطاة : عن زياد ، عن كردوس ، عن أبي موسى . وقال سائر أصحاب الثوري : عنه ، عن زياد ، عن رجل ، عن أبي موسى .

قلت : وهذا نص عن وكيع ، عن الثوري ، عن زياد ، عن رجل ، عن جرير . وقال أبو بكر النهشلي : عن زياد ، عن أسامة بن شريك ، عن أبي موسى . وقال أبو حنيفة : عن زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن أبي موسى . وقال سعيد بن سليمان : عن زياد عن يزيد بن الحارث ، عن أبي موسى . وقال إسماعيل بن زكريا : عن مسعر والثوري معا ، عن زياد . وقال أبو شيبة : عن زياد ، عن اثنى عشر رجلا من بني ثعلبة ، عن أبي موسى . وقال أبو مريم : عن زياد ، حدثني البراء عن أبي موسى . وقال الحكم وشعبة وإسرائيل : عن زياد ، عن رجل من قومي ، عن أبي موسى .

قلت : وقد بينت غالب هذه الطرق وأحوال رواتها ، ولا يتأتى الحكم عليه بالاضطراب مع إمكان ترجيح بعض الطرق كما قدمته ، ورواية أبي مريم بذكر البراء لم يقع لي بعد وهو ضعيف . والله أعلم .) (٢)

والحديث مع ذلك عن أبي موسى طريق قوية ليس فيها اضطراب .

قال ابن خزيمة في كتاب التوكل من صحيحه : ثنا بشر بن آدم ، ثنا جَدِّي لأمي أزهر بن سعد - هو السمان - ثنا حاتم بن أبي صغيرة (٣) ، عن أبي بَلْج ، عن أبي بكر بن أبي موسى ، قال : ذكرنا الطاعون عند أبي موسى فقال : سألت عنه رسول الله ﷺ فقال : "هو وخز أعدائكم من الجن ، وهو لكم شهادة" .

وأخرجه أيضا عن إسحاق بن منصور ، عن أزهر بن سعد .

(١ . ٢) ما بين هامش ١ . ٢ ساقط من نسخة تركيا .

(٣) ابن أبي صغيرة: بفتح المهملة وكسر المعجمة. (منه رحمه الله تعالى).

وأخرجه أحمد (١) والطبراني من طريق أبي عوانة عن أبي بَلْج (٢) ولفظه : أن النبي ﷺ ذكر الطاعون فقال : "وخز أعدائكم من الجن ، وهو شهادة المسلم" . وفي لفظ للطبراني : "وهو شهادة لكل مسلم" . وصححه الحاكم ، فأخرجه في كتاب الإيمان من المستدرك (٣) من رواية أزهر بن سعد به عالياً ، ومن رواية أبي عوانة أيضا ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وتعقبه شيخنا في أماليه على المستدرك فقال : لم يحتج مسلم بأبي بَلْج ، وإنما روى له أصحاب السنن ، ولكن للحديث طرق يرتفع بها إلى درجة الصحة . فذكر رواية سفيان الثوري عن زياد بن علاقة عن رجل عن أبي موسى كما قدمتها . ثم قال : والرجل الذي لم يُسمَّ هو أسامة بن شريك . ثم ساقه من مسند أحمد ثم قال : هذا إسناد صحيح .

قلت : ورجال هذا الطريق رجال الشيخين إلا أبا بَلْج ، وهو بفتح الموحدة وسكون اللام بعدها جيم تابعيٌّ صغير كوفي ، نزل واسط ، واسمه : يحيى ، واختلف في اسم أبيه ، وقد وثقه يحيى بن معين والنسائي ومحمد بن سعد والدار قطني ، وقال أبو حاتم الرازي ويعقوب بن سفيان : لا بأس به . وقال البخاري : فيه نظر . وهذه عبارته فيمن يكون وسطاً .

ونقل ابن الجوزي عن ابن معين أنه ضعفه ، فإن ثبت ذلك فقد يكون سُئل عنه وعن مَنْ هو فوقه فضعفه بالنسبة إليه ، وهذه قاعدة جليلة فيمن اختلف النقل عن ابن معين فيه ، نبه عليها أبو الوليد الباجي في كتابه رجال البخاري ، ويحتمل أن يكون ابن معين ضعفه من قِبَل رأيه ؛ فإنه منسوب إلى التشيع ، ولأجل هذا بالغ أبو إسحاق الجوزجاني (٤) فيه كعادته في الحطّ على الشيعة ، وتبعه أبو الفتح الأزدي ، وذكره ابن حبان في الثقات وقال : يخطئ . ويكفي في تقويته توثيق النسائي وأبي حاتم مع تشددهما ، ولم يبين ابن حبان ما أخطأ فيه ليرجع إليه في ذلك .

---

(١) المسند (٤/٤١٣).

(٢) أبو بَلْج: بفتح الموحدة ، وسكون اللام ، بعدها جيم. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) المستدرك (١/٥٠) بلفظ (وخز إخوانكم أو قال أعدائكم) ، فمن العجيب أن يقول الحافظ في ص ٧٢ : وأما الرواية بلفظ "إخوانكم" فما عرفت موضعها من كتب الحديث !!! إلا إن كانت نسخة الحافظ من المستدرك جاء فيها بلفظ (أعدائكم) بدون شك.

(٤) الجوزجاني: بضم الجيم ، وسكون الواو ، وفتح الزاي وتخفيف الجيم. (منه رحمه الله تعالى).

وقد ذكر ابن عدى له ترجمة وأورد فيها قول البخارى والجوزجانى ، ثم ساق له حديثه عن محمد بن حاطب : « فصل ما بين الحلال والحرام ضرب الدف » . وثلاثة أحاديث من روايته عن عمرو بن ميمون ؛ اثنان منهما عن أبي هريرة ، وآخر عن ابن عباس ، ثم قال : "وله غير ماذكرت ، وقد روى عنه أجلة الناس مثل شعبة وهشيم وأبي عوانة ، ولابأس بحديثه" . فهذا ابن عدى مع شدة تفصِّيه (١) وتتبعه لما أخطأ الثقات فيه لم يذكر فى أفراد أبي بلج حديث أبي موسى فهو مما (أتقنه) (٢) عنده ، ولا سيما وقد وجدنا له متابعا فى الرواية المبدأ بذكرها عن أبي موسى ، فالمتن بهذه الطرق صحيح بلا ريب والله أعلم .

ثم وجدت للحديث طريقــا ثالثــة عن أبي موسى أخرجها الطبرانى عن على بن عبد العزيز البغوى قال : ثنا معلى بن أسد ، ثنا عبد العزيز بن المختار ، عن عبد الله بن المختار ، قال : حدثنى كريب بن الحارث بن أبي موسى الأشعرى ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : "إن فناء أمتى بالطعن والطاعون" . قالوا : يارسول الله ، هذا الطعن قد فهمناه ، فما الطاعون؟ قال : "وخز أعدائكم من الجن وفى كل شهادة" . ورجاله رجال الصحيح إلا كريبا وأباه ، وعبد الله بن المختار وعبد العزيز بن المختار ثقتان وليسا أخوين .

وقد رواه حماد بن زيد عن عبد الله بن المختار فقال : حدثنى رجل من ولد أبي موسى الأشعرى عن أبي موسى . أخرجه الطبرانى أيضا من طريقه ، وعن حماد بن زيد أيضا عن عبد الملك بن عمير عن رجل من ولد أبي موسى عن أبي موسى كذلك .

ولهذا الحديث عن أبي موسى شاهد من حديث عائشة ومن حديث ابن عمر أيضا .

أما حديث عائشة فأخرجه أبو يعلى (٣) ، قال : حدثنا عبد الأعلى – هو حماد – ثنا معتمر بن سليمان ، سمعت الليث – هو ابن أبي سليم – يحدث عن صاحب له ، عن عطاء قال : قالت عائشة : ذكر الطاعون فذكرت أن النبى ﷺ قال : "وخز يصيب أمتى من أعدائهم من الجن ، من أقام عليه كان مرابطا ..." الحديث .

---

(١) تفصِّيه: بفاء وصاد مهملة ثقيلة ، أى: كثير التفتيش. (منه رحمه الله تعالى).
(٢) وفي نسخة الحرم (أثبته).
(٣) مسند أبى يعلى (٨/١٢٥).

وهذا سند ضعيف ؛ لضعف ليث وإبهام شيخه ، وله طريق أخرى ضعيفة أيضا عن عائشة يأتي ذكرها ، وغفل الحافظ المنذري في الترغيب فقال : إن سند أبي يعلى هذا حسن . وليس كما قال ، فلا يغتر به .

أما حديث ابن عمر فأخرجه الطبراني في معجمه الأوسط والصغير من طريق عبدالله بن عصْمَة ، عن بشر بن حكيم ، عن إبراهيم بن أبي حرة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، فذكر مثل حديث أبي موسى الماضي في أول طرقه سواء ، قال الطبراني : لم يروه عن إبراهيم إلا بشر ، ولا عنه إلا عبد الله بن عصمة .

قلت : وعبد الله بن عصمة مختلف فيه ، قال ابن عدي : له مناكير . وذكره ابن حبان في الثقات ، وأصل هذا الباب حديث أبي موسى والله أعلم .

ذكر معنى قوله صلى الله عليه وسلم :
"فناء أمتي بالطعن والطاعون"

الذي يظهر والله أعلم أن معناه الطلب ؛ فإن في بعض طرقه عن أبي موسى التصريح بذلك ، وهو في رواية أبي بكر النهشلي عند أحمد (١) ولفظه : « اللهم اجعل فناء أمتي في الطاعون » .

وقرئ على خديجة بنت إبراهيم البعلبكية بدمشق وأنا أسمع ، عن القاسم بن المظفر إجازة إن لم يكن سماعا . وعن أبي نصر بن الشيرازي كتابة قالا : أنبا أبو الوفاء بن منده في كتابه ، أنبا أبو الخير الباغبان (٢) ، أنبا أبو عمر بن أبي عبد الله بن منده ، أنبا أبي ، أنبا محمد بن محمد بن عبد الله البغدادي ، ثنا جعفر بن محمد بن شاكر ، ثنا عفان ، ثنا عبد الواحد بن زياد ، ثنا عاصم الأحول ، عن كريب بن الحارث ، عن أبي بردة بن قيس أخي أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل فناء أمتي قتلا في سبيلك بالطعن والطاعون » .

قال ابن منده : رواه جماعة عن عبد الواحد منهم عارم . انتهى .

---

(١) المسند (٣/٤٣٧).

(٢) الباغبان: بموحدة ، ثم غين معجمة مفتوحة ، بعدها موحدة خفيفة. (منه رحمه الله تعالى).

وأخرجه أحمد في مسنده [1] وإبراهيم الحربي في غريب الحديث له ، كلاهما عن عفان ، فوافقناهما بعلو ، وقال في روايته : عن كريب بن الحارث بن أبي موسى الأشعري ، وأخرجه أبو نعيم في الصحابة من رواية إسماعيل سمويه عن عفان كذلك ، ومن رواية هدبة بن خالد ويحيى الحماني كلاهما عن عبد الواحد ، وأخرجه ابن أبي عاصم في كتاب الجهاد [2] من طريق عبد الواحد . وصححه الحاكم فأخرجه في كتاب الجهاد من صحيحه [3] من رواية مسدد عن عبد الواحد بن زياد بهذا الإسناد وقال : صحيح الإسناد . وقال لنا شيخنا الحافظ أبو الفضل بن الحسين فيما أملاه على المستدرك : هذا حديث رجاله ثقات ، وكريب بن الحارث ذكره ابن حبان في الثقات وروى له هذا الحديث إلا أنه جعله عن أبي بردة عن أبي موسى ، وظن أنه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري وإنما هو أخوه ، ولذلك ذكره في الطبقة الثالثة من الثقات فوَهِمَ ، والصواب ما وقع في المسند ، وكذلك ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ، وأبو أحمد الحاكم في الكنى ، وابن منده في معرفة الصحابة .

قلت : قول شيخنا أن ابن حبان روى له هذا الحديث عَنَى به في كتاب الثقات لا في صحيحه ، فإنني لم أره في صحيحه بعد تتبعه .

وأنشد شيخنا في أماليه في معنى الحديث المذكور :

أكـرم بخـير أمـة قد أخرجـت ... للناس في الدنيا وفي عقباها
بالطعن والطاعون هم يستشـهدون ... ذاك وخز الجن من أعداهـا

وعكس ذلك بعض من أدركناه ، فقال : المحفوظ « فناء أمتي بالطعن والطاعون » على الخبر لا على الدعاء .

قال ابن الأثير في النهاية : أراد أن الغالب على فناء الأمة الفتن التي تسفك فيها الدماء أو بالوباء . انتهى .

ودعواه أنه بلفظ الدعاء غير محفوظ مردودة بما قدمته من الطريق الصحيح ، ويشهد له دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه بذلك كما سأذكره .

---

(١) المسند (٢٣٨/٤).
(٢) كتاب الجهاد (٥٠١/٢).
(٣) المستدرك (٩٣/٢). وصححه ووافقه الذهبي.

[الفصل الرابع]

ذكر الجواب عن إشكال أورده بعضهم على هذا الحديث

يريد القدح فيه مستندا إلى أن أكثر الأمة إنما يموتون بغير الطعن والطاعون ، فلو ثبت الحديث لماتوا كلهم بأحد الأمرين ، وقد قال صاحب النهاية فى حديث "فناء أمتى بالطعن والطاعون" : أراد ﷺ أن الغالب على فناء الأمة الفتن التى تسفك فيها الدماء أو الوباء . ولم يعرج على الحديث الوارد بلفظ الدعاء ، وقد قدمت أن الأول محمول عليه وإن كان لفظه لفظ الخبر .

ويحتمل أن يكون ﷺ دعا لأمته بطريق التعميم فاستجاب الله دعاءه فى بعضهم فيكون من العام المخصوص .

ويحتمل أن يكون أراد ﷺ بلفظ "أمتى" طائفة مخصوصة كأصحابه مثلاً ، أو صفة مخصوصة كالخيار مثلاً ، فيكون من العام الذى أريد به الخصوص ، والأول قد يوجه بأن الصحابة لم يموتوا كلهم بالأمرين ولا بأحدهما فقط ، وكذلك الخيار فإن الكثير منهم يموتون بغيرهما .

وقريب (من الأول) (١) دعاؤه ﷺ للمؤمنين بالمغفرة مع أنه ثبت بالأدلة القطعية عند أهل السنة أن طائفة منهم يُعذبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة .

وفى عكس ذلك دعاؤه ﷺ أن لا يهلك أمته بسنة عامة ، وأن لا يهلكهم بالغرق ، وأن لا يلبسهم شيعا ... الحديث ، فأعطى الثنتين الأولتين ومُنع ماعداهما ، أخرجه مسلم (٢) بمعناه من حديث سعد بن أبي وقاص ، وأخرج أيضا من حديث ثوبان مرفوعا (٣) فى أثناء حديث : « وإنى سألت ربى أن لا يهلك أمتى بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم ، وأن لا يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض . فقال : يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط

---

(١) فى الهند (منه).

(٢) مسلم (٢٢١٦/٤) ٥٢ - كتاب الفتن وأشراط الساعة ، ٥ - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.

(٣) مسلم (٢٢١٥/٤) نفس الموضع السابق.

عليهم عدوا من غيرهم فيستبيح (١) بيضتهم (٢) حتى يكون بعضهم يهلك بعضا » .

وأخرج ابن مردويه فى تفسير سورة الأنعام في هذه الآية من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال : "دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا ، فرفع عنهم اثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين ، دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الأخرتين" .

وقد أخرج البخارى (٣) هذا الحديث عن جابر قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أعوذ بوجهك » . ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » . ﴿ أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ [الأنعام : ٦٥] قال رسول الله ﷺ : « هاتان أهون - أو أيسر - » .

وحديث ابن عباس الذى ذكرته يفسر حديث جابر هذا ، ويشهد له ما أخرجه عبد الرزاق من حديث أبي بن كعب فى قوله تعالى :﴿ عذابا من فوقكم ﴾ قال : الرجم . ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : الغرق . انتهى .

وقد وقع الرجم والخسف والغرق وتسليط العدو الكافر على بعض الأمة وعلى بعض البلاد ، فدل على أن المراد بنفى ذلك عن الأمة نفيه عن جميعهم ، وأن وقوع ذلك لبعضهم لا يقدح فى صحة الحديث لصلاحية اللفظ لإرادة الكل والبعض .

وكذا يقال فى حديث الباب : اللفظ صالح لإرادة الكل والبعض ، فدل الواقع على أن المراد البعض ، كما دل الواقع فى ذلك على أن المراد الكل ، وليس المراد بالكل جميع الأمة من أولها إلى آخرها ، وإنما المراد به جميع من يكون موجودا فى عصر من الأعصار فى جميع البلاد من الأمة المحمدية بحيث تنقرض أمة الإجابة ، ولا يبقى مثلا

---

(١) فيستبيح: من الإباحة. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) بَيْضتهم : بفتح الموحدة ، أى مجتمعهم وموضع سلطانهم ، وبيضة الدار وسطها ومعظمها ، أراد عدوا يستأصلهم. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) البخارى (٨/٢٩١) ٦٥ - كتاب التفسير " ٦ - سورة الأنعام" ، ٢ - باب ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ﴾ - الآية.

من الناس إلا أمة الدعوة ، وهذا لا يقع إلا بعد وقوع الآيات وموت عيسى ابن مريم وقبض أرواح من يوجد إذ ذاك من أهل التوحيد ، فلا يبقى على وجه الأرض من يقول لاإله إلا الله فأولئك تقوم عليهم الساعة كما ثبت فى الحديث الصحيح (١) ، وأما ما قبل ذلك فللعلماء فيه اختلاف فى مسألة : هل تخلو الأرض من قائم لله بالحجة؟ ليس هذا موضع إيراده .

وزعم بعض من تلغز أن المراد بالحديث فناء الأمة في آخر الزمان وأن الطعن يُفسّر الهرج المذكور فى الحديث الآخر ، فقد جاء فيه أنه القتل ، وأن المراد بالطاعون الريح التى تقبض أرواح المؤمنين . قال : فقد جاء فى بعض الطرق أنها تأخذهم فى آباطهم (٢) .

ولا يخفى تكلُّف هذا الحمل وتعسفه ، ولولا خشية الاغترار به ما عرجت عليه ، ومن تأمل سياق الأحاديث التى ستُذكر (٣) فى الباب الثالث عرف فساد ما قال ، ويكفى فى رده إطباق أهل العلم على أن الموت بالطاعون فضيلة ، ومقتضى كلامه أنه لا فضيلة فيه ، بل هو محض إخبار بما سيقع فى آخر الزمان .

وممن نحا إلى أن المراد بالأمة فى حديث الباب الصحابة : أبو العباس القرطبى فى كتابه المفهم فى شرح صحيح مسلم ، فقال بعد أن نقل قول أبي قلابة أن المراد فى حديث معاذ بأن الطاعون دعوة نبيكم : أنه عليه الصلاة والسلام دعا أن يجعل فناء أمته بالطعن والطاعون : كذا جاءت الرواية عن أبي قلابة بالواو ، وقال بعض علمائنا : الصحيح بالطعن أو الطاعون بأو التى هى لأحد الشيئين ، أى لا يجتمع ذلك عليهم .

---

(١) لعله يشير إلى ما رواه مسلم (١٣١/١) ١ – كتاب الإيمان ، ٦٦ – باب ذهاب الإيمان آخر الزمان.
عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله ، الله " .

(٢) يشير إلى ما رواه مسلم (٢٢٥٥/٤) ٥٢ – كتاب الفتن وأشراط الساعة ٢٠ – باب ذكر الدجال وصفة ما معه ، فى نهاية حديث طويل عن الدجال :
عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "... فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحُمُر ، فعليهم تقوم الساعة".

(٣) فى نسخة الدار (سنذكرها).

قلت : العالم الذى أبهمه هو عياض ، وهذه عبارته فى شرح مسلم فقال : الصحيح من الرواية أنه أخبره جبريل أن فناء أمته بطعن أو طاعون . فقال : اللهم فناء بالطاعون . قال : وهذا الذى يوافق حديثه الآخر : أن لا يجعل بأسهم بينهم وأن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم . انتهى .

قال القرطبى : ويظهر لى أن الروايتين صحيحتا المعنى ، وبيانه أن مراد النبى ﷺ بأمته المذكورة فى الحديث إنما هم أصحابه ؛ لأنه دعا لأمته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأجيب إلى ذلك ، فلا يذهب جميعهم بموت عام ولا عدو ، وعلى مقتضى الدعاء فى حديث أبي قلابة يعنى جميعهم بالقتل والموت العام ، فتعين أن يُصْرَف إلى الصحابة ؛ لأنهم الذين اختار الله لمعظمهم الشهادة بالقتل فى سبيل الله وبالطاعون الذى وقع فى زمانهم فهلك به بقيتهم ، فعلى هذا فقد جمع الله لهم كلا الأمرين فتبقى الواو على أصلها من الجمع ، ويحتمل أن تكون الرواية بأو وهى تحتمل التنويع ولا تتعين للتخيير . انتهى كلامه .

وقد يُعترض عليه بأنه قد مات جمع كثير من الصحابة بغير الطعن والطاعون ، لكنه غير وارد ؛ لأنه إذا ساغ تخصيص عموم الأمة بالصحابة ساغ تخصيص الصحابة بطائفة منهم .

ومن التأويل المستبعد حمل أمتى على أمة الدعوة ، ذكره الشيخ بدر الدين الزركشى فى جزء جمعه فى الطاعون فقال : يحتمل والله أعلم أن المراد بالأمة أمة الدعوة لا أمة الإجابة ، يشهد له ماورد أن سبب الطاعون ظهور الفواحش .

قلت : ولا يخفى بُعده أيضا ، بل يرد عليه ما ورد على الأول ؛ فإن معظم أمة الدعوة لم يموتوا بالقتل والطاعون ، بل يفسده أن ظهور الفواحش لا يختص بأمة الدعوة ، بل يشركها فيه بعض أمة الإجابة ، ويفسده أيضا قوله فى بعض طرق الحديث كما تقدم "قتلا فى سبيلك" ، فدل على أن المراد أمة الإجابة ، نعم لو قيل المراد بأمتى ما هو أعم من أمة الدعوة والإجابة لكان متجها ، وسيأتى ما يقويه إن شاء الله تعالى .

وروى أبو بكر الرازى فى كتابه "أحكام القرآن" عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه :

أنه لما جهز الجيوش إلى الشام قال : اللهم أفنهم (١) بالطعن والطاعون .

وروى ابن أبي الدنيا (بسند صحيح) (٢) عن كردوس الثعلبي قال : لما وقع الطاعون – يعني بالكوفة – قال المغيرة بن شعبة : إن هذا العذاب قد وقع فاخرجوا عنه . قال : فذكرته لأبي موسى فقال : لكن العبد الصالح أبو بكر الصديق قال : اللهم طعناً وطاعونا في مرضاتك .

وهذا يؤيد ما تقدم أن المراد بالمدعو لهم الصحابة ، وقول أبي بكر في حديث أبي موسى هذا : اللهم طعناً وطاعونا في مرضاتك . دعا به للجيوش الذين جهزهم جمعا بين الخبرين ، وكأنه لما رآهم على حالة الاستقامة خشي عليهم الفتنة فأحب أن يكون موتهم على الحالة التي خرجوا عليها قبل أن يفتنوا بالدنيا . ذكره أبو بكر الرازي في كتاب أحكام القرآن ، وكأن أبا بكر الصديق سمع الحديث المرفوع فتأسّى به .

وقد استبعد الشيخ تقي الدين ابن تيمية – فيما نقله المنبجي في الجزء الذي جمعه في الطاعون – حمل قوله "اجعل فناء أمتي" على الصحابة فقط ، وقال : متى سلم ذلك تطرق إلى كل حديث أضيف إلى الأمة . انتهى .

والحق أن أصل الدعوة للصحابة ، ولا مانع من إلحاق غيرهم بهم في الفضل المذكور . والله أعلم .

قال ابن تيمية : ولا يعارض حمل الحديث على عموم الأمة حديث أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله أجاركم من ثلاث : أن يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعا ، وأن يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وأن تجتمعوا على ضلالة » أخرجه أبو داود (٣) .

قلت : وسنده حسن ؛ فإنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الشاميين وهي مقبولة ، وله شاهد من حديث أبي بصرة الغفاري أخرجه أحمد ورجاله ثقات إلا أن في سنده راويا لم يسم .

---

(١) في نسخة الحرم (أمتهم).
(٢) هكذا في نسخة الرباط ، وفي الحرم (بسند له) ، وأما في بقية النسخ فغير موجودة.
(٣) أبو داود (٤/٩٨) كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن ودلائلها.

ولم يذكر وجه عدم المعارضة ومراده به ما تقدم من حمل قوله : "أمتي" على الخصوص وإن كان لفظه عاما ، أو يقال : دعاؤه ﷺ بأن يكون فناؤهم بالطعن ليس دعاء عليهم بالهلاك وإن كان من لازمه الهلاك ، وإنما المراد منه حصول الشهادة لهم بكل من الأمرين ، ولهذا إذا وقع الموت بأحد الأمرين لا يقع عاما لجميع المؤمنين في كل قطر ؛ إذ لو وقع ذلك لخلت الأرض من المؤمنين وإنما يقع بالتدريج كثيرا كان أو قليلا ، سواء طعين المعركة أو طعين الوباء والله أعلم .

ومما يؤيد حمل قوله : « اللهم اجعل فناء أمتي » على الصحابة أيضا ما أخرجه أحمد (١) من طريق عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن عوف بن مالك الأشجعي قال : أتيت النبي ﷺ فسلمت عليه ، فقال : "ادْخُلْ" . قلت : كلي أو بعضي؟ قال : "بل كلك" . فقال : "اعدد ياعوف ستا بين يدي الساعة : أولهن موتي" فاستبكيت حتى جعل يسكتني ، قال : قلت : إحدى "والثانية : فتح بيت المقدس" قلت اثنتين "والثالثة : موتان يكون في أمتي يأخذهم مثل قُعَاص الغنم (٢) ، والرابعة : فتنة تكون في أمتي فعظمها ، والخامسة : يفيض المال فيكم حتى إن الرجل يعطى المائة دينار فيسخطها ، والسادسة : هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيسيرون إليكم على ثمانين غاية" قلت : وما الغاية؟ قال : "الراية تحت كل راية اثنى عشر ألفا ، فسطاط المسلمين يومئذٍ في أرض يقال لها الغوطة ، في مدينة يقال لها دمشق" . ورجاله رجال الصحيح .

وأصله في صحيح البخاري (٣) من وجه آخر عن عوف بن مالك نحوه ولفظه : "موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، وموتان يأخذ فيكم كقُعَاص الغنم ..." الحديث ، وقد تكلمت عليه في شرح البخاري وذكرت فيه : أن الحاكم أخرج من وجه آخر عن عوف بن مالك أنه قال في طاعون عمواس : إن رسول الله ﷺ قال : « اعدد ستا بين يدي الساعة ... » قال : فقد وقع منهن ثلاث : يعني موته ، وفتح بيت المقدس ، والطاعون . قال : وبقي ثلاث . فقال له معاذ : إن لها أمداً . انتهى .

---

(١) المسند (٦/٢٥).

(٢) قُعَاص الغنم : القعاص بضم القاف ، وتخفيف المهملة ، وآخره مهملة ، داء يأخذ الغنم فتموت سريعا . (منه رحمه الله تعالى).

(٣) البخاري (٦/٢٧٧) ٥٨ – كتاب الجزية والموادعة ، ١٥ – باب ما يحذر من الغدر.

وقد وقعت إفاضة المال فى زمن عثمان ، والفتنة العظمى بقتله ، والسادسة لم تقع إلى الآن .

ويشهد لذلك حديث أبي مالك سعد بن طارق الأشجعى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « بحسب أصحابى القتل » . أخرجه أحمد (١) عن يزيد بن هارون عنه ، وسنده على شرط مسلم ، فقد أخرج فى كتاب الإيمان من صحيحه حديثا غير هذا بهذا الإسناد . وقوله : "حَسْبُ" بسكون السين أى : كافى .

وكذا رويناه فى الغيلانيات بعلو من طريق يزيد بن هارون بلفظ : « كفى بأصحابى القتل » . وكأنه ﷺ دعا لهم بذلك ليحصل لهم رفع الدرجات وتكفير الخطيئات .

ويستفاد منه مع ذلك ثبوت فضل من مات بالطاعون ، للعلم بأنه ﷺ لا يختار لأصحابه إلا ما يُرغب فيه ويُحصِّل خير الآخرة والله أعلم .

* * * * *

* * *

*

(١) المسند (٣/٤٧٢).

[الفصل الخامس]

ذكر بيان لفظة وقعت في هذا الحديث : حديث أبي موسى على ما قيل يكثر السؤال عن معناها

جميع ما وقفت عليه من الروايات في حديث أبي موسى وفي حديث عائشة وفي حديث ابن عمر بلفظ : « وخز أعدائكم » أو بلفظ : « طعن أعدائكم » ، واشتهر على الألسنة أنه ورد أيضا بلفظ : « وخز إخوانكم » .

ورأيت في كراسة جمعها الشيخ بدر الدين الزركشي رحمه الله في مسألة الطاعون ما نصه : روى الإمام أحمد والطبراني في معجمه الكبير من حديث عبد الله بن الحارث عن أبي موسى الأشعري : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « فناء أمتي بالطعن والطاعون » قالوا : أما الطعن فقد عرفناه ، فما الطاعون؟ قال : « طعن أعدائكم من الجن وفي كل شهادة » . هذا لفظ الطبراني ، وفي لفظ أحمد : « إخوانكم » . انتهى .

وما نسبه إلى أحمد غلط في السند وفي المتن ، أما السند فما أخرجه أحمد من رواية عبد الله بن الحارث أصلا ، وإنما أخرجه من ثلاثة طرق فقط :

أحدها : من رواية سفيان – وهو الثوري – عن زياد بن علاقة عن رجل عن أبي موسى . وهي في أوائل الجزء الأول من مسند أبي موسى من مسند أحمد ، وهو الجزء التاسع من مسند الكوفيين من أصل مسند أحمد (١) .

ثانيهما : من رواية شعبة عن زياد بن علاقة ، حدثني رجل من قومي – قال شعبة : كنت أحفظ اسمه – قال : كنا على باب عثمان ننتظر الإذن عليه فسمعت أبا موسى . وهي في الجزء الحادي عشر من مسند الكوفيين ، وهو الثالث من مسند أبي موسى (٢) .

ثالثها: من رواية أبي بكر النهشلي ، عن زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك ، قال: خرجنا في بضع عشرة من بني ثعلبة ، فإذا نحن بأبي موسى . وهي عنده عقب رواية شعبة (٣) ، كأنه لما رأى قول شعبة : كنت أحفظ اسمه . أورده بعده ليبين الاسم المذكور .

---

(١) تقدم تخريجه في ص ٥٣ .

(٢) تقدم تخريجه في ص ٥٣ .

(٣) تقدم تخريجه في ص ٥٥ .

وأما المتن فليس في شئ من الطرق الثلاثة المذكورة بلفظ « إخوانكم » أصلا ، وإنما هو بلفظ « أعدائكم » ، ففى رواية سفيان « وخز أعدائكم من الجن » ، وفي رواية شعبة « طعن أعدائكم من الجن » ، ولم يسق لفظ رواية النهشلى ، وقد ساقها البزار [1] بلفظ « أعدائكم » .

ثم استظهرت بنسخة أخرى من مسند أبي موسى من مسند أحمد فوافقت الرواية التى نقلت منها ، ثم راجعت ترتيب مسند أحمد الذى جمعه الحافظ أبو بكر بن المحب وحشّاه الحافظ عماد الدين بن كثير ، فما وجدته إلا من الطرق الثلاثة من غير مزيد ، ليس هو من رواية عبد الله بن الحارث عن أبي موسى أصلا ، وكذا لفظ المتن كما وصفته بلفظ « أعدائكم لا بلفظ « إخوانكم » .

ثم راجعت المعجم الكبير للطبرانى فوجدته أخرجه من طرق :

الأولى : رواية أبي بكر النهشلى ، عن زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك ، عن أبي موسى ولفظه : « وخز أعدائكم من الجن » .

الثانية : رواية أبي بلّج ، عن أبي بكر بن أبي موسى ، (عن أبيه . وقد تقدمت كذلك .

الثالثة : رواية عبد الرزاق ، عن الثورى قال فيها : عن زياد بن علاقة ، عن رجل منهم ، عن أبي موسى) [2] . وساقها مثل رواية أحمد سواء .

الرابعة : رواية إسماعيل بن زكريا ، عن الثورى ومسعر جميعا ، عن زياد بن علاقة ، عن يزيد بن الحارث ، عن أبي موسى . وقد تقدمت [3] بلفظ « وخز أعدائكم » ، ومثله رواية أبي مريم عن زياد بن علاقة وقد تقدم سياقها [4] .

الخامسة : رواية الحكم بن عتيبة ، عن زياد بن علاقة الثعلبى ، عن رجل من قومه عن أبي موسى . ولفظه : « طعن أعدائكم من الجن » .

السادسة : رواية إسرائيل ، عن زياد ، عن رجل من الحى ، عن أبي موسى بلفظ « طعن عدوكم » وقد تقدم سياقها أيضا [5] .

---

(١) تقدم تخريجه فى ص ٥٥ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من نسخة الرباط.

(٣) تقدمت فى ص ٥٤ .

(٤) فى ص ٥٥ .

(٥) فى ص ٥٤ .

هذا جميع ما في مسند أبي موسى من المعجم الكبير للطبراني ، لم يقع فيه من رواية عبد الله بن الحارث عن أبي موسى ولا بلفظ « إخوانكم » .

نعم ، ذكر الطبراني في المعجم الأوسط بعد أن ساقه من رواية الحكم عن زياد بن علاقة عن رجل عن أبي موسى ما نصه : رواه الثوري ومسعر وإسرائيل ، عن زياد بن علاقة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن أبي موسى . كذا رأيتُ فيه ، والصواب من رواية هؤلاء عن زياد بن علاقة عن يزيد بن الحارث ، لا عن عبد الله بن الحارث ، وما أظن الوهم إلا من النسخة التي من الأوسط ؛ فإنها غير مقابلة . والله أعلم .

ثم وجدت الحديث في مسند أبي حنيفة للحارثي ، وفي كتاب معاني الأخبار للكلاباذي ، أخرجاه جميعا بإسناد واحد إلى أبي سليمان الجوزجاني ، ثنا محمد بن الحسن ، ثنا أبو حنيفة ، ثنا زياد بن علاقة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « فناء أمتي بالطعن والطاعون » . قيل : يارسول الله ، الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال : « وخز أعدائكم من الجن ، وفي كل شهيد » .

فهذا من رواية عبد الله بن الحارث مع شذوذه ولكن بلفظ « أعدائكم » أيضا ، والله أعلم .

(ثم وجدته في مسند أبي حنيفة جمع أبي بكر بن المقرى (أخرجه) [1] : حدثنا مفضل بن محمد الجندي ، ثنا يوسف بن يعقوب ، ثنا المقرى – هو عبد الله بن يزيد – ثنا أبو حنيفة ، فذكر مثله سواء إلا أنه قال في آخره : « وفي كل شهادة » .

قال ابن المقرى : وحدثنا أبو عروبة الحراني وأخوه أبو معشر قالا : حدثنا عمرو بن أبي عمرو ، ثنا محمد بن الحسن ، أنبا أبو حنيفة ، فذكر مثله سواء) [2] .

وذكر صاحب كتاب آكام المرجان في أحكام الجان – وهو الفاضل أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي الحنفي وهو من تلامذة المزي والذهبي في الحديث – في الباب الخامس والخمسين من كتابه المذكور في بيان أن الطاعون من وخز الجن ما نصه : روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي موسى الأشعري قال : قال

(١) غير موجودة بالحرم والدار.
(٢) ما بين القوسين ساقط من نسخة الهند.

رسول الله ﷺ : « فناء أمتي بالطعن والطاعون » . قالوا : يارسول الله ، هذا الطعن قد عرفناه ، فما الطاعون؟ قال : « وخز إخوانكم من الجن ، وفي كل شهادة » . ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب الطواعين وقال فيه : « وخز أعدائكم من الجن » . انتهى ما نقلته من كتابه .

وما أدرى من أين وجده في مسند أحمد كذلك ، والموجود فيه ما ذكرته ، وأظن الزركشي اعتمده ، لكن تعيينه الرواى عن أبي موسى وهو عبد الله بن الحارث قدْرٌ زائد على كلام الشبلي .

ثم رأيت في الجزء الذى جمعه المنبجي بعد أن حكى كلام الشبلي : كذا قال . (قال) (١) : وقد كشفت عنها في المسند من نسخ كثيرة موثوق بها فما رأيتها في المسند في حديث أبي موسى إلا بلفظ « أعدائكم » . قال : ولم أره في كتاب الطواعين لابن أبي الدنيا ، والظاهر أن الشبلي وَهِمَ في ذلك .

قال : وقد عزاه بعضهم لأبي القاسم عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن منده ، والله أعلم .

قلت : قد ذكـر المتن بلفظ « إخوانكم » قديمـا أبو عبيـد اللـه الهـروى في كتـاب « الغريبين » له فقال في مادة وخز ما نصه : في الحديث « وخز إخوانكم » وهو طعن غير نافذ . قال : وقد ورد في بعض طرقه بلفظ « طعن أعدائكم » وهو محمول على ذلك . انتهى كلامه .

وتبعه أبو السعادات المبارك بن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٢) فقال ما نصه : فيه « وخز إخوانكم من الجن » ، الوخز : طعن ليس نافذا .

قولهما : إن الوخز طعن غير نافذ صحيح ، وأما الرواية بلفظ « إخوانكم » فما عرفت موضعها من كتب الحديث (٣) ، وقد راجعت كتاب أبي عبيد في غريب الحديث ، ثم كتاب أبي محمد بن قتيبة في ذلك وهو كالذيل على كتاب أبي عبيد ، ثم كتاب أبي سليمان الخطابى في ذلك وهو كالذيل على كتاب ابن قتيبة ، (ثم كتاب قاسم بن ثابت

---

(١) غير موجودة بالرباط والدار.

(٢) النهاية (٥/١٦٣).

(٣) سبق فى ص ٥٨ أن الحاكم قد رواه على الشك بهذا اللفظ فارجع إليه.

السرقسطى في ذلك وهو كالذيل على كتاب ابن قتيبة) [1] أيضا ، فلم أره فيها أصلا ، ولا في الفائق للزمخشرى ، وكذلك كتاب غريب الحديث لإبراهيم الحربى - وهو أوسع هذه الكتب كلها ومع ذلك ما أكمله - فلم أجده فيه .

نعم ، قد ورد وصف الجن بكونهم إخوان الإنس في حديث صحيح غير هذا ، وهو ما أخرجه مسلم [2] من رواية عامر - وهو الشعبى - قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ فذكر الحديث وفي آخره : وسألوه الزاد ، فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بعرة علف ، فلا تستنجوا بهما ؛ فإنهما طعام إخوانكم » . وأخرجه أبو داود [3] كذلك لكن وقع في روايته « كل عظم لم يذكر اسم الله عليه » .

وحكى السهيلى عن بعضهم أنه جمع بين الروايتين بأن الأولى في حق مؤمنى الجن ، والثانيـة في حق كافريهم ، وهذا جيد لو تعدد مخرج الحديث ، أما مع اتحاد مخرجه فلا ، والله أعلم .

طريق أخرى في كون الطاعون من الوخز :

ذكر الزمخشرى في الفائق عن معاذ قال : لما قدم - يعنى من اليمن - وأصابهم الطاعون ، قال عمرو بن العاص : لا أراه إلا رجزاً وطوفاناً . وروى أنه قال : إنما هو وخز من الشيطان . فقال له معاذ : ليس برجز ولا طوفان ، ولكنها رحمة ربكم ودعوة نبيكم ... الحديث .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة تركيا.

(٢) مسلم (٣٣٢/١) ٤ - كتاب الصلاة ، ٣٣ - باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن.

(٣) يعنى - والله أعلم - أبا داود الطيالسى ، إذ إن الحديث بهذا اللفظ ليس في سنن أبي داود السجستانى ، بل إنه لم يروه بكماله ، فقد اقتصر على صدره فقط.
سنن أبي داود (٢٢/١) كتاب الطهارة ، باب الوضوء بالنبيذ.
عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: من كان منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ فقال: ما كان معه منا أحد.
والحديث بهذا اللفظ الذى ذكره الحافظ في مسند أبي داود الطيالسى "منحة المعبود"(٤٧/١).
فلعل كلمة الطيالسى سقطت من النساخ ، وهو بعيد لاتفاق جميع النسخ على ذلك ، أو تكون سقطت سهوا من الحافظ رحمه الله تعالى.

قال الزمخشري : الرجز والرجس العذاب . ثم نقل عن بعض اللغويين أنه الأمر الشديد ينزل بالناس ، وهو من قولهم : ارتجزت السماء بالرعد وارتجست ، ورعد مرتجز ومرتجس ، وهو حركة مع جلبة ؛ لأن العذاب النازل لابد فيه للمنزول بهم (١) من أن يضطربوا ويجلبوا . قال : والوَخْز : بفتح الواو وسكون المعجمة بعدها زاى ، ويقال : بدل الزاى ضاد معجمة أو طاء مهملة بمعنىً ، وأراد بقوله : دعوة نبيكم حديث « اللهم اجعل فناء أمتي بالطعن والطاعون » . انتهى .

وحديث معاذ المذكور سيأتي سياقه من مسند البزار في الباب الرابع (٢) ، ولكن الرواية التي فيها : وخز من الشيطان ، ماوقفت عليها بعد ، ثم وجدتها في عيون الأخبار لأبي محمد بن قتيبة ، وقال فيه : العرب تدعو الطاعون رماح الجن . قلت : وهذا يحتمل أن يكون نقلا عن العرب الإسلاميين الذين تلقوا ذلك عن النبى ﷺ ، وإلا فلو كان ذلك معروفا عند العرب قبل الإسلام ، لما احتاج الصحابة أن يسألوا النبى ﷺ عن الطاعون كما تقدم في حديث أبي موسى ، ويمكن أن يجاب (عنه) (٣) : أن الذين سألوه عن ذلك لم يكن من لغتهم . والله أعلم .

ذكر كيفية الجمع بين قوله « وخز أعدائكم » وقوله « وخز إخوانكم » على تقدير صحة ورودها

ومحصل ما رأيته من الأجوبة خمسة أوجه :

الوجه الأول : ذكره الشبلي عقب كلامه المتقدم فقال : ولاتنافي بيَن اللفظين ؛ لأن الأخوة في الدين لا تنافي العداوة ؛ لأن عداوة الجن للإنس بالطبع وإن كانوا مؤمنين فالعداوة موجودة . انتهى .

ويمكن أن يستشهد له بقوله تعالى : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ (٤) والخطاب لأصل الإنس آدم وحواء ، ولأصل الجن إبليس ، وقوله تعالى : ﴿ أفتتخذونه

(١) في كل الأصول (به) ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٢) الباب الرابع ص ١٦٣ .
(٣) زيادة من نسخة الحرم .
(٤) سورة البقرة : ٣٦ .

وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ﴾(١) ، وحاصل هذا الجواب : أن الجن يوصفون بكونهم أعداء الإنس سواء كانوا مؤمنين أو كافرين ، وكأنه استشكل لفظ « أعدائكم » فأجاب عنها ، وأقر لفظ « إخوانكم » فلم يستشكلها ولم يتعرض لتفسيرها ، وهو خلاف ما يفهمه غيره .

الوجه الثاني : ذكره الزركشي عقب كلامه المذكور فقال : إن صحت الروايتان احتمل والله أعلم في الجمع بينهما أن رواية « أعدائكم » طعن الكافرين منهم المسلمين من الإنس ورواية « إخوانكم » طعن المسلمين منهم الكافرين من الإنس . انتهى .

وأظنه منتزعا من جواب السهيلي الماضي في الجمع بين روايتي مسلم وأبي داود ، ثم وجدت الجواب بعينه في جزء المنبجي المذكور ، وكأن الزركشي ظفر به كعادته ، وهو جمع لا بأس به ، إلا أنه يلزم منه أن يكون المراد بكل طريق من الطريقين طائفة مخصوصة غير الأخرى ، وهذا لو كان مع اختلاف مخرج الطريقين لسهل الأمر وحمل على أنهما حديثان ، لكن الطريق متحد ، وفي ذلك قرينة ترشد إلى أن الاختلاف في لفظه من بعض رواته ، وإلا لوَرَدَ مرة باللفظين معا ليصح التوزيع .

الوجه الثالث : بلغني عن الحافظ عماد الدين بن كثير أنه سُئِل عن ذلك فأجاب بما حاصله : أن الروايــة بلفظ « أعدائكم » محمــولة على المباشـرة ، والروايــة بلفــظ « إخوانكم » محمولة على السبب ، وهو مبنى على أن المخاطب بذلك المؤمنون فقط ، وأن الطعن يقع من كافرى الجن فقط ، لكن تارة يكون بمحض العداوة للإنس فيباشر الجنى الكافر طعن الإنسى المؤمــن ، وتارة يقع بسبب وقوع أمر بين مؤمنى الجن وكافريهم مثلا ، فيعجز الكافر منهم عن مقاومة المؤمن منهم ، فيقتص من إنسى مؤمن ، فيكون الجنى المؤمن سببا لوقوع ذلك بالإنسى المؤمن ، واستشهد لصحة هذا الجمع بقوله تعالى :﴿ ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾(٢) ، وبالحديث الذى فيه التحذير عن سب الرجل أباه ، قالوا : وكيف يسب الرجل أباه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه » الحديث(٣) .

---

(١) سورة الكهف: ٥٠.
(٢) سورة الأنعام: ١٠٨.
(٣) البخارى (١٠/٤٠٣) ٧٨ – كتاب الأدب ، ٤ – باب لا يسب الرجل والديه.
مسلم (١/٩٢) ١ – كتاب الإيمان ، ٣٨ – باب بيان الكبائر وأكبرها.

قلت : وهو جواب لا بأس به أيضا ، إلا أنه يرد عليه نحو ماورد على الذى قبله .

الوجه الرابع : ظهر لي ولم أره منقولا ، وهو أن يحمل اختلاف اللفظ على أنه من تصرف الرواة لاتحاد مخرج الحديث كما تقدم ، بناء على أن كلا من اللفظين يفيد ما يفيده الآخر من المقصود ، فحيث جاء بلفظ « أعدائكم » فهو على عمومه ؛ إذ لا يقع الطعن إلا من عدو في عدوه ، ويكون الخطاب لجميع الإنس بأن الطعن يقع من كافرى الجن في مؤمنى الإنس ، أو من مؤمنى الجن في كافرى الإنس ، ويشهد له حديث أبي عسيب الماضي ذكره(١) : « أنه شهادة للمسلم ورجز على الكافر » .

وحيث جاء بلفظ « إخوانكم » فهو على عمومه أيضا ، لكن المعنى به أخوة التقابل ، كما يقال : الليل والنهار أخوان ، والشمس والقمر أخوان . أو أخوة التكليف فإن الجن والإنس هما الثقلان بنص القرآن لاشتراكهما في التكليف .

قال ابن عبد البر في التمهيد : الجن عند الجماعة مكلفون مخاطبون .

وقال ابن حزم في الملل : جاء النص بأن الجن أمة عاقلة مميزة مكلفة موعودة متوعدة متناسلة يموتون ، وأجمع المسلمون كلهم على ذلك ، نعم والنصارى والمجوس واليهود إلا السامرة فقط .

وقال الإمام فخر الدين في التفسير : أطبق الكل - يعني من أثبت وجود الجن - على أن الجن كلهم مكلفون . انتهى .

فإطلاق « إخوانكم » من هذه الحيثية يشمل جميع الجن ، فيصح وصف من يقع منه الطعن في الجنس بذلك كلفظة الأعداء ، وبهذا يجاب عن حديث الزاد ، فإنه جاء بلفظ « إخوانكم » في جميع طرقه دون لفظ « أعدائكم » ، والمراد به جميع الجن : مؤمنهم وكافرهم؛ فإنهم مشتركون في كون ذلك زادَهم ، والله أعلم . ثم رأيت حاصل هذا الجواب منقولا في جزء جمعه الشيخ أبو عبد الله المنبجي ثم الصالحي الحنبلي في الطاعون ولفظه : قال بعض المتأخرين ليس المراد أخوة الدين ، وإنما المراد أخوة التقابل ، والإنس والجن متقابلان لأنهما الثقلان . هذه عبارته والله أعلم .

وقد أجاب بعض قدماء المفسرين عن قوله تعالى : ﴿ يا أخت هارون ﴾ (٢) قال :

---

(١) في ص ٢٩ .

(٢) سورة مريم : ٢٨.

أرادوا أخوة التشابه لا أخوة النسب ، وكان في ذلك الوقت رجل يقال له هارون إما صالح وإما طالح ، على اختلاف الرواية في ذلك ، فشبهوها به . فيمكن أن يجئ مثل ذلك هنا ؛ لأن الجن والإنس متشابهان في التكليف كما تقدم .

الوجه الخامس : ذاكرني به بعض الفضلاء وهو أن تحتمل الإضافة في رواية « وخز أعدائكم » على أنها إضافة إلى الفاعل ، وفي رواية « إخوانكم » على أنها إضافة إلى المفعول ، والمراد بالأول ما يقع في الإنس من الجن ، وبالثاني ما يقع في المؤمنين من الجن ، ولا يخفى تكلف هذا الجواب وبعده .

ويمكن إثبات وجه سادس يستنبط من معنى حديث ذكرته في آخر الباب الثالث فليراجع منه .

تكملة تتعلق بقوله ﷺ : « وفى كل شهادة »

وقع لى تردد فى الفاسق ما يكون حكمه ؟ وبأى الفريقين يلتحق ؟ وأعنى بالفاسق: مرتكب الكبيرة إذا هجم عليه ذلك وهو مُصرٌ ، فإنه يحتمل أن يقال : لا يكرم بدرجة الشهادة لما هو (ملتبس) (1) به ، فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (2) .

ويحتمل أن يقال : بل يحصل له درجة الشهادة لعدم التقييد فى الأخبار الواردة فى أنه شهادة للمسلم بوصف زائد على الإسلام ، ومن الأحاديث العامة فى ذلك حديث أنس فى الصحيحين (3) : « الطاعون شهادة لكل مسلم » فإنه صريح فى العموم .

---

(1) فى نسخة الحرم (متلبس).
(2) سورة الجاثية: ٢١.
(3) البخارى (٦/٤٢) ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٣٠ - باب الشهادة سبع سوى القتل.
مسلم (٣/١٥٢٢) ٣٣ - كتاب الإمارة ، ٥١ - باب بيان الشهداء.

ولا يلزم من حصول درجة الشهادة لمن اجترح السيئات أن يساوى المؤمن الذى عمل الصالحات فى المنزلة ؛ فإن درجات الشهداء متفاوتة ، كنظيره من عصاة المؤمنين إذا قتله الكفار مجاهدا فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، مقبلا غير مدبر ، فإنه شهيد لا محالة ، ولو كانت له ذنوب أخرى لم يتب منها فسيأتى فى الباب الثالث حديث عتبة بن عبد (١) المصرح بأن من اقترف الذنوب والخطايا وجاهد بنفسه وماله حتى يقتل فى سبيل الله تنمحى خطاياه إن السيف محّاء (٢) للخطايا ، نعم ، ثبت فى الحديث الصحيح (٣) أن الشهيد يغفر له كل ذنب إلا الدَّيْن ، وفى معنى الدين سائر التبعات المتعلقة بالعباد .

وأما ما أخرجه ابن ماجه (٤) من حديث أبى أمامة الباهلى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « شهيد البحر مثل شهيد البر ... » الحديث وفيه : « يغفر لشهيد البر الذنوب كلها إلا الدين ، ولشهيد البحر الذنوب والدين » فهو حديث ضعيف لضعف راويه عُفَيْر بن معدان (٥) ، فإن كان ثابتا فهو خاص بالغريق الذى يخرج مجاهدا فى سبيل الله ؛ فإنه يجتمع له شيئان للشهادة : القتال فى سبيل الله والغرق .

ويمكن أن يقال : أفاد الاستثناء أن حقوق العباد لا تسقط بمجرد حصول الشهادة ، وأفاد الإثبات الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد يهب للشهيد من مزيد الثواب بسبب الشهادة ما يوفى معه من حسناته حق من له فى قِبَلِه مَظْلَمة ، ويتوفر له ثواب الشهادة خالصا .

والحاصل : أن وجود التبعات لا يمنع حصول الشهادة ؛ لأن الشارع قد رتب الثواب على صفة معينة ، فإذا حصلت للمؤمن عند موته حصل له ذلك الثواب فضلا من الله وإحسانا ووفاء بوعد الله والله لا يخلف الميعاد وليس للشهادة معنى إلا أن الله يثيب من

---

(١) سيأتى الحديث بتمامه والكلام عليه وتخريجه فى ص ١١٣.

(٢) محّاء : بتشديد المهملة ، من المحو . (منه رحمه الله تعالى).

(٣) يشير إلى ما رواه مسلم (١٥٠٢/٣) ٣٣ - كتاب الإمارة ، ٣٢ - باب من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ : " يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين ".

(٤) ابن ماجة (٩٢٨/٢) ٢٤ - كتاب الجهاد ، ١٠ - باب فضل غزو البحر.

(٥) عُفَيْر: بمهملة وفاء مصغر ، وأبوه مَعْدان: بفتح أوله ، وسكون المهملة. (منه رحمه الله تعالى).

حصلت له ثوابا مخصوصا ، ويكرمه كرامة زائدة ، وقد بين الحديث أنه يكفر عنه ذنوبه المتعلقة بحقوق الله تعالى ، ويتجاوز عنه الإخلال بها بأن يترك معاقبته عليها فإذا فرض أن الشهيد له أعمال صالحة ، وقد كفرت الشهادة أعماله السيئة غير حقوق العباد ، فإن أعماله الصالحة تنفعه فى موازنة ما عليه من الحقوق والتبعات ، فيوفى ما عليه من أعماله الصالحة بمن الله ورحمته ، ولا يلزم من حصول الشهادة سقوط حقوق العباد ، فإن عدم بقاء شيء من التبعات على السالم من الدين إنما هو من ضرورة الواقع لا من جزاء الشهادة . ومثال ذلك : أن بعض خواص الملك لو ظلم آخر من أخصائه مثلا ، فاقتص الملك منه للآخر حقه ، لم ينافِ ذلك إكرامه لمن اقتص منه ، بل الواقع أن كثيرا منهم يبالغ فى إكرام بعض أخصائه ويستوفى مع ذلك منه حق من ليس من أخصائه ، إيثارا للعدل ومحبة للإنصاف ، فكيف بمن لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها.

وعرف بهذا التقرير أن فائدة الاستثناء فى قوله « إلا الدين » الإشارة إلى التفرقة بين من لا تبعة عليه فلا يعوّقه شيء عن التنعيم بثواب الشهادة ، وبين من عليه تبعة فيتعوّق ويتنغّص بسبب التبعة إلى أن يوفيها لصاحبها . ويؤيد ذلك حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا خلص المؤمنون - يعنى من الصراط - حبسوا عند قنطرة بين الجنة والنار يتقاصّون مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم فى دخول الجنة » الحديث متفق عليه (١) .

فلا شك أن مرتبة هؤلاء الذين يحبسون عند القنطرة دون مرتبة من يؤذن له فى دخول الجنة بغير تعويق .

---

(١) البخارى (٩٦/٥) ٤٦ - كتاب المظالم ، ١ - باب قصاص المظالم.

وقد أعيانى البحث عليه فى مسلم فلم أجده ، ثم تأكد لى أن الحديث لم يروه مسلم ، وذلك عندما طالعت كتاب " الجمع بين الصحيحين " الحميدى ، فوجدته ذكر الحديث ضمن أحاديث أفراد البخارى من مسند أبى سعيد الخدرى ، ق ٢٥١/أ من نسخة مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة - المحمودية ، تحت رقم ٤٢٤ حديث ، رقم الفيلم ٣٠٤٨.

فهذا بلا شك وهم من الحافظ ، فرحمه الله تعالى ، وسبحان من أبى العصمة إلا لرسوله ﷺ .

ذكر الجواب عن إشكال وقع فى كون الطاعون من وخز الجن

ذكر القاضى تاج الدين السبكى فى جزء جمعه فى الطاعون بعد أن ذكر حديث أبى موسى المذكور ما ملخصه : لو ثبت هذا الحديث للزم منه أن لا يقع الطاعون فى شهر رمضان ؛ لأن الشياطين تصفد [1] فيه وتغلغل [2] كما ثبت فى الصحيح [3] . قال : لكنه قد وقع الطاعون فيه ، بل شاهدناه فى شهر رمضان أكثر منه فى غيره .

ثم أجاب : بأن الحديث ليس فيه أن الشياطين تبطل أعمالها فيه بالكلية ، بل يحصل بذلك لها المنع من معظم العمل . قال : ويحتمل أن يقال : إنهم طعنوا قبل دخول شهر رمضان ولم يظهر التأثير إلا بعد دخول شهر رمضان . قال : وهذا بعيد . ثم قال : وخطر لى أن يقال : إن تصفيد الشياطين إنما هو عما يترتب عليه من ابن آدم إثم ، من تحسينهم الفجور لابن آدم ليقع فيه ، وأما ما لا يترتب عليه إثم بل يثاب المرء عليه كالطاعون مثلا ، فلا يمنعون منه كما لا يمنعون مما لا يترتب عليه إثم ولا ثواب كالاحتلام . انتهى .

وقد تكلم العلمـاء قديمـا على هذه المسـألة واستشكلوا تصفيد الشياطين فيه من جهة أخرى ، وهى وجود المعاصى : الكبائر وغيرها من بنى آدم فيه . قال عبد الله بن أحمد : سألت أبى عن هذا الحديث وقلت له : الرجل يوسوس له فى رمضان ويصرع ؟ فقال : هـكذا جـاء الحـديث . وقد استوعبت الكلام على ذلك فى فتح البارى [4] وهذا ملخصه :

قال الحليمـى : يحتمـل أن يكون الذين يسلسلون من الشياطين مسترقوا السمع

---

(١) تُصَفَّد : بمهملة ، وتشديد الفاء ، أى توثق . (منه رحمه الله تعالى).

(٢) تغلغل : بغينين معجمتين . (منه رحمه الله تعالى).

(٣) يشير إلى ما رواه البخارى (١١٢/٤) -٣ - كتاب الصوم ، ٥ - باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان.

ومسلم (٧٥٨/٣) ١٣ - كتاب الصيام ، ١ - باب فضل شهر رمضان. واللفظ له.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان رمضان فُتّحت أبواب الجنة ، وغلّقت أبواب النار ، وصفّدت الشياطين".

(٤) فتح البارى (١١٤/٤).

منهم ، وأن تسلسلهم يقع فى ليالى رمضان دون أيامه ؛ لأنهم كانوا منعوا فى زمن نزول القرآن من استراق السمع مطلقا فى رمضان وفى غيره ، فزيدوا التسلسل فيه مبالغة فى التحفظ .

قال : ويحتمل أن يكون المراد أن الشياطين لا يخلصون فيه إلى إفساد المسلمين مثل ما كانوا يخلصون فى غيره ؛ لاشتغال المسلمين بالصيام الذى فيه قمع الشـــهوات به ، وبقراءة القرآن والذكر والصلاة . انتهى .

وقال ابن خزيمة : المراد بالشياطين فى الحديث بعضهم لا كلهم . وترجم لذلك فى صحيحه وأورد ما أخرجه - واللفظ له - والترمذى وصححه والنسائى والحاكم (١) من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين مردة (٢) الجن ... » الحديث . وأصله فى الصحيح بلفظ : « وصفدت الشياطين » بغير قيد ، وفى رواية الترمذى : « صفدت الشياطين ومردة الجن » بالواو العاطفة ، وعند النسائى من وجه آخر عن أبى هريرة بلفظ : « وتغل فيه مردة الشياطين » وقوله : « صفدت » بضم أوله أي شدت بالأصفاد وهي الأغلال ، واحدها « صَفَد » بفتحتين ، وهو ما يوثق به الأسير من قيد أو غل ، وهو بمعنى الرواية الأخرى في الصحيح « وسلسلت الشياطين » والمطلق فى الروايات الأخرى محمول على المقيد بالمردة ، فيخرج غير المردة ، فيحصل الجمع بأن الوخز فى شهر رمضان يقع من غير المردة .

وقال عياض فى الكلام على أصل الحديث : يحتمل تسلسل الشياطين أمرين ؛ أحدهما : أن يحمل على ظاهره وحقيقته ، وأنه لمنع الشياطين من أذى المؤمنين . ويحتمل أن تكون الإشارة إلى كثرة الثواب ، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين ، ويكون ذلك كناية عن تعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشهوات .

---

(١) الترمذى (٣/٥٧) ٦ - كتاب الصوم ، ١ - باب ما جاء فى فضل شهر رمضان.
النسائى (٤/١٢٩) كتاب الصيام ، باب فضل شهر رمضان.
المستدرك (١/٤٢١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة.
(٢) مَرَدة: بفتحتين جمع مارد. (منه رحمه الله تعالى).

ورجح القرطبى في المفهم حمله على ظاهره ، ثم قال : فإن قيل : فكيف ترى الشرور والمعاصى واقعة فى شهر رمضان كثيرا ، فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك؟ فالجواب : (أنها تغل) (١) عن من صام الصوم المعتبر بشروطه ، ومراعاة آدابه ، وأن المصفد بعض الشياطين وهم المردة لا كلهم ، أو المقصود تقليل الشرور فيه وهو أمر واقع ، فإن وجود ذلك فيه أقل منه فى غيره . انتهى كلامه .

والمعتمد الاحتمال الثانى على ما تقدم تقريره وبه يندفع الإشكال والله أعلم .

* * * * *

* * *

*

---

(١) فى نسخة الدار والهند (أنها إنما تغل).

[الفصل السادس]

ذكر الدليل على أن الجن قد يسلطون على الإنس بغير هذا الوخز في رمضان وغيره ، فلا يستنكر تسلطهم بالوخز في رمضان [1] وأن الله قد يدفع بعضهم عن بعض

ثبت في الصحيحين [2] عن صفية بنت حيي أم المؤمنين رضى الله عنها في قصة اعتكاف النبى ﷺ في رمضان ، وأن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » وهو وإن كان سياقه أنه مخصوص بالوسوسة ، لكنه يدل على إمكان ما أشرت إليه بطريق عموم لفظه ، والدلالة الوجودية فيمن يصرعه الجن من الإنس كثيرة جدا .

وقد أخرج البزار [3] من حديث سمرة رفعه : « إن للشيطان كحلا ولعوقا ، فإذا كحل الإنسان من كحله شغله عن الصلاة ، وإذا لعقه من لعوقه ذرب لسانه في الشر » . وفي سنده ضعف يسير ، ولكن له شاهد من حديث أنس .

وروى ابن أبى الدنيا في كتاب « مصايد الشيطان » بسند صحيح عن أنس قال : كانت ابنة عوف بن عفراء مستلقية على فراشها ، فما شعرت إلا بزنجي قد وثب على صدرها ووضع يده على حلقها ، قالت : فإذا صحيفة تهوى بين السماء والأرض حتى وقعت على صدرى ، فأخذها فقرأها فإذا فيها : من رب لكين [4] إلى لكين ، اجتنب ابنة الصالح ، فإنه لا سـبيل لك عليهـا . فقام وأرسل يده من حلقى ، وضرب بيده على ركبتى ، فاستورمت حتى صارت مثل رأس الشاة . قالت : فأتيت عائشة فذكرت ذلك

---

(١) (فى رمضان) زيادة من الحرم.

(٢) البخارى (٢٨١/٤) ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ١١ - باب زيارة المرأة زوجها فى اعتكافه.
مسلم (١٧١٢/٤) ٣٩ - كتاب السلام ، ٩ - باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة وكانت زوجة أو محرما له أن يقول هذه فلانة.

(٣) البزار "كشف الأستار" (٣٩٤/٣) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩٦/٥):
رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح ، خلا سعيد بن بشير ، وقد وثقه شعبة وغيره وضعفه ابن معين وغيره.

(٤) لُكَيْن: بلام ، ثم كاف ، وآخره نون مصغر. (منه رحمه الله تعالى).

لها ، قالت : يابنة أخى ، إذا حضْتِ فاجمعى عليك ثيابك ، فإنه لن يضرك إن شاء الله تعالى . فحفظها الله بأبيها ، أنه كان قتل يوم بدر شهيدا .

وخرج أيضا بسند ضعيف من طريق الحسن بن الحسن بن على قال : دخلت على الربيع بنت معوذ أسالها عن شيء ، فقالت : بينا أنا في مجلسى هذا إذ انشق سقفي فهبط عليّ منه أسود مثل الجمل – أو قالت : مثل الحمار – لم أر مثل سواده وخلقه وفظاعته ، فدنا منى يريدنى ، وتبعته صحيفة صغيرة ، ففتحها فقرأها : من رب عُلْب[1] إلى طب ، أما بعد ، فلا سبيل لك على المرأة الصالحة بنت الصالحين . قالت : فرجع من حيث جاء وأنا أنظر . قال : وأَرَتْنى الكتاب وكان عندهم .

* * * * *
* * *
*

(١) عُلْب: بضم المهملة ، وسكون اللام ، بعدها موحدة. (منه رحمه الله تعالى).

[الفصل السابع]

ذكر الحكمة في تسليط الجن على الإنس بالطاعون

قال ابن القيم : في كون الطاعون وخز أعدائنا (من)(١) الجن حكمة بالغة ، فإن أعداء نا منهم شياطينهم ، وأما أهل الطاعة منهم فهم إخواننا ، والله أمرنا بمعاداة أعدائنا من الجن والإنس ، وأن نحاربهم طلبا لمرضاته ، فأبى أكثر الناس إلا مسالمتهم وموالاتهم ، فسلطهم الله عليهم عقوبة لهم حيث استجابوا لهم حين أغووهم وأمروهم بالمعاصي والفجور والفساد في الأرض فأطاعوهم ، فاقتضت الحكمة أن سلطهم عليهم بالطعن فيهم ، كما سلط عليهم أعداء هم من الإنس حين أفسدوا في الأرض ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فهذه ملحمة من الإنس ، والطاعون ملحمة من الجن ، والكل منهما بتسليط العزيز الحكيم ، عقوبة لمن يستحق العقوبة ، وشهادة ورحمة لمن هو أهل لها ، وهذه سنة الله في العقوبات تقع عامة ، فتكون طهرا للمؤمنين ، وانتقاما من الفاجرين . انتهى كلامه . وسأذكر ما يشيده ويؤيده في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

ذكر حكمة أخرى تليق بقسم آخر غير من أشار إليه ابن القيم :

قال أبوبكر محمد بن إسحاق الكلاباذى في كتاب معانى الأخبار عقب حديث أبى موسى الذى تقدم سياقه في الطاعون : إن الله عز وجل اختص المؤمن لنفسه ، وصرفه في محابه ، وجعل كل أحواله خيرا له ، وأراد به الخير في كل ما أصـــابه من خير أو شر ، أو ألم ولذة ، وقيض له من يواليه إرادة الخير به ، من ملك يستغفر له ، ونبى يشفع له ، ومؤمن يعاونه ، وجعل له من يعاديه إرادة الخير به ، من شيطان يزله ، وعدو يقاتله ، وجنى يخزه ، وهو عز وجل للمؤمن حافظ وناصر ، ولأعدائه مخز قاهر ، والمؤمن هو الذى إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

ثم ذكر جـواب إشكال في تسليط الجن على المؤمن مع كونه محفوظا في جميع أموره ، فقال : كما جاز أن يطعنه عدوه الظاهر بالرمح والسيف في وقت مع أنه في أكثر أوقاته قد منعه الله منه بالرعب تارة والقوة والنصر أخرى ، لكنه قد يريد به الخير ونيل درجة الشهادة فيقتله العدو ، وربما استولى العدو أيضا على دار المسلم وماله مع

---

(١) زيادة من الهند.

قوله : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ (١) وقوله : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ (٢) فكذلك يجوز أن يطعنه عدوه من الجن ، مع أنه في أكثر أوقاته قد منعه الله منه بالمعقبات من الملائكة ، لكنه قد يريد به الخير ونيل درجة الشهادة ، فيمكن من وخزه مع قوله تعالى ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ (٣) . قال : وطعن الإنس نافذ ، وطعن الجن غير نافذ ، فسمى النبي ﷺ الطعن النافذ طعنا والطعن غير النافذ طاعونا ، وأخبر أن في كل ذلك شهادة .

خاتمة (٤)

قد وردت آثار وحكايات لا تحصى في تثبيت كون الطاعون من وخز الجن ، من أقربها وقوعا ما حدّث به الشريف شهاب الدين بن عدنان وهو يومئذٍ كاتب السر بالقاهرة ، وأظنني سمعته منه وقرأته بخط من أثق به بعد ، قال : وقع الطاعون مرة ، فتوجهت لعيادة مريض فسمعت قائلا يقول لآخر : اطْعَنْه . فقال : لا . فأعاد ، فقال : دعه لعله ينفع الناس . فقال : لابد . قال : ففى عين فرسه . قال : وفي كل ذلك التفت ولا أرى أحداً ، فعدتُ المريض ثم رجعت ، فرأيت الفرس انفلتت من الركاب فتبعوها إلى أن ردوها وقد ذهبت عينها من غير أثر ضربة ظاهرة . قال : فتحققت صدق المنقول أن الطاعون من وخز الجن ، وكان عندى في ذلك وقفة .

* * * * *
* * *
*

(١) سورة آل عمران: ١٣٩.
(٢) سورة النساء: ١٤١.
(٣) سورة النساء: ٧٦.
(٤) هذه الخاتمة بتمامها سقطت من نسخة تركيا.

[الفصل الثامن]

ذكر الآثار الواردة في الأذكار التي تحرس قائلها من كيد الجن

[أولاً : الآيات القرآنية :]

فمن ذلك آيات من القرآن على ترتيب السور ، كحديث أبي سعيد وحديث ابن عباس في الرقية بفاتحة الكتاب وهما في الصحيح (١) .

– وعن عبد الملك بن عمير قال : قال رسول الله ﷺ : « في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء » . أخرجه الدارمي وهو مرسل جيد (٢) .

– وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضعت جنبك على الفراش ، وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ، فقد أمنت من كل شر إلا الموت » . أخرجه البزار وفي سنده راو ضعيف (٣) .

---

(١) أما حديث أبي سعيد فقد رواه البخارى (٤/٤٥٣) ٣٧ – كتاب الإجارة ، ١٦ – باب ما يعطى فى الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب .

ومسلم (٤/١٧٢٧) ٣٩ – كتاب السلام ، ٢٣ – باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار واللفظ له :

عن أبى سعيد ؛ أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا فى سفر ، فمروا بحى من أحياء العرب ، فاستضافوهم فلم يضيفوهم ، فقالوا لهم: هل فيكم راق ؟ فإن سيد الحى لديغ أو مصاب . فقال رجل منهم : نعم فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب فبرأ الرجل ، فأعطى قطيعاً من غنم فأبى أن يقبلها وقال: حتى أذكر ذلك للنبى ﷺ . فأتى النبى فذكر ذلك له فقال : يارسول الله ، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب . فتبسَّم وقال : "وما أدراك أنها رقية" ثم قال : "خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم" .

– وأما حديث ابن عباس فقد رواه البخاري: (١٠/١٩٨) ٧٦ – كتاب الطب ٣٤ – باب الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب بنحو حديث أبي سعيد. قال المصنف في الفتح (١٠/١٩٩): وقد تقدم شرح هذا الحديث مستوفى في كتاب الإجارة ، وبينت فيه أن حديث ابن عباس وحديث أبي سعيد في قصة واحدة وأنها وقعت لهم مع الذي لدغ.

(٢) الدارمي (٢/٤٤٥) كتاب فضائل القرآن ، باب فضل فاتحة الكتاب.

(٣) البزار "كشف الأستار" (٤/٢٦) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٢١) رواه البزار ، وفيه غسّان بن عبيد وهو ضعيف ، ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح.

- وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يفر من البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة » . رواه مسلم والترمذى والنسائى (١) .

- وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سورة البقرة فيها آية هى سيّدة آى القرآن ، لا تقرأ في بيت وفيه شيطان إلا خرج منه : آية الكرسى » . أخرجه الحاكم (٢) وهذا لفظه ، وأخرجه الترمذى (٣) بلفظ آخر واستغربه وليس فيه المقصود ، وأخرجه الطبرانى وصححه ابن حبان من حديث سهل بن سعد نحوه وفيه مقصود الباب وقال فيه : « من قرأها في بيته (ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ، ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيته) (٤) ثلاثة أيام » . وأخرجه أبو عبيد من حديث ابن مسعود موقوفا : الشيطان يفر من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه . وأخرجه الحاكم موقوفا ومرفوعا ، والطبرانى من حديث عبد الله بن مغفل بسند ضعيف .

- وعن النعمان بن بشير ، عن النبى ﷺ قال : « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، لا تقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » . رواه الترمذى (٥) وحسنه ، والنسائى (٦) وصححه ابن حبان والحاكم ، وأخرجه الطبرانى من حديث شداد بن أوس (٧) .

- وعن ابن مسعود قال : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح ؛ أربع آيات من أولها ، وآية الكرسى ، وآيتين بعدها ،

---

(١) مسلم (٥٣٩/١) ٦- كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ٢٩ - باب استحباب صلاة النافلة في بيته.
الترمذي (١٥٧/٥) ٤٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٢ - باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي.
النسائي في عمل اليوم والليلة: (ص ٥٣٥ ، ح ٩٦٥).

(٢) المستدرك (٥٦١/١) ، (٢٥٩/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) الترمذى (١٥٧/٥) ٤٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٢ - باب ما جاء فى فضل سورة البقرة وآية الكرسي .

(٤) ما بين القوسين ساقط من نسخة الهند .

(٥) الترمذى (١٥٩/٥) ٤٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٤ - باب ما جاء فى آخر سورة البقرة وآية الكرسى .

(٦) النسائى فى عمل اليوم والليلة : (ص ٥٣٧ ، ح ٩٦٧).

(٧) المعجم الكبير (٢٨٥/٧) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣١٢/٦): ورجاله ثقات.

وخواتيمها . رواه الطبراني ورواته ثقات ، إلا أن فيه انقطاعا (١) .

– وعن أبي هريرة قال : وكّلني رسول الله ﷺ بزكاة رمضان ... الحديث . وفيه قول الجنى لأبي هريرة : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ حتى تختم الآية (٢) ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . وفيه قول النبى ﷺ : « صدقك وهو كذوب » . أخرجه البخارى بهذا اللفظ في كتاب الوكالة ، وأخرجه النسائى (٣) .

– وعن أبي أيوب الأنصارى رضى الله عنه : أنه كانت له سَهْوَة (٤) فيها تمر ، وكانت تجيء الغول فتأخذ منها .. الحديث . وفيه قولها لأبي أيوب : آية الكرسى اقرأها في بيتك ، فلا يقربك شيطان ولا غيره . فجاء إلى النبى ﷺ فقال : « صدقَتْ وهى كذوب » أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب (٥) .

– وعن أبي بن كعب أنه كان له جرين (٦) فيه تمر ... فذكر الحديث . وفيه : فإذا هو بدابة كهيئة الغلام المحتلم فقال : ما أنت ؟ قال : جنى . وفيه : فقلت ما الذى يحرزنا منكم؟ قال : هذه الآية : آية الكرسى . وفيه قول النبى ﷺ : « صدق الخبيث » . أخرجه النسائى (٧) وأبو يعلى .

– وعن بريدة قال : بلغنى أن معاذ بن جبل أخذ الشيطان على عهد رسول الله ﷺ ، فسألته ، فقال : نعم ... فذكر الحديث . وفيه : أقبل على صورة الفيل فدخل من خلل الباب فدنا من التمر . وفيه : ولقد كنا في مدينتك هذه حتى بعث صاحبكم ، فلما نزلت عليه آيتان نفرنا منهما فوقعنا بنصيبين ، فلا تقرآن في بيت إلا لم يلج فيه الشيطان ثلاثا : آية الكرسى وخاتمة سورة البقرة ﴿ آمن الرسول ﴾ إلى آخرها . فخليت سبيله

---

(١) المعجم الكبير (١٤٧/٩) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١١٨/١٠): ورجاله رجال الصحيح إلا أن الشعبى لم يسمع من ابن مسعود.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) البخارى (٤٨٧/٤) ٤٠ – كتاب الوكالة ، ١٠ – باب إذا وكّل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكّل فهو جائز ...
والنسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٥٣٢ ، ح ٩٥٩) .

(٤) سَهْوَة: بفتح المهملة ، وسكون الهاء ، وفتح الواو ، أى بيت صغير. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) الترمذى (١٥٨/٥) ٤٦ – كتاب فضائل القرآن ، ٣ – باب حدثنا محمد بن بشار.

(٦) جرين: بجيم وراء ، وآخره نون ، وزن عظيم. (منه رحمه الله تعالى).

(٧) النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٥٣٤ ، ح ٩٦١).

(وغنوت) [1] إلى رسول الله ﷺ فقال : « صدق الخبيث وهو كذوب » . أخرجه الطبراني بسند حسن [2] .

– وعن ابن مسعود قال : خرج رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فلقى الشيطان فاصطرعا ... الحديث . وفيه : سورة البقرة ليس منها آية تقرأ في وسط بيت فيه شياطين إلا تفرقوا ، ولا تقرأ في بيت فيدخل ذلك البيت شيطان . أخرجه ابن أبي الدنيا بسند حسن .

ـ وعن كعب الأحبار قال : إن محمدا أعطى أربع آيات لم يعطهن موسى ، وإن موسى أعطى آية لم يعطها محمد . قال : والآيات ﴿ لله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ حتى ختم سورة البقرة ، والآية : اللهم لا تولج الشيطان في قلوبنا وتخلصنا منه ، فإن لك الملكوت والأيد والسلطان والملك والحمد والأرض والسماء الدهر الدهر أبدا أبدا . رواه أبو عبيد مقطوعا هكذا .

ـ وأخرج محمد بن المنذر الهروى في كتاب العجائب من طريق حمزة الزيات قال : بينا أنا بحلوان سمعت شيطانا يقول لآخر : هذا الذى يقرئ الناس القرآن تعال نعبث به . فقال : (مر ويلك) [3] . فلما دنا منى قرأت ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ ... إلى ﴿ الحكيم ﴾ [4] . فقال أحدهما للآخر : لا أرغم الله إلا أنفك ، أما أنا فلا أزال أحرسه إلى الصباح .

– وعن أبي بن كعب قال : كنت عند النبى ﷺ ، فجاء أعرابى فقال : يا نبى الله ، إن لى أخا وبه وجع . قال : « وما وجعه ؟ » قال : به لَمَمٌ . قال : « فأْتنى به » . فوضعه بين يديه فعوذه : بفاتحة الكتاب ، وأربع آيات من أول البقرة ، ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ الآية [5] ، وآية الكرسى ، وثلاث آيات من آخر السورة ، وآية من آل عمران ﴿ شهد الله ﴾ إلى ﴿ العزيز الحكيم ﴾ [6] ، وآية في الأعراف ﴿ إن ربكم الله ﴾ [7] ، وآخر

(١) وفى نسخة الحرم (ومضيت).
(٢) المعجم الكبير (٢٠/٥١).
(٣) فى نسخة الهند (مه ويلك).
(٤) سورة آل عمران: ١٨.
(٥) سورة البقرة: ١٦٣.
(٦) سورة آل عمران: ١٨.
(٧) سورة الأعراف: ٥٤.

المؤمنين ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾(١) ، وعشر آيات من أول الصافات ، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وآية من سورة الجن ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾(٢) ، و ﴿ قل هو الله أحد﴾ (٣) ، والمعوذتين . فقام الرجل كأنه لم يشك شيئا قط . أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند ، وفيه أبو جناب(٤) الكلبي وفيه ضعف(٥) .

– وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن إلى قوله : ﴿ وإليه المصير ﴾(٦) حين يصبح ، حفظ بهما حتى يمسي ، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح » . أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب(٧) . وأخرجه علي بن سعيد العسكري في ثواب القرآن نحوه من رواية عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي(٨) وهو ضعيف .

– وعن عقبة بن عامر قال : بينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين الجُحْفَة والأَبْوَاء ، إذ غشينا ريح وظلمة شديدة ، فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بأعوذ برب الفلق وأعوذ برب الناس ، ويقول : « ياعقبة تعَوّذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما » أخرجه أبو داود وأصله في مسلم(٩) .

– وأخرجه البزار(١٠) من حديث عبد الله الأسلمي أن النبي ﷺ قال له : « قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، هكذا فتعوذ ، فما تعوذ العباد بمثلهن قط » . ورجاله ثقات ، وهو عند أبي عبيد من رواية معاذ بن عبد الله بن خُبيب(١١) الجهني عن أبيه بنحوه وسنده جيد .

---

(١) سورة المؤمنون : ١١٦ .
(٢) سورة الجن : ٣ .
(٣) سورة الإخلاص : ١ .
(٤) أبو جَنَاب : بفتح الجيم ، وتخفيف النون ، وآخره موحدة. (منه رحمه الله تعالى) .
(٥) المسند (١٢٨/٥) .
(٦) سورة غافر: ٣ .
(٧) الترمذي (١٥٧/٥) ٤٦ – كتاب فضائل ، ٢ – باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي .
(٨) المليكي: هو بالتصغير. (منه رحمه الله تعالى) .
(٩) أبو داود (٧٣/٢) كتاب الصلاة ، باب في المعوذتين .
مسلم (٥٥٨/١) ٦ – كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، ٤٦ – باب فضل قراءة المعوذتين .
(١٠) البزار " كشف الأستار " (٨٥/٣) .
(١١) خُبَيْب: هو بخاء معجمة ، وموحدتين مصغّر. (منه رحمه الله تعالى).

وهو عند النسائى والترمذى وصححه (١) من حديث عبد الله بن خُبيب قال : أصابنا طشٌ وظلمة ، فانتظرنا رسول الله ﷺ ليصلى بنا ، فخرج وقال : « قل » . قلت : ما أقول؟ قال : « قل هو الله أحد ، والمُعَوِّذَتين حين تمسى وحين تصبح تكفيك كل شئ » . زاد الترمذى في روايته : « ثلاث مرات » . وعند أبي عبيد من حديث عبد الرحمن بن عابس قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا ابن عابس ، ألا أخبرك بأفضل ما تَعوّذ به المتعوّذون؟ » قلت : بلى يارسول الله . قال : « قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » . وسنده حسن .

– وعن أبي سعيد الخدرى قال :كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان ومن الإنسان ، حتى نزلت المُعَوِّذتان ، فلما نزلتا أخذ بهما ، وترك ما سواهما . أخرجه الترمذى (٢) .

[ثانيا : الأحاديث النبوية]

ومن ذلك ما جاء في الأحاديث النبوية من الأذكار المأثورة منها :

– عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، مائة مرة ، كانت له عَدل عشر رقاب ... » الحديث . وفيه : « وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى » . متفق عليه (٣) .

وفي رواية الترمذى : « من قال في دبر الصلاة : صلاة الفجر ، وهو ثانى رجليه قبل أن يتكلم : لا إله إلا الله ، فذكرها عشر مرات ، كتب الله له عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وكان يومه ذلك في حرز من كل مكروه ، وحُرِسَ من الشيطان » . وقال : حسن صحيح غريب (٤) .

– وعن الحارث بن الحارث الأشعرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله أمر يحيى بن زكريا أن يأمر بنى إسرائيل ... » الحديث بطوله ، وفيه قول النبى ﷺ :

---

(١) النسائى (٨/ ٢٥٠) كتاب الاستعاذة ، الحديث الأول.
الترمذى (٥/٥٦٧) ٤٩ – كتاب الدعوات ، ١١٧ – باب حدثنا سفيان.
(٢) الترمذى (٤/٣٩٥) ٢٩ – كتاب الطب ، ١٦ – باب ما جاء في الرقية بالمُعَوِّذتين.
(٣) البخارى (٦/٣٣٨) ٥٩ – كتاب بدء الخلق ، ١١ – باب صفة إبليس وجنوده.
مسلم (٤/٢٠٧١) ٤٨ – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، ١٠ – باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.
(٤) الترمذى (٥/٥١٥) ٤٩ – كتاب الدعوات ، باب ٤٩.

« وأمركم بذكر الله ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره سراعا ، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله » أخرجه الترمذي وصححه (١)

– وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « رأيت ليلة أسرى بي عفريتا من الجن يطلبني بشعلة من النار كلما التفتُّ رأيتُه . قال جبريل عليه السلام : ألا أعلمك كلمات تقولهن فتنطفئ شعلته؟ فقلت : بلى . فقال لي جبريل : قل أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامات ، اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما نزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ (٢) في الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، إلا طارقا يطرق بخير » . أخرجه ابن أبي الدنيا بسند فيه لين . وأخرجه أحمد (٣) من طريق أبي التيّاح قال : قلت لعبد الرحمن بن خنبش (٤) التميمي وكان كبيرا : أدركتَ رسول الله ﷺ؟ قال : نعم . قال : قلت : كيف صنع رسول الله ﷺ ليلة كادَتْه الشياطين؟ فقال : إن الشياطين تحدّرت تلك الليلة على رسول الله ﷺ من الأودية والشعاب ، وفيهم شيطان بيده شعلة من نار يريد أن يحرق بها وجه رسول الله ﷺ ، فهبط إليه جبريل فقال : يا محمد قل . قال : ما أقول ؟ قال : قل : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر ما نزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يارحمن . قال : فطفئت نارهم وهزمهم الله تعالى .

وأخرجه ابن أبي شيبة (٥) والبزار والحسن بن سفيان في مسانيدهم . وأخرجه النسائي (٦) بسند آخر إلى ابن مسعود بنحوه ، وهو من رواية محمد بن جعفر بن أبي كثير ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة ، عن عياش الشامي ، عن ابن مسعود . وعياش بمهملة ثم تحتانية ثقيلة وآخره معجمة ، مجهول .

---

(١) الترمذي (١٤٨/٥) ٤٥ – كتاب الأمثال ، ٣ – باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة.
(٢) ذرأ: بمعجمة وراء وهمزة ، أي خلق ، وكأنه مختص بخلق الذرية. (منه رحمه الله تعالى).
(٣) المسند (٤١٩/٣).
(٤) خنبش: بمعجمة ونون وموحدة ، ثم موحدة ، وزن جعفر. (منه رحمه الله تعالى).
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٤١٩/٧).
(٦) النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٥٣٠ ، ح ٩٥٩).

وقد رواه مالك (١) عن يحيى بن سعيد معضلا ، قال حمزة الكنانى : هذا هو المحفوظ والله أعلم .

– وعن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ستْر ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل أحدكم الخلاء أن يقول : بسم الله » أخرجه الترمذى (٢) .

– وعن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا دخل المسجد : « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وبسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » . قال : – يعنى من قالها – : « قال الشيطان : حُفظ منى سائر اليوم » . أخرجه أبو داود (٣) .

– وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . يقال له : هديت وكفيت ووقيت . فيتنحى له الشيطان ، فيقول له شيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى » . أخرجه أبو داود (٤) .

– وعن ابن عباس رفع الحديث إلى النبى ﷺ قال : « هذه الكلمات دواء من كل داء : أعوذ بكلمات الله التامة ، وأسمائه كلها عامة ، من شر السامّة والهامّة (٥) وشر العين اللامة ، ومن شر حاسد إذا حسد ، ومن شر أبي قترة وماولد » . الحديث أخرجه البزار وأبو يعلى وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف (٦) .

– وعن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « إذا تخوف أحدكم (السلطان) (٧) فليقل : اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، كن لى جارا من فلان ، ومن شر الإنس والجن وأتباعهم ، أن يفرط علىّ أحد منهم ، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله

---

(١) الموطأ (٢/٩٥١) ٥١ – كتاب الشّعر ، ٤ – باب ما يؤمر به من التعوذ.

(٢) الترمذى (٢/٥٠٤) كتاب الصلاة ، باب ما ذكر من التسمية عند دخول الخلاء.

(٣) أبو داود (١/١٢٧) كتاب الصلاة ، باب فيما يقول الرجل عند دخول المسجد.

(٤) أبو داود (٤/٣٢٥) كتاب الأدب ، باب ما جاء فيمن دخل بيته ما يقول.

(٥) السامّة والهامّة: بتشديد الميم فيهما ، وأول الأول سين مهملة ، والمراد ذوات السموم كالعقرب والمفضل الجَنَدى – بفتح الجيم والنون. (منه رحمه الله تعالى).

(٦) البزار "كشف الأستار" (٣/٤٠٥).
مسند أبى يعلى (٤/٣٠٦).

(٧) وفى نسخة الرباط وتركيا (الشيطان).

غيرك » . رواه الطبراني بسند حسن[1] .

وعن ابن عباس قال : إذا أتيت سلطانا مهيبا تخاف أن يسطو بك فقل : الله أكبر ، الله أعز من خلقه جميعا ، الله أعز مما أخاف وأحذر ، أعوذ بالله الذى لا إله إلا هو الممسك السماوات أن يقعن على الأرض إلا بإذنه ، من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس ، اللهم كن لى جارا من شرهم ، جل ثناؤك وعز جارك ، تبارك اسمك ، ولا إله غيرك ، ثلاث مرات . رواه ابن أبي شيبة والطبرانى موقوفا ، ورجاله رجال الصحيح[2] .

– وعن عطاء بن أبي مروان عن أبيه : أن كعبا حَلفَ له أن صهيبا حدثه : أن محمدا ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : « اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر مافيها » . أخرجه النسائى ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان[3] .

– وعن خولة بنت حكيم قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . لم يضره شيء حتى يرتحل » أخرجه مسلم والترمذى والنسائى[4] .

– وعن الوليد بن الوليد بن المغيرة أنه قال : يا رسـول الله ، أجد وحشة . فقال : « إذا أخذت مضجعك فقل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون . فإنه لا يضرك » . أخرجه أحمد[5] من رواية شعبة

---

(١) المعجم الكبير (١٠/١٨).

(٢) مصنف ابن أبى شيبة (١٠/٢٠٣).
المعجم الكبير (١٠/٣١٤).

(٣) النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٣٦٨ ، ح ٥٤٤).
ابن حبان "موارد الظمآن" (ص ٥٩٠ ، ح ٢٣٧٧).

(٤) مسلم (٤/٢٠٨٠) ٤٨ – كتاب الذكر والدعاء ، ١٦ – باب فى التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره.
الترمذى (٥/٤٩٦) ٤٩ – كتاب الدعوات ، ٤١ – باب ما يقول إذا نزل منزلا.
النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٣٧٦ ، ح ٥٦٠).

(٥) المسند (٦/٦).

عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حبان عنه ، ورجاله ثقات ، إلا أنني أظن فيه انقطاعا .

وقد أخرجه مالك في الموطأ [1] عن يحيى بن سعيد معضلا ، لم يذكر فوقه أحداً. ورواه أبو بكر بن أبي شيبة [2] عن عبد الرحيم بن سليمان ، عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحى بن حبان : أن الوليد ...

ورواه ابن عيينة عن أيوب بن موسى ، عن محمد بن يحيى بن حبان : أن خالد بن الوليد . وهذا اضطراب .

لكن أخرجه أبو داود [3] من طريق محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : كان الوليد بن الوليد يفزع في نومه ... فذكر نحوه وزاد : وكان عبد الله بن عمرو يعلمهن من عَقَل من بنيه ، ومن لم يَعْقِل كتبه فأعلقه عليه . وهو شاهد جيد .

وله شاهد آخر مرسل من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أن الوليد شكى ... فذكر نحوه . أخرجه إبراهيم الحربى في غريب الحديث .

– وعن عبد الله بن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال : « يا أرْض ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، وشر ما خلق فيك ، وشر ما نزل عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسْوَد ، ومن حية وعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن شر والد وماولد » . أخرجه أبو داود والنسائى وصححه الحاكم [4] .

– وعن أبي الأسمر العبدى قال : خرج رجل إلى ظهر الكوفة فذكر قصة فيها : أنه سمع هاتفا من الجن يقول : ما على عروة – يعنى ابن الزبير – سبيل ؛ لأنه يقول كلاما حين يصبح وحين يمسى . فرحل إلى المدينة فسأله ، فقال : أقول : آمنت بالله وحده وكفرت بالجبت والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الهواتف .

(١) الموطأ (٢/ ٩٥٠) ٥١ – كتاب الشَّعَر ، ٤ – باب ما يؤمر به من التعوذ.
عن يحيى بن سعيد قال: بلغنى أن خالد بن الوليد ...
(٢) مصنف ابن أبى شيبة (١٠/ ٣٦٢).
(٣) أبو داود (٤/ ١٢) كتاب الطب ، باب كيف الرقى.
(٤) أبو داود (٣/ ٣٤) كتاب الجهاد ، باب ما يقول الرجل إذا نزل المنزل.
النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٣٧٨ ، ح ٥٦٣).
المستدرك (١/ ٤٤٧) ، (٢/ ١٠٠) وصححه ووافقه الذهبى.

فصـــل

وقع في بعض النسخ من الحلية عن الشافعي : أحسن ما يداوى به الطاعون التسبيح . قيل : ووجهه أن الذكر يدفع العقوبة والهلاك ، قال الله تعالى : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾(١) .

وعن كعب قال : سبحان الله تمنع العذاب . قال ذلك وقد حضر عمر أمر بجلد رجل فجلده أول جلدة فقال : سبحان الله . فعفى عنه عمر . قلت : والمعروف عن الشافعي ما ذكره ابن أبي حاتم وغيره : لم أر للوباء أنفع من البنفسج يدهن به ويشرب .

تنبيه :

إنما يحصل النفع بهذه الآيات والكلمات لمن صفى قلبه من الكدر ، وأخلص في التوبة وندم على ما فرط فيه وفرط منه ، وإلا فإذا غلبت أسباب الداء على أسباب الدواء ، ربما بطل نفع الأدوية ، ولو لم يكن لذلك مثال في الخارج إلا غفلة المرء عن الأمور المذكورة حتى تهجم عليه الآفة من غير أن يشعر ثم يطلب الإقالة فلا يجد إليها سبيلا .

فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه ، وأن يرزقنا التوبة النصوح ، وأن يختم لنا بالحسنى بمنه وكرمه .

***

---

(١) سورة الصافات: ١٤٣.

[الفصل التاسع]
ذكر كشف مشكل ما في هذا الباب الثاني

قوله : الذبحة : بفتح الذال المعجمة والموحدة ، وقد تسكن الباء ، وبالمهملة ، وجع يعرض في الحلق من الدم ، أو قرحة تظهر فيه من داخل فينسد معها ، وقد ينقطع معه النفس .

قوله : الأرفاغ : بالفاء والغين جمع رفغ بضم الراء وقد تفتح ، وسكون الفاء ، هى أصول المغابن كالآباط والحوالب ، ومطاوى الأعضاء ، وهو مجتمع العرق والوسخ ، وقد يطلق الرفغ على الوسخ وليس مرادا هنا .

قوله : غدة : بضم الغين المعجمة وتشديد الدال .

قوله : المراق : بفتح الميم وتخفيف الراء وتشديد القاف ، هو ما رقَّ من أسفل البطن ولان ، ولا واحد له من لفظه ، وميمه زائدة ، قاله الجوهرى ، وقال أبو عبيد الهروى في الغريب : واحدها مرق ، وهو ما سفل من البطن من المواضع التى ترق جلودها .

قوله : وخز : بفتح الواو ، وسكون الخاء المعجمة ، بعدها زاى ، وهو طعن غير نافذ هذا أصل الوخز ، وإنما قيل لطعن الجن إنه غير نافذ ؛ لأنه يقع من الباطن إلى الظاهر فيؤثر في الباطن أولا ثم قد ينفذ إلى الظاهر وقد لا ينفذ ، بخلاف طعن الإنس ، فإنه يؤثر أولا في الظاهر ثم قد ينفذ إلى الباطن وقد لا ينفذ ، وهذه حقيقة الطاعون المحسوسة ، وبهذا التقرير يندفع الإشكال ، ويجتمع كلام الأطباء مع الآثار الواردة في ذلك كما تقدم .

قوله : بُثَر : بضم الموحدة ، وفتح المثلثة ، جمع بَثْر : بفتح الموحدة والمثلثة وقد يسكن ، وهو كالدمل الصغير .

قوله : ويرم : بفتح التحتانية وكسر الراء وتخفيف الميم ، من الورم .

قوله : المغابن : جمع مغبن ، هى بواطن الآباط والأفخاذ وشبهها ، ويقال أيضا لمعاطف الجلد .

قوله : الأرنبة : أى قصبة الأنف وهى مما يقل وقوع الطاعون به ، حتى أنكره بعضهم ، لكن قد وجد مصداق ذلك في الفناء الكبير بالديار المصرية والشامية سنة تسع وأربعين ، واستغربوه جدا حتى ذكر ذلك الصفدى في رسالة له متعجبا منه .

قوله : علاقة : بكسر المهملة وتخفيف اللام بعدها قاف .

قوله : الخَصِيب : بفتح المعجمة وكسر المهملة بعدها تحتانية ساكنة ثم موحدة ، والخصيبى نسبة إلى هذا الاسم .

والخلعى : بكسر المعجمة وفتح اللام ، اسمه : على بن الحسن

وعلُّويَة : بفتح العين المهملة وتشديد اللام المضمومة وسكون الواو ، بعدها تحتانية مفتوحة .

ومسعر : بكسر الميم وسكون المهملة .

والثعلبى : بمثلثة مفتوحة ومهملة ساكنة .

والنهشلى : بفتح النون وسكون الهاء بعدها معجمة .

والحمانى : بكسر المهملة وتشديد الميم وبعد الألف نون .

وكردوس : بضم الكاف وسكون الراء وضم المهملة وسكون الواو وآخره مهملة .

قوله : وابن أبى صغيرة : بفتح المهملة وكسر المعجمة .

وأبو بلج : بفتح الموحدة وسكون اللام بعدها جيم ، تقدم ضبطه .

قوله : الجوزجانى : بضم الجيم وسكون الواو وفتح الزاى وتخفيف الجيم .

قوله : تفصّيه : بفاء وصاد مهملة ثقيلة ، أى : كثير التفتيش .

قوله : الباغيان : بموحدة ثم غين معجمة مفتوحة بعدها موحدة خفيفة .

قوله : فيستبيح : من الإباحة .

قوله : بيضتهم : بفتح الموحدة ، أى مجتمعهم وموضع سلطانهم ، وبيضة الدار وسطها ومعظمها ، أراد عدوا يستأصلهم .

قوله : كقعاص الغنم : القعاص بضم القاف وتخفيف المهملة وآخرة مهملة ، داء يأخذ الغنم فتموت سريعا .

قوله : محاء : بتشديد المهملة من المحو .

قوله عفير : بمهملة وفاء مصغر ، وأبوه مَعْدان بفتح أوله وسكون المهملة .

قوله : تصفد : بمهملة وتشديد الفاء ، أى توثق ، وقد شرح في الأصل .

وقوله : تغلغل : بغينين معجمتين .

قوله : مردة : بفتحتين جمع مارد .

قوله : سهوة : بفتح المهملة وسكون الهاء وفتح الواو ، أى بيت صغير .

قوله : جرين : بجيم وراء وآخره نون ، وزن عظيم .

قوله : أبو جناب : بفتح الجيم ، وتخفيف النون وآخره موحدة .

قوله : المليكى : هو بالتصغير .

قوله : ابن خبيب الجهنى : هو بخاء معجمة وموحدتين مصغر .

قوله : خنبش : بمعجمة ونون وموحدة ثم معجمة ، وزن جعفر .

قوله : ذرأ : بمعجمة وراء وهمزة ، أى خلق وكأنه مختص بخلق الذرية .

قوله : لكين : بلام ثم كاف وآخره نون مصغر .

وقوله : عُلْب : بضم المهملة وسكون اللام بعدها موحدة .

قوله : من كل سامة وهامة : بتشديد الميم فيهما ، وأول الأول سين مهملة ، والمراد ذوات السموم كالعقرب ، والمفضل الجَنَدى بفتح الجيم والنون ، والله أعلم .

* * * * *

* * *

*

الباب الثالث

فى بيان أن الطاعون شهادة للمسلمين ورحمة

[وفيه عشرة فصول]

[الفصل الأول]
[في سياق الأحاديث الواردة في ذلك]

تقدم حديث أنس رفعه : « الطاعون شهادة لكل مسلم » متفق عليه [1] . وحديث عائشة في أنه : « رحمة للمؤمنين » أخرجه البخاري [2] ، وسيأتي سياقه في الباب الرابع [3] ، وفي رواية أحمد [4] من وجه آخر عنها : « المقيم فيه كالشهيد » ، ولأبي يعلى [5] من وجه آخر عنها : « ومن أصيب به كان شهيدا » .

وسيأتي في الباب الرابع [6] حديث شرحبيل بن حسنة : « إن هذا - يعني الطاعون - رحمة ربكم » .

وعن أبي عبيدة ومعاذ مثله ، وفي رواية لمعاذ : « وشهادة يختص الله بها من يشاء منكم » . وأخرج أحمد [7] من طريق إسماعيل بن عبيد الله - وهو ابن أبي المهاجر - قال : قال معاذ بن جبل : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستهاجرون إلى الشام فتفتح ، ويكون فيكم داء كالدمل وكالحزّة [8] ، تأخذ مراق الرجل ، يستشهد الله به أنفسهم ، ويزكي به أعمالهم » .

وفي رواية للبيهقي [9] في الدلائل : « يستشهد الله به أنفسكم وذراريكم ، ويزكي به أموالكم » .

وله [10] في حديث عوف بن مالك : « ثم موتان يظهرفيكم يستشهد الله به ذراريكم وأنفسكم ، ويزكي به أموالكم » الحديث.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٧٧ .
(٢) البخاري: (١٠/١٩٢) ٧٦ - كتاب الطب ، ٣١ - باب أجر الصابر على الطاعون.
(٣) ص ١٥٥ ، وقد ذكره مستوفياً ص ١١٧ .
(٤) المسند: (٦/١٤٥).
(٥) مسند أبي يعلى (٧/٣٧٩) ، (٨/١٢٥).
(٦) ص ١٥٦ وما بعدها.
(٧) المسند: (٥/٢٤١).
(٨) كالحزّة: بضم المهملة ، وتشديد الزاي ، وهي القطعة من اللحم قطعت طولا. (منه رحمه الله تعالى).
(٩) دلائل النبوة: (٦/٣٨٥).
(١٠) دلائل النبوة (٦/٣٨٣).

ذكر بيان الأخبار الواردة
في أن الشهادة لا تختص بالقتل في المعركة

روى مالك في الموطأ (١) عن سُمَيّ ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الشهداء خمسة : المطعون ، والمبطون ، والغرق ، وصاحب الهدم ، والشهيد في سبيل الله » . أخرجه البخاري (٢) من حديث مالك بهذا اللفظ ، وأخرجه (٣) من طريقه أيضا مختصرا بلفظ : « المبطون شهيد والمطعون شهيد » .

وأخرجه مسلم (٤) من طريق جرير عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ماتعدون الشهيد فيكم ؟ » . قالوا : يارسول الله ، الذى يقتل في سبيل الله فهو الشهيد. قال : « إن شهداء أمتى إذاً لقليل » قالوا : فمن هم يارسول الله ؟ قال : « من قتل في سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في الطاعون فهو شهيد ، ومن مات في البطن فهو شهيد ، والغريق شهيد » .

وأخرجه أحمد (٥) من رواية معمر عن سهيل بلفظ : « القتل في سبيل الله شهادة ، والغرق شهادة ، والطاعون شهادة ، والبطن شهادة ، والنفساء شهادة » . ولأحمد (٦) من وجه آخر عن أبي هريرة نحو رواية سهيل لكن قال فيه : « القتيل في سبيل الله ، والطعين في سبيل الله ، والغريق والخار (٧) عن دابته والمجنوب » (يعنى من يموت بذات الجنب.

والطيالسى (٨) من حديث عائشة : « الطعين والمجنوب) (٩) والنفساء والبطن شهادة » .

---

(١) الموطأ (١/١٣١) ٨ – كتاب صلاة الجماعة ، ٢ - باب ما جاء فى العتمة والصبح.
(٢) البخارى (٢/١٣٩) ١٠ – كتاب الأذان ، ٣٢ - باب فضل التهجير إلى الظهر.
(٣) البخارى (١٠/١٨٠) ٧٦ – كتاب الطب ، ٣٠ - باب ما يذكر في الطاعون.
(٤) مسلم (٣/١٥٢١) ٣٣ – كتاب الإمارة ٥١ - باب بيان الشهداء.
(٥) المسند (٢/٣١٠).
(٦) المسند (٢/٤٤١).
(٧) الخارّ: بمعجمة ، وراء مشددة ، أى الساقط. (منه رحمه الله تعالى).
(٨) منحة المعبود (١/٢٣٦).
(٩) ما بين القوسين ساقط من نسخة تركيا.

ولابن أبي شيبة من حديث سعد رفعه : « يستشهدون بالقتل والطعن والغرق والبطن وموت المرأة جُمْعا موتها في نفاسها » وسنده قوى.

ذكر خبر فيه زيادة في عدد الشهداء على حديث أبي هريرة :

قال مالك في الموطأ [1] : عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك [2] ، عن عتيك بن الحارث بن عتيك – وهو جد عبد الله بن عبد الله أبو أمه – أنه أخبره ، أن جابر بن عتيك أخبره ، أن عبد الله بن ثابت لما مات قالت ابنته : أما والله إن كنت لأرجو أن يكون شهيدا ، أما أنك قد قضيت جِهازك [3]. فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته ، ما تعدون الشهادة ؟ » قالوا : القتل في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ : « الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله : المقتول في سبيل الله شهيد ، والمطعون شهيد ، والغَرِق شهيد ، وصاحب ذات الجنب شهيد ، والمبطون شهيد ، وصاحب الحريق شهيد ، والذى يموت تحت الهدم شهيد ، والمرأة تموت بجمع [4] شهيد » .

وأخرجه أحمد واللفظ له ، وأبو داود والنسائي ، وصححه ابن حبان والحاكم ، كلهم من حديث مالك بهذا الإسناد [5]

قال ابن عبد البر : جوده مالك إسنادا ومتنا.

---

(١) الموطأ (٢٣٣/١) ١٦ – كتاب الجنائز ، ١٢ – باب النهى عن البكاء على الميت.

(٢) عتيك: بمهملة ومثناة ، وآخره كاف ، بوزن عظيم. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) قضيت جهازك: بكسر الجيم ، وبعد الألف زاى ، أى حاجة السفر ، أى فرغت منها ، وأكملت الآلات فعاقك المرض. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) بجُمْع: بضم الجيم ، وسكون الميم ، وعن الكسائى بكسر الجيم ، أى: تموت وفى بطنها ولد ، وهو بمعنى المجموع ، كالذخر بمعنى المذخور ، والمعنى أنها ماتت ومعها شئ مجموع فيها غير منفصل عنها ، وقيل: هى التى تموت بكرا. وقد ذكرنا تأييد الوجه الأول فى الأصل. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) المسند (٤٤٦/٥).

أبو داود (١٨٨/٣) كتاب الجنائز ، باب فى فضل من مات فى الطاعون.

النسائى (١٣/٤) ٢١ – كتاب الجنائز ، ١٤ – باب النهى عن البكاء على الميت.

ابن حبان "موارد الظمآن" (ص ٣٨٩ ، ح ١٦١٦).

المستدرك(٣٥٢/١).

ورواه أبو العميس [1] عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك ، فلم يقم إسناده ولا متنه ، قال في الإسناد : عن أبيه عن جده. واقتصر في المتن على القتيل والحريق والمطعون والمبطون والمجنوب – وهو صاحب ذات الجنب.

ولرواية مالك شاهد من حديث عبادة بن الصامت لكن ذكر بدل صاحب ذات الجنب : السل [2] ، وذكر بدل المرأة تموت بجمع : النفساء يجرها ولدها بسرره [3] إلى الجنة ، وهو بالمعنى ، وقال فيه أيضا : الطاعون شهادة. لكن لم يذكر الذى يموت تحت الهدم. أخرجه أحمد والبزار والطبرانى [4] بأسانيد بعضها حسن ، وفي بعضها أن عبادة بن الصامت رواه عن عبد الله بن رواحة.

وأخرج أحمد من حديث راشد بن حبيش نحوه [5].

وأخرجه الطبرانى من حديث ربيع الأنصارى نحو حديث مالك وفيه : الذى يموت تحت الهدم [6].

وعن عقبة بن عامر نحوه ، أخرجه النسائى [7].

وعن عبد الله بن مسعود قال : من يتردّى من رءوس الجبال وتأكله السباع ويغرق في البحار لشهداء عند الله. أخرجه الطبرانى [8].

وعن أم حرام [9] عن النبى ﷺ قال : " المائد في البحر – الذى يصيبه القيئ – له أجر شهيد " أخرجه أبو داود [10].

---

(١) أبو العميس: بمهملة مصغر ، وآخره مهملة ، واسمه عتبة بن عبد الله. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) السلّ: بكسر المهملة ، وتشديد اللام ، مرض معروف. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) سرره : بضم المهملة ، وبكسرها أيضا ، جمع سُرة بالضم ، وبفتح أوله: ما يقطع من السرة. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) المسند (٥/٣٢٩).
البزار "كشف الأستار" (٢/٢٨٥).
والطبرانى فى الأوسط كما أشار إلى ذلك الهيثمى فى مجمع الزوائد: (٥/٢٩٩).

(٥) المسند (٣/٤٨٩). (٦) المعجم الكبير (٥/٦٨).

(٧) النسائى (٦/٣٧) كتاب الجهاد ، باب مسألة الشهادة.

(٨) قال الحافظ فى الفتح (٦/٤٤): إسناده صحيح.

(٩) أم حرام: بلفظ ضد حلال. (منه رحمه الله تعالى).

(١٠) أبو داود (٣/٧) كتاب الجهاد ، باب فضل الغزو.

وعن سعيد بن زيد رفعه : « من قتل دون ماله فهو شهيد » أخرجه الترمذي [1] ، وقال : في الدين والأهل مثل ذلك وأخرجه البخارى بلفظ : « من قتل دون ماله مظلوما فله الجنة [2] » والنسائى من حديث سويد بن مقرن : « من قتل دون مظلمته فهو شهيد [3] » .

وعن أبي مالك الأشعرى رفعه : « من وقصته بعيره ، أو فرسه أو لدغته هامة ، أو مات على فراشه في سبيل الله : فهو شهيد » أخرجه الطبرانى. ولابن حبان من حديث أبي هريرة مرفوعا : « من مات مرابطا مات شهيدا » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « المرء [4] يموت على فراشه في سبيل الله شهيد » وقال ذلك في المبطون واللديغ والغريق والشريق والذى يفترسه السبع والخار عن دابته. أخرجه الطبرانى.

وعن ابن عباس رفعه : « موت غربة شهادة » أخرجه ابن ماجة بسند واه [5] . وأخرج الطبرانى في أثناء حديث من طريق عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده قال : « والغريب شهادة » . وعبد الملك متروك.

قال المنذرى : وجاء في أن موت الغريب شهادة عدة أحاديث لا يبلغ شئ منها درجة الحسن. كذا قال.

---

(١) الترمذى (٤/٣٠) ١٤ - كتاب الديات ، ٢٢ - باب ما جاء فى من قتل دون ماله فهو شهيد.

(٢) البخارى (٥/١٢٣) ٤٦ - كتاب المظالم ، ٣٣ - باب من قاتل دون ماله. ولفظه: عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من قتل دون ماله فهو شهيد".
قال الحافظ بن حجر: قوله (من قتل دون ماله فهو شهيد) قال الإسماعيلى: وكذا أخرجه البخارى ، وكأنه كتبه من حفظه ، أو حدث به ابن المقرئ من حفظه فجاء به على اللفظ المشهور ، وإلا فقد رواه الجماعة عن المقرئ بلفظ "من قتل دون ماله مظلوما فله الجنة" قال: ومن أتى به على غير اللفظ الذى اعتيد فهو أولى بالحفظ ولا سيما وفيهم مثل دحيم ، وكذا ما زادوه من قوله "مظلوما" فإنه لابد من هذا القيد. وساقه من طريق دحيم وابن أبى عمر وعبد العزيز بن سلام ، قلت: وكذلك أخرجه النسائى عن عبيد الله بن فضالة عن المقرئ ، وكذلك رواه حيوة بن شريح عن أبى الأسود بهذا اللفظ أخرجه الطبرى. أ هـ من الفتح.

(٣) النسائى (٧/١١٧) كتاب تحريم الدم ، باب من قاتل دون مظلمته.

(٤) هكذا فى تركيا ، وفى بقية النسخ (المرعوب).

(٥) ابن ماجه (١/٥١٥) ٦ - كتاب الجنائز ، ٦١ - باب ما جاء فيمن مات غريبا.

وأخرج الخطيب في ترجمة داود بن علي من تاريخ بغداد عن ابن عباس رفعه : « من عشق فكتم وعفّ فمات مات شهيدا » وفي سنده مقال[1].

(وعن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يصبح : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى ، فإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة » أخرجه الترمذى[2] وقال : غريب. والله أعلم.)[3]

فهذه الخصال ورد في كل منها أن صاحبها شهيد بمعنى أنه يعطى أجر الشهيد ، وغالبها ميتات فيها شدة تفضل الله بها على الأمة المحمدية بأن جعلها تمحيصا لذنوبهم وزيادة في أجورهم ، ومراتبها مع ذلك متفاوتة فيما يظهر حتى في الأشخاص. والله أعلم.

* * * * *
* * *
*

---

(١) تاريخ بغداد (٥/١٥٦ ، ٢٦٢) . وراجع التلخيص (٢/١٤٢) .
ولابن القيم كلام كثير حول هذا الحديث فى زاد المعاد (٤/٢٧٥) انتهى فيه إلى الحكم بوضعه ، بيد أن للشيخ أحمد بن الصديق الغمارى جزءا صغيرا جمع فيه طرق هذا الحديث وسماه "درء الضعف ، عن حديث من عشق فعف" ، ولا يزال مخطوطا.

(٢) الترمذى (٥/١٨٢) ٤٦ – كتاب فضائل القرآن ، ٢٢ – باب.

(٣) ما بين القوسين جاء فى نسخة الرباط قبل حديث ابن مسعود الآنف ذكره ص ١٥٥.

[الفصل الثاني]

ذكر الدليل على أن الشهادة تحصل بالنية وإن لم يقع للمؤمن شيء من الخصال المذكورة

عن أنس عن النبى ﷺ قال : « من طلب الشهادة صادقا أعطيها ولو لم تصبه » أخرجه مسلم(١).

والحاكم(٢) من حديث أنس بن مالك: « من سأل القتل فى سبيل الله صادقا ثم مات أعطاه الله أجر شهيد» وهو تفسير الأول. وللنسائى من حديث معاذ مثله.

وأخرج أحمد والحاكم(٣) أيضا من حديث سهل بن حنيف عن النبى ﷺ : « من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». وعن إبراهيم بن عبيد بن رفاعة أن أبا محمد أخبره - وكان من أصحاب ابن مسعود - أنه حدثه - يعنى ابن مسعود - عن رسول الله ﷺ قال: « إن أكثر شهداء أمتى لأصحاب الفرش ، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته » أخرجه أحمد فى مسند ابن مسعود من مسنده وسنده جيد(٤).

وعن فضالة بن عبيد: أن رجلين خرجا فى غزاة ، فأصيب أحدهما فى القتال ومات الآخر ، فجلس فضالة عند قبر الذى مات ، فقيل له فى ذلك فقال: ما أبالى من أى قبريهما بعثت ، ثم تلا: ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ... ﴾ الآية(٥) أخرجه ابن المبارك فى كتاب الجهاد له.

وعن محمد بن زياد الألهانى قال: ذكر عند أبى عِنَبة(٦) الخولانى(٧) الشهداء ، فقال :

---

(١) مسلم (١٥١٧/٣) ٣٣ - كتاب الإمارة ، ٤٦ - باب استحباب طلب الشهادة فى سبيل الله تعالى.

(٢) المستدرك (٧٧/٢).

(٣) المسند (٢٤٤/٥).

المستدرك (٧٧/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٤) المسند (٣٩٧/١).

(٥) سورة الحج: ٥٨.

(٦) أبو عِنَبة: بكسر المهملة وبفتح النون. (منه رحمه الله تعالى).

(٧) الخولانى: بفتح المعجمة وسكون الواو. (منه رحمه الله تعالى).

حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنه قال: "إن شهداء الله فى الأرض أمناء الله على خلقه ، قتلوا أو ماتوا" أخرجه أحمد(١).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لله عباداً يضن بهم(٢) عن القتل ، يطيل أعمارهم ويحسن أرزاقهم ، ويحييهم فى عافية ، ويقبض أرواحهم فى عافية ، ويبعثهم فى عافية ، فيعطيهم منازل الشهداء" أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الطب ، وفى سنده حفص بن سليمان وهو ضعيف.

وفى الباب عن سعيد بن زيد وأبى هريرة ، وابن عمر وابن عباس وابن مسعود وسردها أبو نعيم بأسانيد ضعيفة.

والحاصل من هذه الأحاديث أن الشهداء أقسام : شهيد فى الدنيا والآخرة: وهو من قتل فى حرب الكفار لإعلاء كلمة الله ، وشهيد فى الدنيا فقط: وهو من قتل فى حرب الكفار وقام به مانع كفساد نيّة مثلا والفرار من الزحف ، وشهيد فى الآخرة فقط: وهو ماعدا ذلك ، والله أعلم.

* * * * *
* * *
*

---

(١) المسند (٤/٢٠٠).

(٢) يضن بهم: بفتح التحتانية ، والضاد المعجمة ، الضن بالمعجمة الساقطة معناه البخل ، والمراد به هنا: أنه سبحانه وتعالى لا يريد بهم ذلك. (منه رحمه الله تعالى).

[الفصل الثالث]
ذكر معنى الشهيد

قال ابن الأنبارى: سمى بذلك لأن الله وملائكته يشهدون له بالجنة.
وقال النضر بن شميل: لأنه حىٌّ ، فكأن روحه شاهدة ، أى: حاضرة.
وقيل: لأنه يشهد عند خروج روحه (ما أعد له)(١) من الكرامة.
وقيل: لأنه لا يشهده عند موته إلا ملائكة الرحمة.
وقيل: لأن الملائكة يشهدون له بحسن الخاتمة.
وقيل: لأن الأنبياء تشهد له بحسن الاتباع لهم.
وقيل: لأن فضل الله يشهد له بحسن نيته وإخلاصه.
وقيل: لأنه يشهد له هذه الأمة بالجنة.
وقيل: لأنه يشهد يوم القيامة بإبلاغ الرسل.
وقيل: لأنه يشاهد الملائكة عند احتضاره.
وقيل: لأنه شاهد الدارين: دار الدنيا ودار الآخرة.
وقيل: لأنه مشهود له بالأمان من النار.
وقيل: لأن عليه علامة شاهدة بأنه قد نجى.

وبعض هذه التعريفات تختص بقتيل المعركة ، وبعضها يشمله وغيره ، وبعضها مدخول لاشتراك غير الشهيد مع الشهيد فيها.

* * * * *
* * *
*

(١) فى الرباط (ما أعد الله له).

ذكر خصائص الشهيد الأخروية

روى الترمذى [1] من حديث المقدام بن معدى كرب عن النبى ﷺ قال: " للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دَفْعَة، ويرى مقعده من الجنة، ويُجَار من عذاب القبر، ويَأْمَن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويزوج اثنين وسبعين من الحور العين، ويُشَفَّع فى سبعين من أقاربه " قال الترمذى حسن صحيح غريب.

وثبت بنص القرآن أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

وفى الصحيح [2]: " أن أرواح الشهداء فى جوف طير خضر تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش ".

ومن خصائص الشهيد أنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا لكثرة ما يرى من الكرامة وفضل الشهادة، ثبت ذلك فى الصحيح [3].

ومن خصائصه أنه يُقطع له بالجنة، وقد مضى البحث فيما يتعلق بالتبعات.

***

(1) الترمذى (٤/١٨٧) ٢٣ - كتاب فضائل الجهاد، ٢٥ - باب ثواب الشهيد.

(2) مسلم (٣/١٥٠٢) ٣٣ - كتاب الإمارة، ٣٣ - باب بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة.

(3) البخارى (٦/٣٢) ٥٦ - كتاب الجهاد، ٢١ - باب تمنّى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا.
عن أنس بن مالك؛ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شئ إلا الشهيد، يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة".

[الفصل الرابع]

ذكر جواب من استشكل الدعاء بالشهادة مع أنه يستلزم تمكين الكافر منه والقاعدة أن تمنى المعصية لا يجوز ، وقتل المؤمن معصية

ومحصل الجواب: أن المطلوب قصدا إنما هو نيل الدرجة الرفيعة ، وأما فعل الكافر فإنه من ضرورة الوجود ، وعلى ذلك يحمل تمنِّى من تمنَّى الشهادة من كبار الصحابة وغيرهم ، وكذا من تمنى الموت بالطاعون كمعاذ بن جبل وغيره ، وقد تمنى عمر الشهادة ، فلما قتله أبو لؤلؤة استبشر لكون الذى قتله كان كافرا ، وأرفع من ذلك قوله ﷺ : "لوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا فأقتل" وهو فى الصحيح [1].

* * * * *

* * *

*

(١) البخارى (٩٢/١) ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٦ - باب الجهاد من الإيمان.
مسلم (١٤٩٧/٣) ٣٣ - كتاب الإمارة ، ٢٨ - باب فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله.

[الفصل الخامس]

ذكر الدليل على أن بعض الشهداء أفضل من بعض

عن عتبة بن عبد السلمي قال: قال رسول الله ﷺ: " القتل ثلاثة : رجل جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقى العدو قاتلهم حتى يقتل ، فذلك الشهيد المفتخر في خيمة الله عز وجل تحت عرشه ، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة. ورجل مؤمن قرف[1] على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقى العدو قاتل حتى يقتل ، فانمحت خطاياه إن السيف محاء للخطايا ، وأدخل من أى أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب ، وبعضها أفضل من بعض. ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقى العدو قاتل حتى يقتل فهو في النار ، إن السيف لا يمحو النفاق" أخرجه أحمد[2] ورجاله ثقات ، وصححه ابن حبان[3] من هذا الوجه ، وفي سنده أبو المثنى الأُمْلُوكي – بضم الهمزة وسكون الميم وضم اللام وبعد الواو الساكنة كاف ، اسمه ضمضم ، حمصي – ذكره ابن حبان في الثقات من التابعين ، وقد صرح بسماعه من عتبة بن عبد ، ووقع لنا حديثه بعلو في مسند الدارمي[4] ، ولحديثه شاهد من حديث أنس أخرجه البزار[5].

وعن محمد بن مسلم بن عائذ[6] ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه: أن رجلا جاء ورسول الله ﷺ يصلي فقال حين انتهى إلى الصف: اللهم ائتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين. فلما قضى صلاته قال : "من المتكلم آنفا ؟ " قال : أنا يارسول الله. قال : إذًا يعقر جوادك وتستشهد في سبيل الله " . أخرجه البزار ورجاله ثقات[7].

---

(١) قرف: بفتح القاف والراء ، بعدها فاء ، أي اكتسب. (منه رحمه الله تعالى).
(٢) المسند (١٨٥/٤).
(٣) ابن حبان "موارد الظمآن" (ص ٣٨٨ ، ح ١٦١٤).
(٤) الدارمي (٢٠٦/٢) كتاب الجهاد باب في صفة القتل في سبيل الله.
(٥) البزار "كشف الأستار" (٢٨٤/٢).
(٦) عائذ: بمهملة ، ثم تحتانية مهموزة ، ثم ذال معجمة. (منه رحمه الله تعالى).
(٧) البزار "كشف الأستار" (٢٨١/٢).

وعن نعيم بن همّار[1] أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أى الشهداء أفضل؟ قال : "الذين إن يُلْقَوا [2] فى الصف لا يلفِتون [3] وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك الذين يطّلعون[4] فى الغرف العلا من الجنة ، ويضحك إليهم ربك ، وإذا ضحك ربك إلى عبد فلا حساب عليه" أخرجه أحمد[5] وأبو يعلى والطبرانى وصححه الحاكم ، وله شاهد من حديث أبى سعيد عند الطبرانى فى الأوسط .

وثبت فى صحيح مسلم [6] من حديث أبى سعيد الخدرى فى قصة الذى يقتله الدجال ، قال النبى ﷺ فيه : إنه أعظم الناس شهادة عند رب العالمين .

* * * * *

* * *

*

---

(١) همّار: بوزن عمار. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) يُلْقَوْا: بضم أوله ، وسكون اللام ، وفتح القاف ، وسكون الواو. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) يلفتون: بكسر الفاء. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) يطّلعون بتشديد الطاء. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) المسند (٥/٢٨٧).

(٦) مسلم (٤/٢٢٥٧) ٥٢ - كتاب الفتن وأشراط الساعة ، ٢١ - باب فى صفة الدجال ، وتحريم المدينة عليه ، وقتله المؤمن وإحيائه.

[الفصل السادس]

ذكر الدليل على أن شهيد الطاعون ملتحق بشهيد المعركة

(بخلاف من ذكر من الشهداء ، فإنهم وإن شاركوا من مات بالطاعون فى عدم مشاركة شهيد المعركة)(1) فى كثير من المزايا: كأحكام الدنيا من تكفينهم بدمائهم ، وترك غسلهم والصلاة عليهم ، ومن كونهم لا تبلى أجسادهم فى القبور ، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون - لكنهم يشاركون شهيد المعركة فى ثواب الشهادة وفى بعض الصفات الأخروية.

قال أحمد(2): حدثنا الحكم بن نافع ، ثنا إسماعيل بن عيَّاش(3) ، عن ضمضم(4) بن زرعة ، عن شريح(5) بن عبيد: أنه سمع عتبة بن عبد السلمى يحدث عن النبى ﷺ قال : "يأتى الشهداء والمتوفون بالطاعون ، فيقول أصحاب الطاعون: نحن شهداء. فيقال : انظروا ، فإن كانت جراحاتهم كجراح الشهداء تسيل دما ، وريحهم كريح المسك ، فهم شهداء فيجدونهم كذلك". هذا حديث حسن رواته موثقون ، وإسماعيل بن عياش وإن كان فيه مقال ، لكن الجمهور على أن روايته عن الشاميين قوية ، وهذا منها ، وممن صرح بذلك يحيى بن معين والبخارى ودحيم (6) ، وقال يعقوب الفسوى (7) : تكلم فيه قوم وهو ثقة ، أعلم الناس بحديث الشام. قال: وأكثر ما تكلموا فيه أنه يغرب عن ثقات الحجاز. انتهى.

ولحديثه شاهد عن العرباض بن سارية(8). قال أبو عبد الرحمن النسائى(9): أخبرنى

---

(1) ما بين القوسين ساقط من الرباط .

(2) المسند (185/4).

(3) عياش : بتحتانية ومعجمة. (منه رحمه الله تعالى).

(4) ضمضم : بمعجمتين ، بوزن جعفر. (منه رحمه الله تعالى).

(5) شريح : بمعجمة ، وآخره مهملة مصغر. (منه رحمه الله تعالى).

(6) دُحَيْم : بمهملة مصغر. (منه رحمه الله تعالى).

(7) الفسوى : بفاء مهملة. (منه رحمه الله تعالى).

(8) العرباض بن سارية : العرباض : بكسر المهملة ، وسكون الراء ، وبعدها موحدة وآخره معجمة. وسارية : بمهملة وبعد الألف راء ، ثم تحتانية خفيفة. (منه رحمه الله تعالى).

(9) النسائى (37/6) كتاب الجهاد ، باب مسألة الشهادة.

عمرو بن عثمان ، ثنا بقية بن الوليد ، ثنا بحير[1] بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن ابن أبى بلال ، عن العرباض بن سارية: أن رسول الله ﷺ قال: "يختصم الشهداء والمتوفون على فرشهم إلى ربنا جل جلاله فى الموتى يتوفون فى الطاعون ، فيقول الشهداء: إخواننا قتلوا كما قتلنا. ويقول المتوفون على فرشهم: إخواننا ماتوا على فرشهم كما متنا. فيقول الله عز وجل: انظروا إلى جراحهم ، فإن أشبهت جراح المقتولين فإنهم منهم ، فإذا جراحهم أشبهت جراحهم".

وهذا حديث حسن صحيح أخرجه أحمد[2] عن حيوة بن شريح ويزيد بن عبد ربه ، كلاهما عن بقية ، وهو صدوق ليس فيه قادح إلا تدليسه ، وقد صرح بالتحديث فى هذه الطريق فأُمِن تدليسه ، وابن أبى بلال المذكور فى الإسناد شامى ثقة اسمه عبد الله. وأخرجه الكلاباذى فى معانى الأخبار من طريق إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعيد وهى متابعة جيدة لبقية ، وقال فى المتن: "فيقضى الله بينهم فيقول: انظروا إلى جراح المطعنين ، فإن أشبهت جراح الشهداء فهم منهم. فنظروا إلى جراح المطعنين فإذا هى قد أشبهت جراح الشهداء فيلحقون بهم".

وهذا المتن لا أعلم أحدا رواه عن النبى ﷺ غير هذين الصحابيين ، وقد أخرج أحمد[3] بالسند المبدأ بذكره إلى شريح بن عبيد قال: كان عتبة يقول: عرباض خير منّى. وعرباض يقول: عتبة خير منى ؛ سبقنى إلى النبى ﷺ.

وقال الكلاباذى فى معانى الأخبار: يستفاد من حديث العرباض أن الطاعون يسمى طعنا ، وأن الميت بالطاعون يسمى مطعونا.

* * * * *
* * *
*

---

(١) بحير: بفتح الموحدة وكسر المهملة ، ثم تحتانية ساكنة. (منه رحمه الله تعالى).
(٢) المسند (١٢٨/٤).
(٣) المسند (١٨٦/٤). وجاء فى آخره: (بسنة).

[الفصل السابع]

ذكر ما يشترط لتحصيل الشهادة بالطاعون

قال الإمام أحمد (١): حدثنا عبد الصمد – هو ابن عبد الوارث – حدثنا داود – هو ابن أبى الفرات (٢) – ثنا عبد الله بن بريدة (٣)، عن يحيى بن يعمر (٤)، عن عائشة أنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرنى: " أنه كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء، وجعله رحمة للمؤمنين، فليس من رجل يقع الطاعون فيمكث فى بيته صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد ".

أخرجه البخارى والنسائى (٥) من حديث داود ابن أبى الفرات، وقال البخارى فى روايته فى الطب: "فيمكث فى بلده". وقال: "يعلم أنه لن يصيبه". وقال فى روايته فى القدر: "مامن عبد يكون فى بلده – أى الطاعون – يكون فيه ويمكث فيه، فلا يخرج من البلد صابرا محتسبا". وقال فى روايته فى ذكر بنى إسرائيل: " ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابرا محتسبا ". والباقى كالأول.

فمقتضى هذا الحديث بمنطوقه ومفهومه أن أجر الشهيد إنما يكتب لمن لم يخرج من البلد الذى يقع به الطاعون، وأن يكون فى حالة إقامته قاصدا بذلك ثواب الله، راجيا صدق موعوده، وأن يكون عارفا أنه إن وقع له فهو بتقدير الله، وإن صُرِف عنه فهو بتقدير الله، وأن يكون غير متضجر به إن لو وقع به، فإذا وقع به فلأولى أن لا يتضجر، وأن يعتمد على ربه فى حالتى صحته (وسقمه) (٦).

---

(١) المسند (٦/٢٥١).

(٢) الفرات: بلفظ النهر المشهور. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) بريدة: بموحدة وراء. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) يعمر: بتحتانية وزن جعفر. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) البخارى (٦/٥١٣) ٦٠ – كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٤.
وفى (١٠/١٩٢) ٧٦ – كتاب الطب، ٣١ – باب أجر الصابر على الطاعون.
وفى (١١/٥١٤) ٨٢ – كتاب القدر، ١٥ – باب ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾.
النسائى فى الكبرى كما فى تحفة الأشراف (١٢/٣٣٦).

(٦) هكذا فى الهند، وفى بقية النسخ (وعافيته).

فمن اتصف بهذه الصفات مثلا فمات بغير الطاعون ، فإن ظاهر الحديث أنه يحصل له أجر الشهيد ، وقد قلنا إن درجات الشهداء متفاوتة ، ويكون كمن خرج من بيته على نية الجهاد فى سبيل الله بشرطه فمات بسبب آخر غير القتل كما تقدم صريحا.

ويؤيده الرواية السابقة فى حديث أبى هريرة عند مسلم بلفظ: "ومن مات فى الطاعون فهو شهيد"(١) ولم يقل بالطاعون ، فإن ظاهرها شاهد لما قلناه ، وإن كان يحتمل أن تكون "فى" للسببية كالباء ، فإنه يقال في نفس الحديث: "ومن مات في البطن فهو شهيد" ومعلوم أن المراد به المبطون نفسه ، ويحتمل أن تكون "في" للظرفية على بابها ، لكن جرى على الغالب ، فإن الموت فى زمن الطاعون إنما يكون بالطاعون غالبا.

لكن يحتمل أيضا أن تكون "فى" استعملت فى الحديث للسببية والظرفية معا ، ويتفرع من هذا: أن من اتصف بالصفات المذكورة وذهب الطاعون ولم يمت به ولا فى زمنه هل يكون شهيدا أو لا ؟ ظاهر الحديث : نعم ، وفضل الله واسع ، ونية المؤمن أبلغ من عمله ، وقد تقدم قريبا حديث ابن مسعود: " إن أكثر شهداء أمتى لأصحاب الفرش" (٢) ، وتقدم حديث جابر بن عتيك (٣) وفيه قوله ﷺ: " إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته " .

قال الشيخ تقى الدين السبكى : يؤخذ منه معنى حديث : " نية المؤمن أبلغ من عمله " (٤) ؛ لأن النية تمتد إلى مالانهاية له ، والعمل محصور ، وقدر النية بحسب ما تتعلق به طال أو قصر. انتهى.

ولا يعكر على هذا أنه يلزم منه أن من اتصف بالصفات المذكورة ثم مات مطعونا أن يكون له أجر شهيدين ، لأنا ننفصل عن ذلك بما قدمناه أن درجات الشهداء متفاوتة ، فأرفعها درجة من اتصف بالصفات ثم طعن فمات به ، ودونه من اتصف بها ثم طعن ثم

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٣ .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٠٨ .

(٣) تقدم تخريجه ص ١٠٤ .

(٤) قال السخاوى فى المقاصد الحسنة : رواه العسكرى فى الأمثال ، والبيهقى فى الشعب ، وقال البيهقى إسناده ضعيف .
ثم قال السخاوى : وله شواهد ... وهى وإن كانت ضعيفة فمجموعها يتقوى الحديث ، وقد أفردت فيه وفى معناه جزءًا .

لم يمت ، وقريب منه من اتصف بها ثم مات بغير الطاعون ، ودون الجميع من اتصف بها ثم لم يطعن ولم يمت. ويحتمل التعدد إذا تغايرت الأسباب المرتب عليها الشهادة ، كما لو مات غريبا بالطاعون مع الصبر والاحتساب ، وكما لو طعنت النفساء ثم ماتت فى نفاسها ، وكذا من قال أو فعل شيئا مما تقدم أنه يصير به شهيدا ، ويتفرع على هذا الاحتمال تعدد (القراريط لمن صلى على عدد من الجنائز ، ونحوه ما نقل بعضهم عن جماعة من الصحابة أن من اقتنى كلابا نقص من أجره بعددهم ، بل تعدد قراريط الجنازة وتعدد) (١) الشهادة أولى لدخول التضعيف فى أصل الثواب بخلاف الوزر.

ويمكن أن يقال : درجة الشهادة شيء ، وأجر الشهادة شيء ، فالشهادة تختص بمن اتصف بالصفات المذكورة ثم طعن فمات ، (ومن عدا ذلك يحصل له أجر الشهيد وإن لم تحصل له درجة الشهادة) (٢) ، ثم رأيت هذا بعينه فى كلام الشيخ أبى محمد بن أبى جمرة فى شرحه للقطعة التى اختصرها من البخارى فى كلامه على هذا الحديث حين ذكر الفرق بين الروايتين ، حيث جاء فى الحديث الماضى: " المطعون شهيد " ، وقال فى هذا : " له مثل أجر شهيد " .

ومما يستفاد من مفهوم حديث عائشة :(أن من لم يتصف بالصفات المذكورة لا يكون شهيدا ولو مات بالطاعون فضلا عن أن يموت بغيره والله المستعان.

ومما يستفاد من حديث عائشة) (٣) : أن الصابر فى ألطاعون المتصف بالصفات المذكورة يأمن فتانى القبر ، لأنه نظير المرابط فى سبيل الله ، وقد صح ذلك فى المرابط كما أخرجه مسلم (٤) من حديث سلمان: سمعت رسول الله ﷺ يقول : " رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمل وأمن الفتان " (٥). وعن فضالة بن عبيد : أن رسول الله ﷺ قال : " كل ميت يختم على

(١) ما بين القوسين ساقط من الهند.

(٢) ما بين القوسين جاء وضعه هكذا فى نسخة الهند ، وفى بقية النسخ تأخر إلى ما بعد نهاية الفقرة ، وما أثبتناه هو الصواب لموافقته لسياق الكلام.

(٣) ما بين القوسين ساقط من الرباط.

(٤) مسلم (٣/١٥٢٠) ٣٣ - كتاب الإمارة . ٥٠ - باب فضل الرباط فى سبيل الله عز وجل.

(٥) الفتان: بفاء ، ثم مثناة ثقيلة ، أى: الملك الذى يسأل الميت فى قبره ، وقد فسره الحديث الذى بعده: "ويؤمّن فتان القبر". (منه رحمه الله تعالى).

عمله إلا المرابط فى سبيل الله ، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمّن فتنة القبر " رواه أبو داود والترمذى ، وصححه ابن حبان والحاكم(١).

وفى الباب عن جماعة من الصحابة منهم : أبو هريرة وأبو الدرداء وعبد الله بن عمرو وغيرهم.

وأخرج أبو يعلى من حديث أبى أيوب رفعه : " من قاتل فصبر حتى يقتل أو يغلب وقى فتنة القبر " .

* * * * *
* * *
*

---

(١) أبو داود (٣/٩) كتاب الجهاد ، باب فى فضل الرباط.
الترمذى (٤/١٦٥) ٢٣ - كتاب فضائل الجهاد ، ٢ - باب ما جاء فى فضل من مات مرابطا.
ابن حبان "موارد الظمآن" (ص ٣٩١ ، ح ١٦٢٤).
المستدرك(٢/٧٩).

[الفصل الثامن]

ذكر جواب عن إشكال وقع في كون الطاعون شهادة ورحمة

روى مالك فى الموطأ وصححه الشيخان (١) من طريقه ، عن نعيم المجمر (٢) ، عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: " على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال ".

وأخرج البخارى (٣) من رواية شعبة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : "المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة ، فلا يدخلها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى". أخرجه فى كتاب الفتن وفى كتاب التوحيد من رواية يزيد بن هارون عنه ، وقال خلف فى الأطراف: تفرد به يزيد. وأخرجه أبو عوانة فى صحيحه من طريق يزيد وهو من زياداته على مسلم ، وأخرجه الترمذى من طريق يزيد أيضا (٤).

ووجه الإشكال: أنه إذا كان شهادة ورحمة فكيف قرن بالدجال؟ وكيف مُدحت المدينة الشريفة بأنه لا يدخلها؟

والجواب عن ذلك: أن كونه شهادة ورحمة ليس المراد بوصفه ذلك ذاته ، وإنما المراد أن ذلك يترتب عليه وينشأ عنه وأنه سببه ، وإذا تقرر ذلك ، واستحضر ما تقدم من أنه طعن الجن (، ظهر مدح المدينة بأنه لايدخلها إشارة إلى أن كفار الجن) (٥) وشياطينهم ممنوعون من دخول المدينة الشريفة ، ومن اتفق دخوله إليها منهم لا يتمكن من أحاد أهلها بالطعن حماية من الله تعالى لهم منهم.

فإن قيل: طعن الجن لا يختص بوقوعه من كفارهم فى مؤمنى الإنس ، بل يقع من مؤمنى الجن فى كفار الإنس كما تقدم تقريره ، فإذا سلّم منع الجن الكفار من المدينة لم

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٩.

(٢) نعيم المجمر: نعيم: بنون مصغر ، المجمر: بضم الميم ، وسكون الجيم ، وكسر الميم. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) البخارى (١٣/١٠١) ٩٢ – كتاب الفتن ، ٢٧ – باب لا يدخل الدجال المدينة.
وفى (١٣/٤٤٧) ٩٧ – كتاب التوحيد ، ٣١ – باب المشيئة والإرادة.

(٤) الترمذي (٤/٥١٤) ٣٤ – كتاب الفتن ، ٦١ – باب في الدجال لا يدخل المدينة.

(٥) ما بين القوسين ساقط من الحرم.

يُمنع من آمن منهم.

فالجواب: أن دخول كفار الإنس إلى المدينة غير مباح ، فإذا لم يسكن المدينة إلا من يظهر الإسلام جرت عليهم أحكام المسلمين ، وصار من لم يكن خالص الإسلام تبعا للخالص ، فحصل الأمن من وصول الجن إليهم بذلك ، فلذلك لا يدخلها الطاعون أصلا.

وهذا الجواب أحسن من جواب القرطبي في المفهم حيث قال : المعنى لا يدخلها من الطاعون مثل الذي في غيرها ، كطاعون عمواس[1] والجارف[2]. وهو جواب صالح على تقدير التنزل إن لو وقع شيء من ذلك بها.

وقال غيره: سبب الرحمة لم ينحصر في الطاعون ، وقد قال ﷺ: " غير أن عافيتك أوسع لي " [3] . فإن ذلك من خصائص المدينة الشريفة ولوازم دعاء النبي ﷺ لها بالصحة . هذا حاصل ما أجاب به الشيخ ولي الدين والقاضي تاج الدين.

وذكر المنبجي أجوبة أخرى منها : أن هذه معجزة ؛ لأن الأطباء من أولهم إلى آخرهم عجزوا أن يدفعوا الطاعون عن بلد من البلاد ، بل عن قرية من القرى ، وقد امتنع الطاعون من المدينة بدعائه وغيره هذه المدة المتطاولة.

قلت : وليس هذا بجواب عن الإشكال.

ومنها : ما تقدم من أنها حرست من الشياطين كما تقدم.

ومنها : أنه عوضهم عن الطاعون بالحمى ، لأن الطاعون يأتي بعد مدة ، والحمى تتكرر في كل مدة فتعادلا.

---

(١) عَمَوَاس: بفتح المهملة والميم وقد تسكن وتخفيف الواو وآخره مهملة ، اسم موضع بالشام ، وقيل لذلك الطاعون عمواس لأنه عمّ وواسى ، وكان طاعون عمواس سنة سبع عشرة. (منه رحمه الله تعالى باختصار).

(٢) الجارف: بجيم وآخره فاء ، سمي الطاعون بذلك لأنه جرف الناس كما يجرف السيل الأرض فيأخذ معظم ما فيها ، وفي سنة وقوع هذا الطاعون اختلاف كثير أرجحه أنه في العشر السابع ، إما في سنة أربع أو سبع أو تسع وستين وكان بالبصرة. (منه رحمه الله تعالى باختصار).

(٣) وهو قطعة من دعائه صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من الطائف ، وقد أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٥) وقال: رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة.

ومنها : أن ذلك كان مخصوصا بزمنه ﷺ.

ومنها : أنها صغيرة فلو وقع بها الطاعون لفَنِيَ أهلها.

قلت: ويظهر لى جواب أخص من هذه الأجوبة ، بعد استحضار الحديث الماضى فى (أول)(١) الباب الأول عن أبى عسيب أن رسول الله ﷺ قال: "أتانى جبريل بالحمى والطاعون ، فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام ..." الحديث(٢) ، وهو أن الحكمة فى ذلك أنه ﷺ لما دخل المدينة ، كان فى قلة من أصحابه عدداً ومدداً من زاد وغيره ، وكانت المدينة وبيئة كما سبق من حديث عائشة ، فناسب الحال الدعاء بتصحيح المدينة لتصح أجساد المقيمين بها ليَقْوَوا على جهاد الكفار ، وخُيِّر النبى ﷺ فى أمرين ، يحصل لمن أصابه كل منهما عظيم الثواب ، وهما: الحمى والطاعون ، فاختار حينئذ الحمى بالمدينة ، لأن أمرها أخف من أمر الطاعون ، لسرعة الموت به غالبا ، فلما أذن له فى القتال كانت قضية استمرار الحمى ضعف الأجساد التى تحتاج إلى القوة فى الجهاد ، فدعا حينئذ بنقل الحمى إلى الجُحْفة ، فأجيب دعاؤه وصارت المدينة من أصح بلاد الله ، فإذا شاء الله موت أحد منهم حصل له الشهادة التى كانت من الطاعون بالقتل فى سبيل الله ، الذى هو أعلى درجة ، ومن فاته ذلك منهم مات بالحمى التى هى حظ المؤمن من النار ، وكل يوم منها يكفر سنة واستمر ذلك بالمدينة بعده ﷺ تمييزا لها عن غيرها من البلاد ، تحقيقا لإجابة دعائه ﷺ ، نعم شاركتها فى ذلك مكة المشرفة فلم يدخلها الطاعون فى ما مضى من الزمان ، كما جزم به ابن قتيبة فى المعارف ، ونقله جماعة من العلماء عنه وأقروه إلى زمن الشيخ محيى الدين رحمه الله ، ذكر ذلك فى كتاب الأذكار وغيره ، لكن قد قيل إنه دخلها بعد ذلك فى الطاعون العام الذى وقع فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبعد ذلك ، فإن ثبت ذلك فلعله لما انتهك من حرمتها بسكنى الكفار فيها وخصوصا فى زمننا هذا (ثم وقفت) (٣) ، والله المستعان.

* * *

(١) زيادة من الرباط.

(٢) سبق تخريجه فى ص ٣٣ .

(٣) زيادة من الدار والحرم.

[الفصل التاسع]

ذكر جواب عن إشكال آخر
وقع فى كون الطاعون شهادة ورحمة

قال ابن ماجة (١) : ثنا محمود بن خالد الدمشقى ، ثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب ، عن ابن أبى مالك ، عن أبيه ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: "يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن - وأعوذ بالله أن تدركوهن - لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله(٢) إلا جعل بأسهم بينهم".

وأخرجه البيهقى من هذا الوجه وقال في أوله: كنا عند رسول الله ﷺ فقال : " كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس ؟ ". وقال فى الأولى : " يعمل بها فيهم علانية". وقال فى الرابعة : "وما حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلط الله عليهم عدوا فاستنفذوا بعض ما فى أيديهم ". وقال فى الخامسة : " وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم " .

وابن أبى مالك (المذكور فى سنده هو خالد بن يزيد بن عبد الرحمن ، وأبو مالك) (٣) كنية جد أبيه أو جده عبد الرحمن ، وكان فقيها ، وقد وثقه أحمد بن صالح المصرى ، وأحمد بن عبد الله بن صالح العجلى ، وأبو زرعة الدمشقى ، وضعفه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل والنسائى والدارقطنى ، وقال ابن حبان : هو من فقهاء الشام ، وكان

---

(١) ابن ماجة (١٣٣٢/٢) ٣٦ - كتاب الفتن ، ٢٢ - باب العقوبات.

(٢) ويتخيّروا مما أنزل الله: هكذا وقع فى ابن ماجة ، ولست على ثَبَتٍ من ضبطها ، ولعله إشارة إلى أن الحاكم إذا لم يجد نصا لا يحكم بهواه ، بل يتأمل النصوص فيأخذ بما يدل عليه ولا يخرج عنها إلى ما يخالفها ، أو هو إشارة إلى ردع من يأخذ بالمتشابه ويترك المحكم ونحو ذلك ، والعلم عند الله. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) ما بين القوسين ساقط من الدار.

صدوقا فى الرواية ، ولكنه كان يخطئ كثيرا. وذكر له ابن عدى أحاديث غير هذا ثم قال: وله غير ما ذكرت ، ولم أر من حديثه إلا ما يُحتَمل. انتهى.

والحديث شاهد أخرجه مالك فى الموطأ(١) من رواية ابن عباس قال: "ما ظهر الغلول فى قوم إلا ألقى الله فى قلوبهم الرعب ، ولا فشا الزنا فى قوم قط إلا كثر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع الله عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا فيهم الدم(٢) ، ولا نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم العدو".

وأخرجه الطبرانى من وجه آخر عن ابن عباس مرفوعا إلى النبى ﷺ ، وفى سنده أيضا مقال(٣).

ولبعضه شاهد من حديث عمرو بن العاص أخرجه الطبرانى(٤) من رواية محمد بن راشد: أن رجلا حدثه: أنه سمع عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالفناء ، وما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسنة(٥) ، وما من قوم يظهر فيهم الرشا(٦) إلا أخذوا بالرعب". وفى سنده مع المبهم عبد الله بن لهيعة.

وله شاهد أحسن من هذا أخرجه الحاكم فى كتاب الجهاد من المستدرك(٧) من طريق بشير بن المهاجر ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم ، ولا ظهرت الفاحشة فى قوم قط إلا سلط الله عليهم الموت ، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر". وقال : صحيح على شرط مسلم. انتهى.

---

(١) الموطأ (٤٦٠/٢) ٢١ – كتاب الجهاد ، ١ – باب ما جاء فى الغلول.

(٢) إلا فشا فيهم الدم: لعل معناه القتل ؛ لأن كثرة الدم تنشأ عنه ، ويمكن أن يؤخذ منه إرادة الطاعون ؛ لأن الدم يثور به.

(٣) المعجم الكبير (٤٥/١١) ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦٥/٣): فيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزى لينه الحاكم ، وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام.

(٤) مجمع الزوائد (١١٨/٤).

(٥) بالسنة: بفتح المهملة والنون ، أى القحط. (منه رحمه الله تعالى).

(٦) الرشا: بضم الراء وبالمعجمة. (منه رحمه الله تعالى).

(٧) المستدرك (١٢٦/٢).

وقرأته على فاطمة بنت المنجا ، عن أبى الربيع بن قدامة ، أنا الحافظ ضياء الدين المقدسى ، أنا زاهر بن أبى طاهر وعبيد الله بن محمد اللَّفْتُوانى[1] قالا: أنا الحسين بن عبد الملك ، أنا عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازى ، أنا جعفر بن عبد الله بن فناكى[2] ، أنبا أبو بكر محمد بن هارون ، ثنا محمد بن إسحاق هو الصغانى.

(وقرأته عاليا على إبراهيم بن محمد بن صديق بالمسجد الحرام ، أن أحمد بن أبى طالب أخبرهم عن أحمد بن أبى السعادات ، أنا أبو الفتح بن البطى إجازة ، أنا أبو الفضل بن خيرون ، أنا أبو على بن شاذان ، أنا عبد الله بن إسحاق ، ثنا الحسن بن سلام.

قالا) [3]: ثنا عبيد الله بن موسى ، أنا بشير بن المهاجر به.

وأخرجه أبو يعلى من هذا الوجه ، وبشير أخرج له مسلم ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، وهو أصح طرق هذا الحديث ، وله علة غير قادحة ، أخرجه البيهقى فى الكبرى[4] من طريق عبد الله بن المبارك عن حسين بن واقد ، عن عبد الله بن بريدة ، عن ابن عباس ، ويحتمل أن يكونا محفوظين وإلا فهذه الطريق أرجح لاحتمال أن يكون بشير بن المهاجر سلك الجادة. وأخرج الحاكم [5] أيضا من وجه آخر عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ قال : " إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله تعالى".

وأخرج أحمد وأبو يعلى [6] عن ميمونة سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لاتزال أمتى بخير مالم يفش فيهم ولد الزنا ، (فإذا فشا فيهم ولد الزنا) [7] فيوشك أن يعمهم الله بعقاب ". وفى سنده محمد بن إسحاق وحديثه حسن ولا سيما فى المتابعات.

---

(١) اللَّفْتوانى: بفتح اللام ، وسكون الفاء ، وضم المثناة. (منه رحمه الله تعالى).
(٢) فناكى: بفتح الفاء ، وتخفيف النون ، وبعد الألف كاف ثم تحتانية. (منه رحمه الله تعالى).
(٣) ما بين القوسين ساقط من تركيا والهند.
(٤) السنن الكبرى (٣/٣٤٦).
(٥) المستدرك (٢/٣٧) وصححه ووافقه الذهبى.
(٦) المسند (٦/٣٣٣).
(٧) ما بين القوسين ساقط من الهند.

ووقع فى الترغيب للمنذرى أنه وقع عند أحمد بلفظ: "إذا فشا فيهم الزنا" فى الموضعين ، وعند أبى يعلى: "إذا فشا فيهم ولد الزنا" فى الموضعين ، وليس كما قال بل هو عند أحمد أيضا بلفظ: "ولد الزنا" وهما بمعنى ؛ فإن ولد الزنا مسبب عن الزنا والله أعلم.

وتقرير الإشكال من هذه الأحاديث: أن سياقها يقتضى أن الله أوقع الطاعون عقوبة لمرتكب المعصية ، فكيف يكون له شهادة ورحمة؟ والجواب: أنه لا منافاة بينهما ، فإن من رحمة الله تعالى بهذه الأمة المحمدية أنه عَجَّل لهم عقوباتهم فى الدنيا ، ففى حديث أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: "أمتى أمة مرحومة ، ليس عليها عذاب فى الآخرة ، عذابها فى الدنيا: الفتن والزلازل والقتل" أخرجه أبو داود بسند حسن(1).

وأخرجه الطبرانى(2) من رواية سليمان بن داود الخولانى: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول لأبى بردة: حدثْنا بحديث ليس بينك وبين أبيك فيه أحد؟ قال: سمعت أبى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أمتى أمة مقدسة مباركة مرحومة ، لا عذاب عليها يوم القيامة ، إنما عذابهم بينهم فى الدنيا". ورجاله ثقات.

وأخرج أبو يعلى من رواية حميد بن هلال عن أبى بردة ، عن رجل من المهاجرين قال : قال رسول الله ﷺ: "عقوبة هذه الأمة بالسيف". ورجاله ثقات.

وأخرج أبو يعلى أيضا بسند صحيح من رواية أبى مالك الأشجعى ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال: "إن هذه الأمة أمة مرحومة ، لا عذاب عليها إلا ما عذبت به أنفسها". قلت: وكيف تعذب أنفسها؟ قال: أما كان يوم النهر عذاب! أما كان يوم الجمل عذاب! أما كان يوم صفين عذاب!.

قلت: وهذا معنى حديث أبى موسى: "عذابها فى الدنيا الفتن والزلازل والقتل" ، فهو شاهد قوى له ، ومثله لا يقال بالرأى ، وهو محمول على معظم الأمة المحمدية لثبوت أحاديث الشفاعة: أن قوما يعذبون ثم يخرجون من النار ويدخلون الجنة.

(1) أبو داود (4/105) كتاب الفتن والملاحم ، باب ما يرجى فى القتل.
(2) مجمع الزوائد (10/70).

لكن الغرض أن كون الطاعون من انتقام الله تعالى بسبب هتك حرماته ، لا ينافى أن يكون شهادة ورحمة فى حق جميع من طعن ، لا سيما وأكثرهم لم يباشر الفاحشة المذكورة ، لكن لعلّه إنما عمهم العذاب لتقاعدهم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتخاذلهم عن نصيحة بعضهم بعضا ، أو تدنس ذوى العفة منهم بأنواع المعاصى غير الفاحشة ، حتى صارت كلمتهم لا تُسمع ، وموعظتهم لا تُقبل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وإما أن يكون لزيادة حسنات من لم يباشر الفاحشة ، ولم يُقَصِّر فيما يجب عليه من الأمر والنهى ، كما ثبت فى الحديث الآخر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمله ، فمازال يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها ". صححه ابن حبان، وله شاهد عند أبى داود من طريق محمد بن خالد عن أبيه عن جده [1].

فهذا جاء فيمن يكون له الطاعون شهادة ورحمة ، بخلاف غير هؤلاء فلا يكون لهم ذلك إلا مجرد عقوبة ، ومن ثَمّ تجد الكثير ممن اتّصف بالصفة المذكورة يشتد قلقه ، ويكثر تضجره وتكرهه ، ويتحيل بوجوه من الحيل فى دفعه بأنواع من الأشياء التى يقال إنها تدفعه ، كالرقى والخواتم والبخورات والعود التى تعلق فى رءوس وتكتب على الأبواب ، والتلبس بأنواع من الطيرة التى نهى الشارع عنها، والحمية عن كثير من المأكولات وغيرها ، وإحالة الأمر على الهواء والماء ، من غير نظر إلى سببه الحقيقى ومادته الصحيحة ، والتجنب لحضور الجنائز التى ترقق القلب وتستجلب الدمع ، وتؤثر الخشية وتورث الخشوع ، إلى غير ذلك مما يحرم صاحبه ثواب الصبر والاحتساب ، الذى رتبت الشهادة على حصوله ، وأكثرهم يموت بغير الطاعون فى زمن الطاعون ، فتفوته درجة الشهادة ، ويخرج من الحياة الدنيا راغما ، لكن من ختم له بالوفاة على الإسلام فقد حصلت له النجاة من الخلود فى النار ، ويتأيد الخبر المقتضى ، لأن أعظم أسباب الطاعون فشوًا الزنا ، كما تقدم فى آخر الباب الأول من قصة بلعم والله أعلم. ونجد كثيرا من أهل الخير بخلاف الصفة المذكورة وهم مراتب:

---

(١) ابن حبان "موارد الظمآن" (ص ١٧٩ ، ح ٦٩٣).
أبو داود (١٨٣/٣) كتاب الجنائز ، باب الأمراض المكفرة للذنوب.
والمسند(٢٧٢/٥).

- منهم من نجده مستبشرا كما وقع للسلف مثل معاذ وغيره.
- ومنهم من نجده مسلّما مفوّضا راضيًا ، وإن كان لا يحب أن يموت كما هو مركوز فى الطباع البشرية.
- ومنهم من يكون كذلك ، لكن يكون أسْرف على نفسه فهو خائف من أن يهجم عليه الموت قبل أن يتخلص من التبعات ، نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه.

وقد ظهر لى من كون ظهور الفاحشة سبب الطاعون - إن ثبت الخبر - جواب عن وصف الجن بأخوة الإنس ، وحمل الأخوة على أخوة الدين ، وهو أن يقال: حد الزانى البكر: الجلد ، والزانى المحصن : إزهاق النفس بصفة مخصوصة ، فلا يبعد أن يسلط مؤمنى الجن بإقامة الحد على الزانى بهذا الطعن ، فتزهق روح من أحصن ، وتعذب من لم يحصن مثلا ، أو يطرقون الإنس على هيئة المحاربة بسبب ما وقع منهم من إظهار الفاحشة بالفعل وترك الإنكار ، فإذا وقع الحرب وقع القتل عموما ، ثم يبعث المقتولون على نياتهم.

كما ثبت فى قصة الجيش الذى يخسف بهم ، كما أخرجه مسلم وأبو داود من حديث أم سلمة (١) .

ولأحمد(٢) بسند صحيح عنها ، عن النبى ﷺ: "إذا ظهرت المعاصى فى أمتى عمهم الله بعذاب من عنده". فقلت: يارسول الله! أما فيهم صالحون؟ قال: "بلى ، يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان".

(١) مسلم (٤/٢٢٠٩) ٥٢ - كتاب الفتن وأشراط الساعة ، ٢ - باب الخسف بالجيش الذى يؤم البيت. واللفظ له.

أبو داود (٤/١٠٨) كتاب المهدى ، حديث ١١.

عن عبيد الله بن القبطية قال: دخل الحارث بن أبى ربيعة وعبد الله بن صفوان ، وأنا معهما على أم سلمة أم المؤمنين فسألاها عن الجيش الذى يخسف به ، وكان ذلك أيام ابن الزبير. فقالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يعوذ عائذ بالبيت فيُبعث إليه بعث ، فإذا كان ببيْداء من الأرض خسف بهم" فقلت: يارسول الله! فكيف بمن كان كارها؟ قال: "يخسف به معهم ، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته".

(٢) المسند (٦/٣٠٤).

ولمسلم من حديث عائشة: "ثم يبعثهم الله على نياتهم"(١).

وأخرجه أحمد(٢) بنحو من سياق ما أخرج عن أم سلمة.

وللطبراني في الأوسط من حديث أم حبيبة نحوه وفيه: "ثم يبعث كل امرئ على نيته" ففي هذا أوضح البيان أن تسمية الطاعون عذابا ورحمة لا تنافي بينهما، لحمل كل من الوصفين على اعتبار غير الآخر ، ولا مانع أن يأذن الله لمؤمني الجن في عقوبة من شاء من الإنس بذلك ، وإن كان فيهم غير المذنب ، كما يقع الإذن لبعض الملائكة في خسف بلد من البلاد بمن فيها ، أو بإغراق سفينة عظيمة ، أو بإيقاع زلزلة عظيمة تخرب (منازل كثيرة ، ويموت في الهدم خلق كثير ، ثم تكون منازلهم في الآخرة شتى ، ولا ينسب) (٣) لمن تعاطى ذلك من الملائكة ولا مؤمني الجن معصية ، فيصح وصف الجن على هذا بالأخوة: أخوة الإيمان ، وحيث ورد بلفظ الأعداء فعلى ما تقدم ، والله أعلم.

ثم وجدت أصل هذا الجواب منقولا في جزء المنبجي المذكور ، ولفظه : يحتمل أن يكون تسلط مؤمني الجن على فُسّاق الإنس كالزناة المحصنين منهم وما أشبههم ممن صار دمه هدرا ، إذ لا يجوز لمؤمن الجن أن يقتل مؤمن الإنس عمدا بغير حق . انتهى كلامه.

وقد تقدم في الباب الثاني من كلام ابن القيم شيء من هذا ، والله أعلم .

* * * * *

* * *

*

---

(١) مسلم (٤/٢٢١١) نفس الموضع السابق.

(٢) المسند (٦/١٠٥).

(٣) ما بين القوسين ساقط من الرباط.

[الفصل العاشر]

ذكر كشف مشكل ما فى هذا الباب الثالث

قوله: كالخُزَّة: بضم المهملة، وتشديد الزاى، هى القطعة من اللحم قطعت طولا.

والمراق: تقدم تفسيره.

قوله: الخار: بمعجمة وراء مشددة، أى الساقط.

والمجنوب: هو الذى به علة ذات الجنب، وقد ذكر تفسيره.

قوله: عتيك: بمهملة ومثناة، وآخره كاف بوزن عظيم.

قوله: قضيت جِهازك: بكسر الجيم وبعد الألف زاى، أى: حاجة السفر، أى فرغت منها وأكملت الآلات فعاقك المرض.

قوله: بجُمْع: بضم الجيم، وسكون الميم، وعن الكسائى بكسر الجيم، أى: تموت وفى بطنها ولد، وهو بمعنى المجموع، كالدخر بمعنى المدخور، والمعنى أنها ماتت ومعها شئ مجموع فيها غير منفصل عنها، وقيل: هى التى تموت بكرا، وقد ذكرنا تأييد الوجه الأول فى الأصل.

قوله: أبو العميس: بمهملة مصغر وآخره مهملة، واسمه عتبة بن عبد الله.

قوله: السل: بكسر المهملة وتشديد اللام، مرض معروف.

قوله: بسُرره: بضم المهملة وبكسرها أيضا جمع سُرة بالضم، (وبفتح أوله : ما يقطع من السرة) (1).

قوله: أم حرام: بلفظ ضد حلال.

قوله: المائد: فسر فى الأصل.

قوله: عند أبى عِنَبة: بكسر المهملة وبفتح النون.

والخولانى: بفتح المعجمة وسكون الواو.

قوله: يضن بهم: بفتح التحتانية، والضاد المعجمة، الضن بالمعجمة الساقطة معناه البخل، والمراد به هنا: أنه سبحانه وتعالى لا يريد بهم ذلك.

قوله: قرف: بفتح القاف والراء، بعدها فاء، أى اكتسب.

قوله: ابن مسلم بن عائذ: بمهملة ثم تحتانية مهموزة ثم ذال معجمة.

---

(1) ما بين القوسين زيادة من الحرم.

قوله : همّار : بوزن عمّار.

قوله : إن يَلْقَوْا : بضم أوله وسكون اللام وفتح القاف وسكون الواو.

لا يلفتِون : بكسر الفاء.

يطّلعون : بتشديد الطاء.

قوله : شريح : بمعجمة وآخره مهملة مصغر.

وضمضم : بمعجمتين بوزن جعفر.

وإسماعيل بن عياش : بتحتانية ومعجمة.

ودحيم : بمهملة مصغر.

والفسوى : بفاء ومهملة.

قوله : العرباض : بكسر المهملة ، وسكون الراء ، وبعدها موحدة وآخره معجمة.

وسارية : بمهملة وبعد الألف راء ثم تحتانية خفيفة.

قوله : بحير : بفتح الموحدة وكسر المهملة ثم تحتانية ساكنة.

قوله : ابن أبى الفرات: بلفظ النهر المشهور.

وعبد الله بن بريدة : بموحدة وراء.

ويحيى بن يعمر : بتحتانية وزن جعفر.

قوله : الفتان : بفاء ثم مثناة ثقيلة ، أى: الملك الذى يسأل الميت فى قبره ، وقد فسره الحديث الذى بعده "ويؤمن فتنة القبر".

قوله : نعيم : بنون مصغر.

والمجمر: بضم الميم وسكون الجيم وكسر الميم.

قوله: عَمَوَاس : بفتح المهملة والميم وقد تسكن ، وتخفيف الواو ، وآخره مهملة ، اسم موضع بالشام ، وقيل لذلك الطاعون عمواس ؛ لأنه عم وواسى. وقرأت بخط ابن عساكر فى بعض روايات قصة عمر فى طاعون "عام مَواس" ، فإن كان محفوظا فلعل اسم الموضع "مواس" وأضيف العام إليه ، ثم أدغم ثم لكثرة الاستعمال خفف ، وكان طاعون عمواس سنة سبع عشرة ، وقيل: سنة ثمان عشرة ، والأول أصح ؛ فإن عام ثمانية عشر كان عام الرمادة ، وهى المجاعة التى كانت فى الحجاز ، ومات فيه خمسة وعشرون ألفاً ، وقيل : ثلاثون ألفاً.

قوله : الجارف : بجيم وآخره فاء ، سمى الطاعون بذلك لأنه جرف الناس كما يجرف السيل الأرض فيأخذ معظم ما فيها ، وفى سنة وقوع هذا الطاعون اختلاف كثير ، ذكره

النووى فى أوائل شرح صحيح مسلم ، أرجحه أنه فى العشر السابع ، إما سنة أربع أو سبع أو تسع وستين ، وكان بالبصرة ، ووقع بها أيضا طاعون سمى الجارف سنة سبع وثمانين ، وطاعون يقال له : طاعون غراب ، دون الجارف ، وعدة طواعين كانت بها.

وكان بالكوفة الطاعون الذى فر منه المغيرة بن شعبة فرجع فمات ، وهو سنة خمسين ، وقبله فى حياة أبى موسى الأشعرى ، وقبله فى حياة ابن مسعود، وكل ذلك بالكوفة.

وكان بمصر بعد سنة ثمانين.

وكان بالشام بعد طاعون عمواس عدة طواعين ، بعضها يتوالى ، حتى كان خلفاء بنى أمية يسكنون إذا قرب أوانه البوادى ، ولذلك أقام هشام منهم بالرصافة ، ويقال: إن بعض أمراء دمشق لبنى العباس خطب فقال: احمدوا الله الذى أذهب عنكم الطاعون منذ ولينا عليكم. فأجابه رجل جرئ من الشاميين فقال: ما كان الله ليجمعكم علينا والطاعون. وفى المثل: لا يكون الطاعون والحجاج.

ولم يقع فى الدنيا طاعون أعظم من الكائن فى القرن الثامن، فكان بالديار المصرية والشامية سنة تسع وأربعين ، وابتدأ قبل ذلك فى غيرهما فى سنة ثمان وأربعين فى ذى القعدة منها ، إلى أن ارتفع فى صفر سنة خمسين ، ولم يبق إقليم من الأقاليم السبعة حتى دخله فى هذه المدة.

وذكر الصفدى فى رسالة له: أنه وقف فى مرآة الزمان على نظيره ، فى سنة ثمان وتسع وأربعين وأربعمائة. وليس كما قال ، إنما هو نظيره فى الفناء لا خصوص الموت بالطاعون ، فإن سبب الذى ذكره صاحب المرآة الغلاء والقحط فكان الموت بالجوع.

ثم كان بالديار المصرية والشامية وغيرها عدة طواعين ليست فى العظم مثله ، والله يفعل ما يشاء ويختار.

قوله: ويتخيروا مما أنزل الله: هكذا وقع فى ابن ماجة ، ولست على ثلج [١] من ضبطها ، ولعله إشارة إلى أن الحاكم إذا لم يجد نصا لا يحكم بهواه ، بل يتأمل النصوص ، فيأخذ بما يدل عليه ولا يخرج عنها إلى ما يخالفها ، أو هو إشارة إلى ردع من يأخذ بالمتشابه ويترك المحكم ، ونحو ذلك ، والعلم عند الله.

(١) على ثَلَج: أي على ثقة واطمئنان.

قوله : إلا فشا فيهم الدم: لعل معناه القتل ؛ لأن كثرة الدم تنشأ عنه ، ويمكن أن يؤخذ منه إرادة الطاعون ، لأن الدم يثور به.

قوله : بالسنة : بفتح المهملة والنون ، أى : القحط.

قوله : الرُشا : بضم الراء وبالمعجمة.

قوله : اللَفْتُوانى : بفتح اللام وسكون الفاء وضم المثناة.

قوله : فناكى : بفتح الفاء وتخفيف النون وبعد الألف كاف ثم تحتانية.

* * * * *

* * *

*

الباب الرابع

فى حكم البلد التى يقع بها الطاعون والدخول إليها

[وفيه : أربعة فصول]

[الفصل الأول]

ذكر الزجر عن الخروج من البلد الذى يقع فيه فرارا منه

قال الله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وَهُمْ أُلوفٌ حَذَرَ الموتِ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ... ﴾ الآية [١].

قال عبد الرزاق فى تفسيره ، وأخرجه الطبرانى من طريق أخرى ، كلاهما عن معمر ، عن الحسن قال: فَرُّوا من الطاعون ، فقال لهم الله: موتوا ، ثم أحياهم ليكملوا بقية آجالهم. هذا لفظ الطبرانى.

ولفظ عبد الرزاق فى التفسير عن معمر عن الحسن وقتادة قالا : فروا من الطاعون ، فذكر مثله.

قال معمر : وقال الكلبي: كانوا ثمانية آلاف .

قال : وقال قتادة عن عكرمة: فروا من القتال .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق سعيد بن بشير عن قتادة قال: وقع الطاعون فخرج منهم الثلث وبقى الثلثان ، ثم أصابهم فخرج الثلثان وبقى الثلث ، ثم أصابهم فخرجوا كلهم ، فأماتهم (الله عقوبة .

وأخرج الطبرى[٢] من حديث أشعث عن الحسن قال: خرجوا فرارا من الطاعون ، فأماتهم الله) [٣] قبل آجالهم ، ثم أحياهم إلى آجالهم.

ومن طريق محمد بن إسحاق [٤] ، عن وهب بن منبه قال: كان حِزْقِيل [٥] بن بُورَى يقال له ابن العجوز ، وهو الذى دعا للقوم ﴿ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ الآية.

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٣.

(٢) جامع البيان (٥٨٩/٢).

(٣) ما بين القوسين ساقط من تركيا.

(٤) جامع البيان (٥٨٧/٢).

(٥) حِزْقِيل: بكسر الحاء المهملة ، وسكون الزاى ، وكسر القاف ، بعدها تحتانية ، ثم لام ، وأبوه بُورَى: بضم الموحدة وفتح الراء. (منه رحمه الله تعالى).

قال ابن إسحاق: فبلغنى أنهم خرجوا من بعض الأوباء من الطاعون ، أو من سقم كان يصيب الناس حذرا من الموت ، فذكر القصة.

وقال عبد بن حميد فى تفسيره: أنا روح بن عبادة ، عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة قال: مقتهم الله على فرارهم من الموت ، فأماتهم الله عقوبة ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ليتوفوها ، ولو كانت آجال القوم حانت ما بُعثوا بعد موتهم.

وقد أخرج ابن أبى حاتم هذه القصة مطولة من طريق أسباط ، عن السدى[1] ، عن أبى مالك فى هذه الآية قال: كانت قرية يقال لها: داوَرْدان قريبا من واسط ، فوقع فيهم الطاعون ، فأقامت طائفة منهم وهربت طائفة ، فَأُجْلُوا عن القرية ، ووقع الموت فيمن أقام منهم ، وأسرع فيهم وسلم الآخرون ، حتى إذا ارتفع الطاعون عنهم رجعوا إليها ، فقال الذين أقاموا: إخواننا كانوا أحزم منا ، فلو كنا صنعنا كما صنعوا كنا سَلِمْنَا ، ولئن بقينا حتى يقع الطاعون لنصنعنَّ مثل صنيعهم. فلما أن كان من قابل وقع الطاعون فخرجوا جميعا – الذين كانوا أجلوا والذين كانوا أقاموا ، وهم بضعة وثلاثون ألفا – فساروا حتى[2] أتوا واديا أفيح[3] فنزلوا فيه ، وهو بين جبلين ، فبعث الله إليهم ملكين ؛ ملكا بالوادى وملكا بأسفله ، فناداهم: أن موتوا فماتوا ، فمكثوا ما شاء الله ، ثم مر بهم نبى من الأنبياء يدعى هِزْقِيل[4] ، فرأى تلك العظام فوقف متعجبا لكثرة ما يرى منها ، فأوحى الله إليه أن ناد: أيتها العظام ، إن الله يأمرك أن تجتمعى. فاجتمعت العظام من أقصى الوادى وأدناه ، فالتزق بعضها ببعض ، كل عظم من جسد التزق بجسده ، فصاروا أجسادا من عظام ليس ثَمَّ لحم ولا دم ، ثم أوحى الله إليه ناد : أيتها العظام ، إن الله يأمرك أن تكتسى لحماً – يعنى فاكتست لحماً ، ثم أوحى الله إليه ناد: أيتها الأجساد ، إن الله يأمرك أن تقومى ، فبُعثوا أحياء ثم رجعوا إلى بلادهم ، فكانوا لا يلبسون ثوبا إلا كان عليهم كفنا [5] وسما يعرفهم أهل ذلك الزمان ، فأقاموا حتى أتت عليهم آجالهم بعد ذلك.

فهذا إسناد حسن مرسل.

(١) السُّدِّى: بضم السين وتشديد الدال المهملتين ، ثم ياء النسب. (منه رحمه الله).

(٢) من هنا إلى صفحة ٢٠٦ فى الباب الخامس ساقط من الهند.

(٣) واديا أفْيَح: بالفاء الساكنة ، ثم التحتانية بوزن أهيل ، أى: واسع. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) هِزْقِيل: هو الماضى (حِزْقِيل) ، لكن الهاء بدل الحاء المهملة لقرب المخرج. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) فى الحرم (طعنا).

وأبو مالك اسمه غزوان ، بالغين المعجمة المفتوحة والزاى الساكنة ، تابعى موثق ، والراوى عنه اسمه إسماعيل بن عبد الرحمن السدى ، وهو تابعى صغير من رجال مسلم.

وأخرجه الطبرى[1] من رواية السدى نحوه بطوله ولم يذكر أبا مالك ، وقال فيه: فلما رآهم وقف عليهم ، فجعل يتفكَّر فيهم ، ويلفت شدقه وأصابعه ، فأوحى الله إليه: ياحزقيل ، تريد أن أريك كيف أحييهم؟ قال: نعم. وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله تعالى عليهم.

وعندهما جميعا فى آخره: عن أسباط ، عن منصور بن المعتمر ، عن مجاهد: كان كلامهم حين بُعثوا أن قالوا: سبحانك ربَّنا وبحمدك ، لا إله إلا أنت. زاد الطبرى: فرجعوا إلى قومهم أحياء ، يعرفون أنهم كانوا موتى ، سِحْنة[2] الموت على وجوههم.

وأخرجه الطبرى[3] وابن أبى حاتم من طريق هلال بن يساف [4] نحوه بطوله ، ولكن لم يسمِّ النبى المذكور ولا العدد ، وفى حديثه: فقال الذين خرجوا: لو قمنا كما أقام هؤلاء لهلكنا كما هلكوا. وقال المقيمون: لو ظعنا كما ظعن هؤلاء لنجونا كما نجوا. وفيه: أن النبى لما مر بهم قال: يارب لو شئت أحييت هؤلاء فعمروا بلادك وعبدوك. فقال: أوَ أحَبُّ إليك أن أفعل؟ قال: نعم. قال: قل: كذا وكذا [5] (فتكلم به فنظر إلى العظام ، إن العظم ليخرج من عند العظم الذى ليس منه ، إلى العظم الذى هو منه ، ثم أمر بأمر فإذا العظام تكتسى لحما ، ثم أمر بأمر فإذا هم قعود يسبحون ويكبِّرون ، ثم قيل لهم : قاتلوا فى سبيل الله.

وأخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم أيضا من طريق النضر[6] أبى عمر الخزاز[7] ، عن عكرمة ، عن ابن عباس نحو رواية السدى عن أبى مالك ، والنضر ضعيف ، لكن إذا

---

(١) جامع البيان (٢/٥٨٧).

(٢) سِحْنَة: بكسر المهملة ، وسكون الحاء المهملة ، ثم نون ، أى: علامة. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) جامع البيان (٢/٥٨٩).

(٤) يَسَاف: بفتح التحتانية ، ثم مهملة خفيفة ، وآخره فاء. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) من هنا إلى ص ١٤١ ساقط من نسخة الرباط.

(٦) النضر: بالضاد المعجمة. (منه رحمه الله تعالى).

(٧) الخزاز: بمعجمات. (منه رحمه الله تعالى).

ضمت روايته إلى رواية أبي مالك قويت ، وله طريق أخرى عن ابن عباس بسند صحيح لكنهامختصرة.

قال الفريابي في تفسيره: ثنا سفيان - هو الثوري - وأخرجه الطبري(1) من طريق أبي أحمد الزبيري ووكيع ، عن سفيان ، عن ميسرة(2) النهدي(3) عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف ، خرجوا فرارا من الطاعون ، قالوا: نأتي أرضاً ليس فيها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا ، قال لهم الله : موتوا ، فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم.

وهكذا أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده ، وابن المنذر من طريقه عن وكيع.

وفي رواية أبي أحمد: أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم.

وقد أخرج عبد بن حميد والطبري(4) من طريق وهب بن منبه: أنهم كانوا أربعة آلاف وسمى النبي المذكور حزقيل.

وكذا أخرج الطبري(5) من طريق حَكَّام(6) بن عَنْبَسة(7) ، عن حجاج بن أرْطَأة : أنهم كانوا أربعة آلاف ، ومن طريق عطاء الخراساني(8) قال: كانوا أربعة آلاف أو أكثر. ومن وجه آخر(9) عن حكَّام بن عنبسة ، عن أشعث بن أسلم البصري قال: بينما عمر يصلي ويهوديان خلفه ، إذ قال أحدهما لصاحبه: أهو هذا؟ فلما انفتل سألهما ، فقالا: إنا نجد في كتاب الله قَرْنا (10) من حديد ، يُعطَى ما أُعْطِيَ حزقيل الذي أحيا الموتى بإذن

---

(1) جامع البيان (586/2).

(2) مَيْسَرة: بفتح الميم وسكون التحتانية بعدهما مهملة. (منه رحمه الله تعالى).

(3) النَّهْدي: بفتح النون وسكون الهاء. (منه رحمه الله تعالى).

(4) جامع البيان (586/2).

(5) جامع البيان (587/2).

(6) حَكَّام: بفتح المهملة ، وتشديد الكاف. (منه رحمه الله تعالى).

(7) عَنْبَسة: بفتح المهملة ، وسكون النون ، بعدها موحدة ثم مهملة. (منه رحمه الله تعالى).

(8) جامع البيان (587/2) ، غير أنه ورد بلفظ : ثلاثة آلاف أو أكثر ، وقد ذكرها الحافظ في ص 141 بمثل ما في جامع البيان .

(9) جامع البيان (586/2).

(10) قَرْنا: بفتح القاف وسكون الراء ، أي: حصن ، وأما بكسر القاف ، فمعناه: النظير. (منه رحمه الله تعالى).

الله. فقال عمر: ما نجد في كتاب الله حزقيل ، ولا أحيى الموتى بإذن الله إلا عيسى . فقالا: أما تجد في كتاب الله ﴿ ورسلا لم نقصصهم عليك ﴾ (١)؟ قال: بلى. قالا: فهو منهم ، وأما إحياء الموتى فسنحدثك : إن بني إسرائيل وقع فيهم الوباء ، فخرج منهم قوم حتى إذا كانوا على رأس ميل أماتهم الله ، فبنوا عليهم حائطا ، حتى إذا بَلِيَتْ عظامهم بعث الله حزقيل فقام عليهم فقال ما شاء الله ، فبعثهم الله له ، فأنزل الله في ذلك قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴾.

فهذه الروايات يشد بعضها بعضا ، وشذت روايات أخرى.

– إحداها: في السبب ؛ فأخرج الطبري(٢) من طريق جويبر(٣) عن الضحاك عن ابن عباس قال: يعني بالألوف: كثرة العدد ، أمروا أن يقاتلوا في سبيل الله ففروا من الجهاد ، فأماتهم الله ثم أحياهم ، وأمرهم أن يعاودوا الجهاد. وهذه طريق واهية ؛ فإن جويبر متروك ، والضحاك عن ابن عباس منقطع ، وقد رواه سُنَيْد (٤) ثم الطبري من طريقه من وجه آخر عن الضحاك نحو هذا ، وسُنَيْد فيه مقال.

والطرق الماضية من أن فرارهم كان بسبب الطاعون أقوى مخرجا وأحسن طرقا.

– ثانيها: في المدة التي بين إماتتهم وإحيائهم ؛ فنقل القرطبي أن المدة كانت سبعة أيام ، وقيل: ثمانية ، وقيل: شهر ، وقيل: أكثر من شهر. وظاهر الأخبار الماضية أن المدة كانت فوق ذلك ، بحيث بليت أجسادهم ، وتمزقت أوصالهم ، وصاروا عظاما.

وقد أخرج الطبري(٥) وابن المنذر من طريق عمرو بن دينار بسند صحيح إليه قال في قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ (٦) الآية ، قال: وقع الطاعون في قريتهم ، فخرج ناس وبقي ناس ، فهلك الذين بقوا (في القرية وبقي آخرون ، ثم

---

(١) سورة النساء: ١٦٤.
(٢) جامع البيان (٢/٥٨٦).
(٣) جُوَيْبِر: بجيم ، وموحدة ، ثم راء ، مصغر. (منه رحمه الله تعالى).
(٤) سُنَيْد: بمهملة ، ثم نون ، مصغر. (منه رحمه الله تعالى).
(٥) جامع البيان (٢/٥٨٩).
(٦) إلى هنا ينتهي السقط من نسخة الرباط ، وأوله في ص ١١٣٨.

وقع الطاعون ، فخرج ناس أكثر مما خرج أولا وبقي ناس ، فهلك الذين بقوا) (١) ، فلما كانت الثالثة خرجوا بأجمعهم إلا قليلا ، فأماتهم الله ، ثم أحياهم ، فرجعوا إلى بلادهم وقد توالدت ذريتهم ممن تركوا بها ، فصار يقول بعضهم لبعض: من أنتم ؟!

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج ، عن ابن عباس قال: لما وقع الطاعون وخرجوا ، انتظرهم أهاليهم فلم يرجعوا ، فركبوا فوجدوهم موتى ، فعجزوا عن دفنهم ، فَحَظَرُوا (٢) عليهم جدارا ، ثم بعثهم الله بعد زمان لا يفقد رجل منهم عقالا مما كان معه فما فوقه ، فدخلوا بلدهم ، فجعل الرجل منهم يأتي مسكنه فيجد فيه ابنه أو ابن ابنه أو أسفل من ذلك فيقول: هذا مسكني. فيقول الآخر: ليس بمسكنك ، ولكنه مسكني ومسكن آبائي. فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان حتى يلقاه. وهذا منقطع. وعن ابن جريج قال: وقال آخرون: فروا من الطاعون فحظروا عليهم حظارا ، وقد أَرْوَحَتْ (٣) أجسادُهم وأنتنوا (٤) ، فإنها لتوجد اليوم تلك الريح من ذلك السبط من اليهود.

فالحاصل: أن في ذلك دلالة على طول المدة التي بين الإماتة والإحياء ؛ والله أعلم.

– ثالثها: في عدتهم ؛ فمعظم الروايات السابقة أنهم كانوا أربعة آلاف ، ولا تخالفها رواية عطاء الخراساني ثلاثة آلاف أو أكثر لما لا يخفى ، وتقدمت رواية فيها ستة آلاف.

وعن مقاتل والكلبي: كانوا ثمانية آلاف.

وأخرج الطبري من طريق أبي صالح عن أم هانئ: تسعة آلاف.

وعن أبي روق: كانوا عشرة آلاف حكاه الثعلبي عنه.

وقيل: كانوا ثلاثين ألفا ، حكاه الثعلبي عن أبي مالك.

وقيل: بضعة وثلاثين ألفا. قاله السدي ، وحكاه الثعلبي أيضا عن ابن جريج.

وقيل: أربعين ألفا.

وقيل: سبعين ألفا.

وقيل: ثمانين ألفا.

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من تركيا.

(٢) فحظروا: بحاء مهملة وظاء معجمة ، والحظائر جمع حظيرة ، وهو كالحوش عليه حائط بغير باب. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) أَرْوَحَت: بحاء مهملة ، أي: تغيّرت.

(٤) وأنتنوا: بنون ومثناة ، من النتن. (منه رحمه الله تعالى).

وقيل: تسعين ألفا.

وقيل: ستمائة ألف. حكاها الثعلبي ثم القرطبي.

قال الطبري: وَأَوْلَى الأقوال بالصواب في قوله تعالى: ﴿ وهم ألوف ﴾ قول من قال في عددهم: أزيد من عشرة آلاف، بخلاف قول من قال: دون ذلك؛ لأن الألوف جمع كثرة، لا يقال للعشرة فما دونها، وإنما يقال آلاف. انتهى. وتبعه جماعة من المفسرين على ذلك.

وأجاب جماعة من المحققين: أنه لا يمتنع إطلاق لفظ جمع الكثرة على مثل ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ ثلاثة قروء ﴾ [1]، ولما كان المقام يقتضي التكثير عبر بذلك، لأن قرينة السياق ترشد إلى المراد، مع أن أصح الطرق الواردة في ذلك قول ابن عباس: أربعة آلاف، وقول السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألفا، وسائر الأقوال غير هذين فيها مقال، والجمع بين القولين المذكورين ممكن، بأن يحمل العدد الأقل على رؤسائهم وأشرافهم، والعدد الأكثر بانضمام الأتباع إليهم. والله أعلم.

– رابعها: اتفقت الروايات كلها؛ قويها وضعيفها، على أن المراد بالألوف العدد، إلا ما أخرجه الطبري[2] عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال في قوله تعالى: ﴿ وهم ألوف ﴾: ليست الفرقة بل قلوبهم مؤتلفة، إنما خرجوا فرارا. فاقتضى كلامه أنه جمع آلف، مثل جلوس وجالس وشهود وشاهد.

قال الطبري: قول الجماعة أولى بالصواب. وقال الزمخشري: هو من بدع التفاسير.

وقال ابن عطية: القصص في ذلك كلها لينة الأسانيد، والحاصل منها: وقوع الفرار من الموت من قوم أماتهم الله ثم أحياهم، ليظهر أنه لا يفيد خوف الخائف ولا اغترار المغتر. انتهى.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا القول ضعيف؛ لأن ورود الموت عليهم وهم في كثرة عظيمة يفيد مزيد اعتبار بحالهم؛ لأن موت جمع عظيم دفعة واحدة – لم تَجْرِ

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٢) جامع البيان (٢/٥٨٨).

العادة به – يفيد وقوعه الاعتبار العظيم ، وأما وقوع الموت على قوم بينهم ائتلاف ومحبة فهو كوروده على قوم بينهم اختلاف ؛ لأن وجه الاعتبار لا يختلف.

وأجاب الفخر الرازي : بأنه يمكن أن يكون المراد أن كل واحد منهم كان ألفا لحياته محبا لهذه الدنيا ، فيرجع حاصله إلى ما قال الله تعالى ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ (١) ، وأنهم مع غاية حبهم للحياة وإلفهم لها أماتهم الله تعالى ، ليعلم أن الحرص على الحياة لا يعصم من الممات. انتهى.

وتعقبه القاضي تاج الدين السبكي فى الجزء الذي جمعه في الطاعون: بأن إيراد القاضي أبي بكر باقٍ على حاله ، وليس فيما ذكره الإمام الفخر جواب عنه ؛ لأنه لا يقع الاعتبار العظيم الخارق للعادة بكون كل واحد منهم ألفا لحياته محبًا لها ؛ لأن ذلك موجود في كل ميت منهم ومن غيرهم ، بخلاف موت الطائفة العظيمة دفعة واحدة . انتهى.

ويظهر لي في جواب إيراد القاضي وتوجيهه قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم توجيه آخر وهو: أن المراد أنهم كان رأيهم اجتمع على الفرار المذكور ؛ لأنه يجوز في نفس الأمر أن يكون بعضهم كان لا يرى الفرار ، وإنما خرج مع من خرج بغير اختياره مثلا ، أو لتردده في كون ذلك صوابا أو خطأ ، فأفاد الوصف بأنهم كانوا تواربوا على هذا المعتقد ، فلذلك عوقبوا جميعهم بذلك ، فيفيد الاعتبار بحالهم ، وأنه لا ينبغي المسارعة إلى تقليد الرؤساء في مثل ذلك ، مع أن القائل المذكور لم يَنْفِ العدد ، ثم إن اللفظ محتمل للمعنيين ، فما المانع من حمله عليهما عند من يجيز ذلك ؟!

– خامسها: قال الإمام أبو بكر الرازي في أحكام القرآن: دلت الآية على أن الله تعالى كره فرارهم من الطاعون ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ قل لن ينفعكم الفِرارُ إن فَرَرْتُم من الموت أو القتل ﴾ (٣) ، وقوله تعالى: ﴿ أينما تكونوا يُدْرِكُّم الموتُ ولو كنتم في بروج مُشَيَّدَة ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿ قل إن الموت الذي تَفِرُّون منه فإنه ملاقيكم ﴾ (٤) .

---

(١) سورة البقرة : ٩٦ .

(٢) سورة الأحزاب : ١٦ .

(٣) سورة النساء : ٧٨ .

(٤) سورة الجمعة : ٨ .

[الفصل الثاني]

ذكر قصة عمر في رجوعه من طريق الشام لما بلغه أن الطاعون بها.
والبيان الواضح أن ذلك ليس من الفرار من الطاعون ، ولا مخالفا لما دلت عليه الأخبار الواردة في ذلك

ذكر سيف في الفتوح عن مشايخه: أن الطاعون وقع بالشام في المحرم وصفر ، ومات فيه الناس ، ثم ارتفع ، فكتبوا إلى عمر بذلك فخرج حتى إذا كان قريبا من الشام بلغه أنه أشد ما كان ، فقال الصحابة: قال رسول الله ﷺ : "إذا كان بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا عليكم". فرجع عمر حتى ارتفع الطاعون منها.

وأخرج الطحاوي في معاني الآثار بسند صحيح عن أنس أن عمر (أتى الشام) [1] فاستقبله أبو طلحة وأبو عبيدة بن الجراح ، فقالا: يا أمير المؤمنين ، إن معك وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وخيارهم ، وإنا تركنا من بعدنا مثل حريق النار - يعني الطاعون - فارجع العام ، فرجع ، فلما كان العام المقبل جاء فدخل.

وقد وقعت لنا قصة عمر المذكورة مسندة مطولة.

أخرج مالك والبخاري ومسلم[2] من طريق مالك وغيره ، عن ابن شهاب ، عن عبدالحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بِسَرْغ[3] ، لقيه أمراء الأجناد ؛ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد

---

(١) في بعض النسخ (أتى من الشام) وهو خطأ .

(٢) الموطأ (٢/٨٩٤) ٤٥ - كتاب الجامع ، ٧ - باب ما جاء في الطاعون.
البخاري (١٠/١٧٩) ٧٦ - كتاب الطب ، ٣٠ - باب ما يُذكر في الطاعون.
مسلم (٤/١٧٤٠) ٣٩ - كتاب السلام ، ٣٢ - باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.

(٣) سَرَغ: وهو بفتح المهملة والراء ، وقد تسكن ، ثم غين معجمة ، وقد ذكر البكري في المعجم أنها مدينة افتتحها أبو عبيدة هي واليرموك والجابية متصلة ، وقال ابن وضاح: بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة . (منه رحمه الله تعالى).

وقع بالشام ، قال ابن عباس: فقال لي عمر بن الخطاب: ادع لي المهاجرين الأولين . فدعوتهم ، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم (:قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه. وقال بعضهم) (١) : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. فقال عمر: ارتفعوا عني. (ثم قال: ادع لي الأنصار. فدعوتهم ، فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال: ارتفعوا عني.) (٢) ثم قال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح. فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء. فنادى عمر في الناس: إني مُصْبِح على ظَهْر. فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيدة – وهو إذ ذاك أمير الشام: أفرارا من قَدَر الله! فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة – وكان عمر يكره خلافه – نعم ، نَفِرّ من قَدَر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل كثيرة ، فهبطت واديا له عدوتان(٣) ، إحداهما خَصْبَة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخَصْبَة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ، وكان متغيبًا في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا العلم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا(٤) عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارا منه". قال: فحمد الله عمر ، ثم انصرف.

زاد ابن خزيمة في رواية له من طريق مالك: ثم انصرف بالناس. وأخرجه مسلم من رواية معمر عن ابن شهاب ، قال: نحو رواية مالك. قال: وزاد في رواية معمر(٥): وقال له أيضا: أرأيت لو أنه رعى الجدبة وترك الخصبة أكنت مُعَجِّزَه؟ (٦) قال:نعم. قال: فَسِرْ إذا. قال: فسار حتى أتى المدينة ، فقال: هذا المحل – أو هذا المنزل – إن شاء الله.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الرباط.

(٢) ما بين القوسين ساقط من تركيا.

(٣) عِدْوَتان: بعين مهملة مكسورة وتضم أيضا ، أي: جانبان. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) فلا تقدموا: بفتح أوله من القدوم ، وهو الأشهر ، ويُروى بضم أوله من الإقدام. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) مسلم (١٧٤١/٤) ٣٩ – كتاب السلام ، ٣٢ – باب الطاعون والصيرة والكهانة ونحوها.

(٦) أكنت مُعَجِّزَه: بالتشديد من العجز: أي يُنْسَبُه إلى العجز ، والمعنى: إن الناس رعيتي فيجب عليّ الاحتياط لها ، فإن تركته نُسِبْت إلى العجز ، كما يُنْسَب راعي الإبل إذا رعاها في المكان الجدب مع قدرته على رعيها في المكان الخصب ، والله أعلم. (منه رحمه الله تعالى).

وأخرجه[1] من رواية يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب قال: نحو رواية مالك ومعمر ، إلا أنه قال: عبد الله بن الحارث ، (ولم يقل عبد الله بن عبد الله بن الحارث ،) [2] وقول مالك ومن تابعه أصح. انتهى كلام مسلم.

وقد ساق ابن خزيمة رواية يونس وأولها: أن عبد الله بن عباس حدثه: أنه كان مع عمر بن الخطاب حين خرج إلى الشام فرجع بالناس من سرغ ، لقيه أمراؤه على الأجناد ، ولقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، وقد وقع الوجع بالشام فقال : اجمع لي ... فذكر القصة وفيها: وقال بعضهم: إنما هو قدر الله. وفيها: فأمرهم فخرجوا عنه ، وقال في الحديث: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال: فإني ماضٍ لما أرى فانظروا ما آمركم به فامضوا له. قال: فأصبح على ظهر فركب عمر ثم قال للناس: إني راجع. وقال فيه بعد قوله بقدر الله: ثم خلا بأبي عبيدة فتراجعا ساعة ، فجاء عبد الرحمن. وقال في آخره: فحمد اللهَ عمرُ ، فرجع فأمر الناس أن يرجعوا.

وعبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل المذكور في هذا الحديث ، نوفل جد أبيه هو ابن عم النبي ﷺ ، وهو نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن عبد الله اسمه اسم أبيه ، ويكنى أبا يحيى ، تابعي وثّقه النسائي وابن سعد والعجلي وآخرون ، ومات سنة تسع وتسعين من الهجرة ، وأبوه يكنى أبا محمد ولقبه: بَبَّه ، بموحدتين مفتوحتين ، الثانية ثقيلة ، ولد في عهد النبي ﷺ وحنكه فَعُدَّ في الصحابة لذلك ، وهو من حيث الرواية تابعي ثقة عند الجميع ، ومات سنة أربع وثمانين من الهجرة ، والمحفوظ في حديث الباب أنه عن ولده كما قال مالك ومن تابعه لا عنه كما قال يونس ، وقد حكى ابن عبد البر : أن بعض الرواة عن مالك قال : عبد الله بن عبد الله بن الحارث عن أبيه . قال : وقوله عن أبيه زيادة.

(قلت : وأخرجها الدارقطني في الموطآت وفي الغرائب من طريق إبراهيم بن عمر بن أبي الوزير عن مالك.) [3]

---

(١) مسلم (١٧٤٢/٤) ٣٩ – كتاب السلام ، ٣٢ – باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.

(٢) ما بين القوسين سقط من الرباط.

(٣) ما بين القوسين سقط من تركيا.

وقد (١) خالف الجميع هشام بن سعد فقال: عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن: أن عمر حين أراد الرجوع من سرغ استشار الناس، فقالت طائفة منهم أبو عبيدة بن الجراح: أمِنَ الموت نفر، إنما نحن بقدر، لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا؟! فقال عمر: يا أبا عبيدة، لو كنت بوادٍ إحدى عدوَتَيْه مخصبة والأخرى مجدبة، أيهما كنت ترعى؟ قال: المخصبة. قال: فإنا إن تقدمنا فبقدر الله، وإن تأخرنا فبقدر الله، وفي قَدَرٍ نحن.

أخرجه الطحاوي، وهشام بن سعد صدوق في حفظه شيء، فإن كان حَفِظَه احتمل أن يكون لابن شهاب فيه شيخ آخر. وقد أخرجه ابن خزيمة من وجه آخر، عن هشام بن سعد، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه: أن عمر حين خرج إلى الشام سمع بالطاعون فتكركر(٢) عنه، فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لَسَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: "إذا سمعتم به قد وقع بأرض فلاتدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا فرارا منه". فرجع عمر عن حديث عبد الرحمن بن عوف.

وقد شذ هشام بن سعد فيه، والمحفوظ أن أول هذا من رواية ابن شهاب عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عامر، عن عبد الرحمن بن عوف وعمر، وآخره من قول سالم.

تنبيه :

مراجعة أبي عبيدة لعمر في إرادته الرجوع معارضة في الظاهر لحديث أنس المذكور أولا، في أن أبا عبيدة وأباطلحة أشارا على عمر بالرجوع، ويمكن الجمع بأن يكون أبا عبيدة أشار أولا بالرجوع، ثم غلب عليه مقام التوكل لما رأى الكثير من المهاجرين والأنصار جنحوا إليه، فرجع عن رأي الرجوع فناظر عمر في ذلك، فلما أقام عليه الحجة تبعه، ثم جاء عبد الرحمن بن عوف بالنص فرجعوا أجمعين إليه.

---

(١) في الحرم والدار (وقال: وقد) وعلى ذلك يكون الكلام للدارقطني، وإلا فكلام الحافظ فليتأمل.
(٢) فتكركر: أي: رجع (منه رحمه الله تعالى).

طريق أخرى لخبر عبد الرحمن بن عوف :

أخرج مالك والشيخان(١) أيضا من طريقه ، عن ابن شهاب ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة : أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، فلما جاء سرغا بلغه أن الوباء قد وقع بالشام ، فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: " إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ". فرجع عمر من سرغ.

وعن ابن شهاب عن سالم : أن عمر إنما انصرف بالناس عن حديث عبد الرحمن بن عوف.

(وأخرجه الدارقطني في الغرائب من رواية جويرية بن أسماء ، عن مالك ، وزاد في آخره: عن رسول الله ﷺ: أنه نهى أن يقدم عليه إذا سمع به ، وأن يخرج عنه إذا وقع بأرض هو بها) (٢) وقد ظن بعض الناس أن هذه الرواية تخالف الرواية الأولى ، وليس كذلك ؛ بل دلت هذه الرواية أن عمر كان رجح عنده الرجوع لما قال للناس : إني مصبح . لكن لم يجزم بذلك ، فلما أخبره عبد الرحمن بن عوف بما وافق اجتهاده حمد الله على ذلك.

فمعنى قول سالم : أنه لولا أن عبد الرحمن بن عوف أخبره عن النبى ﷺ بالحديث لاستمرّ متردّدا في الرجوع وعدمه ، فلذلك نسب سبب رجوعه إلى حديث عبد الرحمن بن عوف ؛ لأنه العمدة في ذلك ، وإن كان الاجتهاد قد سبق على وفقه ، وهذا مما ينبغي أن يضاف إلى موافقات عمر رضي الله عنه.

وقد تقدم في الباب الأول لحديث عبد الرحمن بن عوف طريق أخرى .

---

(١) الموطأ (٢/٨٩٦) ٤٥ - كتاب الجامع ، ٧ - باب ما جاء في الطاعون.
البخاري (١٠/١٧٩) ٧٦ - كتاب الطب ، ٣٠ - باب ما يُذكر في الطاعون.
مسلم (٤/١٧٤٢) ٣٩ - كتاب السلام ، ٣٢ - باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.
(٢) ما بين القوسين ساقط من تركيا.

وأخرج الكلاباذي في معاني الأخبار من طريق محمد بن إسحاق ، عن محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة ، عن سالم بن عبد الله بن عمر - أراه عن أبيه - عن عبد الرحمن بن عوف : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا سمعتم الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم فيه ، فلا تخرجوا فرارا منه ، لا يخرجكم إلا ذلك".

تنبيـــه :

أورد الغزالي في الإحياء قصة عمر إيراداً مستغربا ، فيه مخالفة للطرق التي تقدم ذكرها ، فإنه قال: رُوي عن عمر والصحابة أنهم لما قصدوا الشام ، وانتهوا إلى الجابية وبلغهم الخبر أن بها موتا ذريعاً ، ووباءً عظيماً ، فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم : لا ندخل على الوباء فنلقي بأيدينا إلى التهلكة . وقالت الطائفة الأخرى : بل ندخل ونتوكل ، ولا نهرب من قدر الله ولا نفر من الموت ، فنكون مثل (ما) (١) قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾.
ثم ارتفعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه في ذلك فقال: نرجع ولا ندخل. فقال له المخالفون في رأيه: أنفِر من قدر الله؟ فقال عمر: نعم ، نفر من قدر الله إلى قدر الله.
ثم ضرب لهم مثلا فقال: أرأيتم لو كان لأحدكم غنم نزل بها واديا له عدوتان ... فذكره .
قال : ثم طلب عبد الرحمن بن عوف يسأله عن رأيه وكان غائبا ، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن بن عوف فسأله عن ذلك ، فقال: عندي فيه شيء سمعته من رسول الله ﷺ. فقال عمر: الله أكبر. فقال عبد الرحمن بن عوف: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ... فذكر الحديث. قال: ففرح عمر بذلك رحمه الله تعالى ؛ إذ وافق رأيه الخبر ، ورجع بالناس من الجابية . انتهى .

وهذا السياق لهذه القصة لم أره في شيء من كتب الحديث ، ولا الفتوح ، مع مزيد التنقيب والبحث ، فإن كان مرويا على هذه الصورة ، فهو شاذ لمخالفته الطرق الصحيحة فيما خالف من ذلك ، وإنما أوردته لأنبه عليه للفائدة ، والله أعلم.

---

(١) في الرباط وتركيا والدار (من).

ذكر الأخبار الموافقة لحديث عبد الرحمن بن عوف في ذلك :

جاء من حديث أسامة بن زيد - وهو أشهرها - ومن حديث سعد بن أبي وقاص ، وخزيمة بن ثابت ، وزيد بن ثابت ، وجد عكرمة بن خالد ، وشرحبيل بن حسنة وأم أيمن.

قال الترمذي (١): حدثنا قتيبة بن سعد ، ثنا حماد بن زيد ح.

وقال ابن خزيمة: ثنا عبد الجبار بن العلاء ، ثنا سفيان - هو ابن عيينة - كلاهما عن عمرو - هو ابن دينار - عن عامر بن سعد - أي ابن أبي وقاص - قال : جاء رجل إلى سعد يسأله عن الطاعون ، وعنده أسامة - هو ابن زيد بن حارثة ، فقال أسامة: أنا أخبرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن هذا الطاعون عذاب أرسِل على من كان قبلكم - أو على طائفة من بني إسرائيل - يجئ أحيانا ويذهب أحيانا ، فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ، وإذا سمعتم بأرض قد دخلها فلا تدخلوا عليه". لفظ ابن خزيمة.

وأخرجه مسلم من روايتي حماد وابن عيينة ولم يسق لفظه (٢).

وأخرجه أيضا من رواية ابن جريج عن عمرو بن دينار ، وقال في روايته : " فلا تدخلوا عليه ، وإذا دخلها عليكم فلا تخرجوا منها فرارا " (٣).

وأخرجه ابن خزيمة من طريق محمد بن ثابت ، عن عمرو بن دينار ، عن عامر بن سعد ، عن أسامة: أن رسول الله ﷺ ذكر عنده الطاعون فقال : " إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها ، وإذا كان فيها وأنتم بها ، فلا تفروا منه ، فإنه رجز سلِّط على طائفة من بني إسرائيل " .

وأخرج مالك في الموطأ والشيخان والنسائي من طريقه(٤) ، ومسلم أيضا من طريق

---

(١) الترمذي (٣/٣٦٩) ٨ - كتاب الجنائز ، ٦٦ - باب ما جاء في كراهية الفرار من الطاعون.
(٢) مسلم (٢/١٧٣٨) ٣٩ - كتاب السلام ، ٣٢ - باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.
(٣) نفس الموضع السابق.
(٤) الموطا (٢/٨٩٦) ٤٥ - كتاب الجامع ، ٧ - باب ما جاء في الطاعون.
البخاري (٦/٥١٣) ٦٠ - كتاب أحاديث الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان.
مسلم (٢/١٧٣٨) ٣٩ - كتاب السلام ، ٣٢ - باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.
النسائي في السنن الكبرى ، كما في تحفة الأشراف (١/٤٦).

سفيان الثوري ومغيرة بن عبد الرحمن(١) ، كلهم عن محمد بن المنكدر ، زاد مالك(٢) : وسالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله ، كلاهما عن عامر بن سعد: أنه سمع أباه يسأل أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: "الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل - أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه".

قال أبو النضر: " لا يخرجكم إلا فرارا منه" (٣) . لفظ مالك.

وفي رواية النسائي من طريق ابن القاسم عنه: "لا يخرجنكم إلا الفرار منه". وفي رواية مغيرة بن عبد الرحمن: "الطاعون ، إنه الرجز ، أبلى الله به ناسا من عباده". وقال في آخره: "ولا تفروا منه".

ورواية سفيان الثوري مثل رواية عمرو بن دينار الماضية ، لكن لم يقل: "يذهب أحيانا ويجئ أحيانا". وقال: "رجز سلّط".

وأخرج البخاري في ترك الحيل من صحيحه (٤) ، من طريق شعيب ، عن الزهري ، عن عامر بن سعد: أنه سمع أسامة بن زيد يحدث سعدا ... فذكر الحديث ، وفيه: "من سمع به بأرض فلا يقدمنّ عليه ، ومن كان بأرض وقع بها فلا يخرج فرارا منه".

وأخرجه مسلم من طريق يونس ، عن الزهري ، أخبرني عامر بن سعد به . ولم يقل : يحدث سعدا . فذكر الحديث (٥) .

وهكذا رواه عامة أصحاب الزهري عنه ، وخالفهم عبد الرحمن بن إسحاق فقال : عن الزهري ، عن عامر بن سعد ، عن زيد بن ثابت مقتصرا على قوله : " إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها " . وعبدالرحمن سيئ الحفظ ، والمحفوظ قول الجماعة . وأخرجه مسلم أيضا من طريق

(١) مسلم: نفس الموضع السابق.
(٢) الموطأ: نفس الموضع السابق.
(٣) قال أبو النضر: " لا يخرجكم إلا فرارا منه " ، في هذا التركيب إشكال ، ولهذا عزاه مالك لأبي النضر ، وقد وجهوه بأن التقدير: لا يخرجكم شيء إلا الخروج فرارا منه. (منه رحمه الله تعالى).
(٤) البخاري (٣٤٤/١٢) ٩٠ - كتاب الحيل ، ١٣ - باب ما يُكرَه من الاحتيال في الفرار من الطاعون.
(٥) مسلم (١٧٣٨/٤) ٣٩ - كتاب السلام ، ٣٢ - باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.

شعبة [١] ، عن حبيب بن أبي ثابت قال: كنا بالمدينة فبلغنا أن الطاعون قد وقع بالكوفة ، فقال لي عطاء بن يسار وغيره: إن رسول الله ﷺ قال: "إذا كنت بأرض فوقع بها فلا تخرج منها ، وإذا بلغك أنه بأرض فلا تدخلها". فقلت: عمن؟ قالوا: عن عامر بن سعد يحدث به. فأتيته ، فقالوا: غائب. فلقيت أخاه إبراهيم بن سعد فسألته ، فقال: شهدت أسامة يحدث سعدا قال: سمعت رسول الله ﷺ: فذكر نحو حديث أبي النضر ، ولم يذكر الفرار.

وأخرجه مسلم من طريق الأعمش[٢] ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن إبراهيم بن سعد ، عن سعد وأسامة. ومن طريق الشيباني[٣] ، عن حبيب ، عن إبراهيم ، عن أبيه (وجده)[٤].

ورويناه في مستخرج أبي نعيم من هذا الوجه ولفظه: "إن هذا الوجع – يعني الطاعون – رجز أنزل على من كان قبلكم ، فإذا أخذ بأرض ولستم بها فلا تدخلوها حتى يقلع ، وإذا أخذ بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها". وتقدمت الإشارة إليه في الباب الأول.

وأخرجه مسلم أيضا[٥] وأحمد[٦] من طريق سفيان الثوري عن حبيب ، عن إبراهيم ، عن سعد وأسامة وخزيمة بن ثابت. قال مسلم: بمعنى حديث شعبة. وقد تقدم بعضه في الباب الأول مع بعض الطرق المذكورة ، وبينت أنه يحتمل أن يكون سعد كان نسي الحديث ، ثم تذكره لما حدثه به أسامة.

وساقه أحمد وقال فيه: "فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه ، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تدخلوها".

وقد رواه يحيى بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه[٧].

---

(١) مسلم (١٧٣٩/٤) ٣٩ – كتاب السلام ، ٣٢ – باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.
(٢) مسلم: نفس الموضع السابق.
(٣) مسلم (١٧٤٠/٤) في الكتاب والباب السابقين.
(٤) هكذا في كل النسخ وهي زائدة.
(٥) مسلم (١٧٣٩/٤) ٣٩ – كتاب السلام ، ٣٢ – باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.
(٦) المسند (١٨٢/١).
(٧) المسند (١٧٣/١ ، ١٧٦).

قال أحمد[1] : حدثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن سعد ، عن سعد ، عن النبي ﷺ أنه قال في الطاعون: "إذا وقع بأرض فلا تدخلوها ، وإذا كنتم بها فلا تفروا منه". قال شعبة: وحدثني هشام أبو بكر - يعني الدستوائي : أنه عكرمة بن خالد.

وأخرجه ابن خزيمة من حديث شعبة وقال في آخره: وحدثني هشام الدستوائي أنه عكرمة بن خالد.

قلت: إنما قال شعبة هذا ؛ لأن قتادة معروف بالرواية عن عكرمة مولى ابن عباس ، وكأنه لما حدث به شعبة لم ينسب عكرمة ، ولما حدث به هشاما نسبه ، واعتنى شعبة بتبيين نسب عكرمة ولم (يعتن بتبيين) [2] اسم ابن سعد ، وقد بيّن هشام الدستوائي أيضا أنه يحيى ، أخرجه ابن خزيمة من طريق معاذ بن هشام ، عن أبيه ، عن قتادة ، عن عكرمة بن خالد ، حدثنى يحيى بن سعد عن أبيه.

وكذا أخرجه أحمد[3] وابن خزيمة أيضا من رواية سليم بن حيان ، عن عكرمة بن خالد به ، ولفظه: ذكر الطاعون عند رسول الله ﷺ فقال: "رجز أصيب به من كان قبلكم ، فإذا كان بأرض فلا تدخلوها ، وإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا عنها".

وله طريق أخرى عن سعد بن أبي وقاص أخرجه مسلم[4] ، وأحمد[5] من رواية سعيد بن المسيب ، عن سعد بن مالك بلفظ: "إذا كان الطاعون بأرض فلا تهبطوا عليه ، وإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تفروا منه".

وقد رواه حماد بن سلمة ، عن عكرمة بن خالد ، فخالف شعبة في سنده ، أخرجه أحمد والطبراني[6] والطحاوي من طرق عن حماد ، عن عكرمة بن خالد ، عن أبيه - أو

---

(١) المسند (١/١٧٥).
(٢) هكذا في الدار وهو الصواب ، وفي بقية النسخ (يعين تبيين).
(٣) المسند (١/١٧٣).
(٤) مسلم (٤/١٧٤٠) ٣٩ - كتاب السلام ، ٣٢ - باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها.
(٥) المسند (١/١٨٦).
(٦) المسند (٣/٤١٦).
المعجم الكبير (١٨/١٥).

عن عمه ، عن جده: أن رسول الله ﷺ قال في غزوة تبوك: "إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها ، وإذا كنتم بغيرها فلا تقدموا عليها". فإن كان حماد بن سلمة حفظه ، احتمل أن يكون لعكرمة بن خالد فيه طريقان ، ويقوي ذلك الزيادة في هذه الرواية ، وهي تعيين الزمان والمكان الذي قيل فيه ذلك ، ويشبه والله أعلم أن يكون السبب في ذلك أن الشام كانت في قديم الزمان – ولم تزل – معروفة بكثرة الطواعين ، فلما قدم النبي ﷺ تبوك غازيا الشام لعله بلغه أن الطاعون في الجهة التي كان يقصدها ، فكان ذلك من أسباب رجوعه من غير قتال ، والله أعلم.

وفي الباب حديث آخر.

قال سيف في الفتوح: ثنا داود بن أبي هند والعلاء بن زياد قالا: لما مات معاذ بن جبل بكى عمرو بن عنبسة ، فقال شرحبيل بن حسنة: انظروا ما أقول: إن رسول الله ﷺ قال: "إذا وقع – يعني الطاعون – بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فإن الموت في أعقابكم ، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها ، فإنه يحرق القلوب". هذا منقطع.

ذكر حديث أم أيمن في ذلك :

قال عبد بن حميد ، ثنا عمر بن سعيد ، ثنا سعيد بن عبد العزيز ، عن مكحول ، عن أم أيمن: أنها سمعت رسول الله ﷺ يوصي بعض أهله فقال: "وإن أصاب الناس مُوْتان (١) وأنت فيهم فاثبت". فيه انقطاع بين مكحول وأم أيمن.

ويدخل في هذا الباب حديث عائشة عن النبي ﷺ قال: "ما من عبد يكون – أي الطاعون – في بلده يكون فيها فيمكث ، فلا يخرج من البلدة صابرا محتسبا إلا كان له مثل أجر شهيد". أخرجه البخاري هكذا في كتاب القدر(٢) ، وقد تقدمت طرقة وألفاظه في الباب الثالث (٣) ، وهو شاهد لأحد شقَّي الحديث من جهة الترغيب في الإقامة ، فإنه بمعنى النهي عن الخروج والله أعلم.

---

(١) مُوْتان: بضم الميم وسكون الواو ، أي الموت الكثير ، ويقال بفتح أوله وثانيه أيضاً . (منه رحمه الله تعالى) .

(٢) البخاري (١١/٥١٤) ٨٢ – كتاب القدر ، ١٥ – باب ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ .

(٣) في ص (١١٧) .

ذكر اختلاف الصحابة في
الخروج من البلد الذي يقع به الطاعون[1]

قال سيف بن عمر في كتاب الفتوح له عن مشايخه: كان في طاعون عمواس موتان لم ير الناس مثله ، حتى طمع العدو في المسلمين ، وطال مكثه حتى تكلم الناس في ذلك واختلفوا ، فأمر معاذ بالصبر عليه حتى ينجلي ، وأمر عمرو بن عنبسة بالتنحي عنه حتى ينجلي ، فقال الذين يريدون التنحي: أيها الناس هذا رجز (وعذاب)[2] ، هذا (الطوفان)[3] الذي بعثه الله على بني إسرائيل. فرد عليهم معاذ بن جبل والذين (يريدون)[4] الصبر فقال: لِمَ تجعلون دعوة نبيكم ورحمة ربكم عذابا؟

ذكر سياق الأخبار الواردة في ذلك عن الصحابة رضي الله عنهم

قال أحمد[5] : حدثني أبو سعيد مولى بني هاشم ، ثنا ثابت بن يزيد ، ثنا عاصم – هو ابن سليمان – عن أبي مُنِيب: أن عمرو بن العاص قال في الطاعون في آخر خطبة خطب الناس: إن هذا رجز مثل السيل ، من تَنَكَّبَه[6] أخطأه ، ومثل النار من تنكبها أخطأها ، ومن أقام أحرقته فآذته. فقال شُرَحْبِيل بن حَسَنَة: إن هذا رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وقبض الصالحين قبلكم. رجاله ثقات ، وأخرجه الطبراني من طريق جرير عن عاصم.

وأبو منيب: بضم أوله ، وكسر النون بعدها تحتانية ساكنة ، ثم موحدة ، دمشقي يعرف بالأحدب ، مشهور بكنيته ، نزل البصرة ، ووثقه العجلي ، وقد أثبت البخاري سماعه من معاذ ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وفي الرواة أيضا أبو منيب الجُرَشي ، بضم الجيم وفتح الراء بعدها معجمة ، وهو شامي أيضا روى عن سعيد بن المسيب

---

(١) من هنا إلى آخر صفحة ١٧٠ جاء قبل ص ١٤٤ ، وذلك في نسخ: (الحرم وتركيا) ، بينما سقط هذا الجزء من نسخة الهند ، في حين أنه جاء على الترتيب الذي اتبعناه في نسخ: (الدار وتيمور والرباط) ، وقد فصّلنا القول في هذه المسألة في مقدمتنا للكتاب ، فلتُراجَع.

(٢) زيادة من تركيا.

(٣) في الرباط (الطاعون) وفي نسخة الدار ساقطة.

(٤) في الحرم وتركيا (يرون).

(٥) المسند (١٩٦/٤).

(٦) تنكبه: نَكَبَ: بنون وكاف ثم موحدة ، أي: عدل عنه. (منه رحمه الله تعالى).

وغيره ، روى عنه حسان بن عطية وغيره ، فرق بينه وبين الذي قبله البخاري وابن أبي حاتم عن أبيه وابن صاعد وآخرون ، وقال أبو أحمد الحاكم في الكنى: ما أراهما إلا واحدا. وتبعه ابن عساكر ثم المزي. والله أعلم.

* طريق أخرى لهذه القصة :

قال أحمد[1]: حدثنا عفان ، ثنا شعبة ، أخبرني يزيد بن خمير ، سمعت شرحبيل بن شفعة يحدث عن عمرو بن العاص ، أن الطاعون وقع فقال عمرو بن العاص: إنه رجس فتفرقوا عنه. فقال شرحبيل بن حسنة: إني قد صحبت رسول الله ﷺ ، وعمرو أضل من جمل أهله – وربما قال شعبة: من بعير أهله – وأنه قال: "إنها رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، فاجتمعوا له ولا تفرقوا عنه". فبلغ ذلك عمرو بن العاص ، فقال: صدق.

وأخرجه أيضا[2] عن محمد بن جعفر عن شعبة به. لكن قال: عن شرحبيل (بن شفعة قال: وقع الطاعون. وقال فيه: فبلغ ذلك شرحبيل)[3] بن حسنة. وقال: بعير أهله. ولم يشك.

وأخرجه ابن خزيمة من هذا الوجه ، ومن رواية ابن أبى عدي وأبي داود الطيالسي قالا: ثنا شعبة به. وقال فيه: وقع الطاعون بالشام. وقال فيه: فإنه رجس أو رجز. وقال فيه: بل هو رحمة ربكم.

وأخرجه الطحاوي من رواية أبي الوليد الطيالسي عن شعبة به. وقال فيه: لقد صحبت رسول الله ﷺ فسمعته يقول: "إنها رحمة ربكم". والباقي مثله.

* طريق ثالثة :

أخرج أحمد [4] وابن خزيمة من طريق همام بن يحيى عن قتادة. زاد ابن خزيمة : ومطر الوراق.

---

(١) المسند (١٩٦/٤).
(٢) المسند (١٩٦/٤).
(٣) ما بين القوسين ساقط من الدار.
(٤) المسند (١٩٥/٤).

وأخرجه ابن خزيمة أيضا من طريق هشام الدستوائي عن قتادة. كلهم عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم قال: لما وقع الطاعون بالشام ، خطب عمرو بن العاص وقال: إن هذا الطاعون رجس فتفرقوا عنه في هذه الشعاب وفي هذه الأودية ، فبلغ ذلك شرحبيل بن حسنة ، قال: فغضب فجاء وهو يَجُرّ ثوبه متعلق نعله بيده ، فقال: صحبت رسول الله ﷺ ، وعمرو أضل من حمار أهله ، هذه دعوة نبيكم ورحمة ربكم ووفاة الصالحين قبلكم.

لفظ أحمد ، وهو سند حسن ، ولكن شهر فيه مقال.

وقد أخرجه عبد الرزاق في مصنفه[1] ، عن معمر ، عن قتادة ، عن معاذ بن جبل منقطعا.

وفي رواية ابن خزيمة: ففروا منه بدل فتفرقوا ، وعنده: فجاء يجر ثوبه ونعلاه في يده ، فقال: كذب عمرو. وزاد في آخره: فبلغ ذلك معاذا فقال: اللهم اجعل نصيب آل معاذ الأوفر.

* طريق أخرى لحديث معاذ بن جبل في ذلك :

قال أحمد[2]: ثنا أبو أحمد الزبيري ، ثنا ميسرة[3] بن معبد ، عن إسماعيل بن عبيد الله ، قال: قال معاذ بن جبل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ستهاجرون إلى الشام فتفتح ، ويكون فيكم داء كالدمل وكالحزة ، تأخذ مراق الرجل ، يستشهد الله به أنفسهم ، ويزكي به أعمالهم". اللهم إن كنت تعلم أن معاذ بن جبل سمعه من رسول الله ﷺ فأعطه هو وأهل بيته الحظ الأوفر منه. فأصابهم الطاعون فلم يبق منهم أحد ، فطعن في أصبعه السبابة فكان يقول: ما يسرني أن لي بها حُمْر النَّعَم.

وهذا أيضا منقطع ؛ فإن إسماعيل بن عبيد هو ابن أبي المهاجر لم يدرك معاذا ، وقد أخرج الطبراني من روايته عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ حديثا غير هذا ، والله أعلم.

---

(١) المصنف (١١/١٤٩).

(٢) المسند (٥/٢٤١).

(٣) مَيْسَرَة: بفتح الميم والمهملة ، وتشديد الراء. (منه رحمه الله تعالى).

* طريق أخرى لمعاذ :

أوردها البيهقي في الدلائل [1] من طريق عبد الله بن وهب ، عن ابن لهيعة ، عن عبدالله بن حيان: أنه سمع سليمان بن موسى يذكر أن الطاعون وقع بالناس يوم جسر مومسة[2] ، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أيها الناس ، (إنما هذا الوجع رجس فتنحوا عنه. فقام شرحبيل فقال: يا أيها الناس ،)[3] إني قد سمعت قول صاحبكم ، وإني والله لقد أسلمت وصليت ، وإن عَمْرا لأضل من بعير أهله ، وإنما هو بلاء أنزله الله فاصبروا. فقام معاذ بن جبل فقال: يا أيها الناس إني قد سمعت قول صاحبيكم هذين ، وإن هذا الطاعون رحمة ربكم ودعوة نبيكم ، وإني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنكم ستقدمون الشام ، فتنزلون أرضا يقال لها جسر مومسة ، فيخرج فيكم خرجان[4] لها ذناب كذناب الدمل ، يستشهد الله به أنفسكم وذراريكم ، ويزكي به أموالكم". اللهم إن كنت تعلم أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ فارزق معاذا وآل معاذ الحظ الأوفر. الحديث.

* طريق أخرى لمعاذ بن جبل في ذلك :

قال أحمد[5]: ثنا إسماعيل – هو ابن علية ، عن أيوب ، عن أبي قلابة: أن الطاعون وقع بالشام ، فقال عمرو بن العاص : إن هذا الرجز قد وقع ففروا منه في الشعاب والأودية. فبلغ ذلك معاذا ، فلم يصدقه بالذي قال ، فقال: بل هو شهادة ورحمة ، ودعوة نبيكم ﷺ ، اللهم أعط معاذا وأهله نصيبهم من رحمتك. قال أبو قلابة: فعرفت الشهادة وعرفت الرحمة ، ولم أدر ما دعوة نبيكم حتى أنبئت أن رسول الله ﷺ بينما هو ذات ليلة يصلي إذ قال في دعائه: "فَحُمَّى إذاً أو طاعون". ثلاث مرات ، فلما أصبح ، قال له إنسان من أهله: يا رسول الله ، قد سمعتك الليلة تدعو بدعاء . فقال :

---

(١) دلائل النبوة (٦/٣٨٥) .

(٢) جسر مومسة : مكان بالشام قرب الجابية . (منه رحمه الله تعالى).

(٣) ما بين القوسين ساقط من الرباط..

(٤) خرجان : بخاء معجمة وراء ساكنة ثم جيم ، هو الخُرَّاج ، بضم أوله وتخفيف الراء كالدُّمل.. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) المسند (٥/٢٤٨).

"وسمعته"؟! قال: نعم. قال: "إني سألت ربي عز وجل أن لا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها. وسألته أن لا يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض ، فأبى عليّ - أو قال: فَمُنِعْت - فقلت: حمى إذا أو طاعون ، حمى إذا أو طاعون". ثلاث مرات.

رجاله ثقات إلا أنه منقطع بين أبي قلابة ومعاذ .

وقد أخرج الكلاباذي في معاني الأخبار من طريق محمد بن إسحاق ، عن رجل ، عن أبي قلابة عبد الله بن زيد الجَرْمِيّ: أنه كان يقول: بلغني من قول أبي عبيدة وقول معاذ: إن هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم. فكنت أقول: كيف دعا به رسول الله ﷺ لأمته. حتى حدثني بعض من لا أتَّهِم عن رسول الله ﷺ أنه سمعه يقول: وجاءه جبريل فقال: إن فناء أمتك يكون بطعن أو طاعون. قال: فجعل رسول الله ﷺ يقول : "اللهم فبالطاعون" مرتين ، قال: فعرفت أنها الدعوة التي قال أبو عبيدة ومعاذ.

قلت: الطريق الأولى التي ساقها أحمد أصح رجالا من هذه ؛ لجهالة الواسطة بين ابن إسحاق وأبي قلابة.

وقد تكلم الكلاباذي على رواية ابن إسحاق فقال: أخبر النبي ﷺ أن فناء أمته يكون بإحدى الشيئين ، فعلم أن أحدهما وهو الطعن ، يكون إما من أعداء الدين الكفار ، وإما من أعداء الدنيا كقُطَّاع الطريق ، وفي غلبة كل منهما قهر للدين وأهله وهلاك الدنيا ، فرأى أن في الطاعون سلامة الدين. وإن فَنِي أهل الدين ، فاختار أن يكون فناء أمته مع سلامة الدين وأهله ، قال : ويجوز أن يكون إنما أراد بذلك تحصيل الشهادة لأمته.

قلت : أما تفسير الدعوة فلم يُسَمِّ أبو قلابة من أخبره به ، وأصح منه مخرجا ورجالا ما تقدم من حديث أبي موسى ، ومن حديث أخيه أبي بردة بن قيس : أن النبي ﷺ قال: "اللهم اجعل فناء أمتي بالطعن والطاعون". وقد تقدم جزم الزمخشري بأن هذا هو المراد بقول معاذ: دعوة نبيكم ، ولا معارضة بين الخبرين ، إلا أن في رواية أبي قلابة زيادة السبب ، والمشكل إنما هو في رواية ابن إسحاق ؛ لأن ظاهرها اختيار أحد شيئين ، والله أعلم.

وقد تقدم في الباب الثاني عدة أحاديث فيما يتعلق بالآية المذكورة ، ذكرتها استطرادا في الكلام على حديث أبي موسى وأبي بردة.

ويؤيد حديث أبي قلابة رواية أحمد في هذا السبب ما تقدم هناك من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه.

وللدعاء المذكور شاهد من حديث أبي بكر الصديق ، أخرجه أبو يعلى من طريق القاسم ، عن أبي أمامة ، عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فقال: "اللهم طعنا وطاعونا". فقلت: يا رسول الله ، إني قد أعلم أنك قد سألت منايا أمتك ، وهذا الطعن قد عرفناه ، فما الطاعون؟ قال: "ذَرَبٌ كالدُّمل[1] ، إن طالت بك حياة ستراه". سنده ضعيف ، فإن كان ثابتا استفيد منه وقت الدعاء بذلك.

تنبيه :

وقع تفسير "رحمة ربكم" وتفسير "دعوة نبيكم" ولم يقع تفسير "موت الصالحين قبلكم" ، وذلك لأنه لم يقع في رواية أبي قلابة في روايته عند أحمد ، لكنها وقعت عن معاذ وأبي عبيدة عند الكلاباذي ، وكذا وقع في رواية غيره كما تقدم في الطريق الأخرى.

وقد تكلم عليه الكلاباذي فقال: يجوز أن يكون المراد بالصالحين بني إسرائيل ؛ لأنهم كانوا قبل هذه الأمة ، وقد وقع فيهم الطاعون - فساق القصة التي أوردتها في (أول هذا الباب)[2] من طريق محمد بن إسحاق عن سالم أبي النضر في شأن بلعم - ثم قال: وكان ذلك من الله تطهيرا لبني إسرائيل ، وكفارة لما كان منهم من السكوت عن زمري وما فعله هو ، ومن فعل غيره ، كما كان قتل بعضهم بعضا كفارة لمن كان منهم عَبَدَ العجل ، لما تابوا إلى الله تعالى واستسلموا له ، فهم صالحون لأنهم تائبون ، فيجوز أن يكونوا[3] المراد ، والله أعلم.

---

(١) ذَرَبٌ كالدُّمل: بذال معجمة وراء مفتوحتين ، وآخره موحدة ، هو ما لا يقبل العلاج. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) هكذا في جميع النسخ ، والصواب (الباب الأول) ، لأنه لم يذكر القصة في هذا الباب بل ذكرها في الباب الأول.

(٣) في الحرم والدار (يكون).

* طريق أخرى عن معاذ :

أخرج الطبراني في الكبير(١) من طريق كثير بن مرة عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ : "تنزلون منزلا يقال له الجابية(٢) - أو الجويبية(٣) - يصيبكم فيه داء مثل غدة الجمل ، يستشهد الله به أنفسكم وذراريكم ، ويزكي به أعمالكم". وفي سنده الحسن بن يحيى الخُشَنِيّ ، بمعجمة مضمومة ثم معجمة مفتوحة ثم نون ، فيه ضعف.

* طريق أخرى عن معاذ :

قال أبو نصر التمار في كتاب الزهد له: حدثنا حماد بن مسعدة ، ثنا أبو محصن ، عن حصين ، عن سالم بن أبي الجعد ، قال : وقع الطاعون بحمص فقالوا: هذا هو الطوفان ، فبلغ ذلك معاذا فقال: اجتمعوا إلى دار معاذ. فقال: إنه ليس بالطوفان الذي عذب به قوم نوح ، بل هو شهادة وميتة حسنة. الحديث رواته ثقات إلا أنه منقطع.

* طريق أخرى عن معاذ :

قال ابن سعد في الطبقات(٤) : أخبرنا عبيد الله بن موسى ، أخبرنا موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع قال: لما أصيب أبو عبيدة بن الجراح في طاعون عمواس ، استخلف معاذ بن جبل ، واشتد الوجع فقال الناس لمعاذ: ادع الله يرفع عنا هذا الرجز. قال: إنه ليس برجز ، ولكنه دعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم وشهادة يختص بها الله من يشاء منكم ، اللهم آت آل معاذ نصيبهم الأوفر من هذه الرحمة . فطعن.

أخرجه الطبراني (٥) من طريق عبيد الله بن موسى ، وأخرجه ابن وهب في جامعه عن سليمان بن بلال عن موسى بن عبيدة نحوه ، وموسى بن عبيدة هو الرَّبَذي وهو ضعيف ، والله أعلم.

---

(١) المعجم الكبير (٢٠/١١٤).

(٢) الجابية: بجيم ثم موحدة ، اسم مكان معروف بالشام. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) أو الجويبية: الجويبية تصغير الجابية ، وأو للشك من الراوي . (منه رحمه الله تعالى) .

(٤) الطبقات الكبرى (٣/٥٨٨).

(٥) المعجم الكبير (٢٠/١٧١).

* طريق أخرى لهذا الحديث مطولة :

أخرجها البزار[1] من طريق عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم ، عن حديث الحارث بن عميرة ، أنه قدم مع معاذ من اليمن ، فمكث معه في داره وفي منزله ، فأصابهم الطاعون ، فطعن معاذ وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وأبو مالك في يوم واحد ، وكان عمرو بن العاص حين خُبِّر بالطاعون فَرِقَ[2] فَرَقًا شديدا وقال: يا أيها الناس ، تفرقوا في هذه الشِّعاب ، فقد نزل بكم أمر لا أراه إلا رجزا وطاعونا. فقال شرحبيل بن حسنة : كذبت ، قد صحبنا رسول الله ﷺ وأنت أضل من حمار أهلك ، فقال عمرو : صدقت.

وقال معاذ بن جبل لعمرو بن العاص : كذبت ، ليس بالطاعون ولا الرجز ، ولكنها رحمة ربكم ودعوة نبيكم ﷺ ، وموت الصالحين قبلكم ، اللهم فآت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة. قال : فما أمسى حتى طعن ابنه عبد الرحمن ، وأحب الناس إليه الذي كان يكنى به ، فرجع معاذ من المسجد فوجده مكروبا ، فقال يا عبد الرحمن كيف أنت ؟ فاستجاب له فقال عبد الرحمن : يا أبت الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين . فقال معاذ : وأنا ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فمات من ليلته ودفنه من الغد.

فجعل معاذ بن جبل يرسل الحارث بن عميرة إلى أبي عبيدة يسأله : كيف أنت ؟ فأراه أبو عبيدة طعنة بكفه ، فبكى الحارث بن عميرة إلى أبي عبيدة ، وفرق منها حين رآها ، فاقسم أبو عبيدة بالله: ما يحب أن له مكانه حُمْر النَّعَم ، فرجع الحارث بن عميرة إلى معاذ فوجده مغشيًا عليه ، فبكى الحارث واستبكى ، ثم إن معاذا أفاق ، فقال : يا ابن الحميرية لِمَ تبكي عليّ؟ أعوذ بالله منك. فقال الحارث : والله ما عليك أبكي . فقال معاذ : فَعَلَى من تبكي؟ قال: أبكي على ما فاتني منك العصرين : الغُدُوّ والرَّوَاح – أي من العلم ، فقال معاذ : أجلسني. فأجلسه في حجره فقال : اسمع منِّي فإني أوصيك بوصية : إن الذي تبكي عليّ من غدوك ورواحك ، فإن العلم مكانه بين لَوْحي المصحف ، فإن أعيا عليك تفسيره فاطلبه بعدي عند ثلاثة: عويمر أبي الدرداء ، وعند سلمان الفارسي ، وعند ابن أم عبد – يعني : عبد الله بن مسعود – واحذر زَلَّة العالِم ،

---

(١) البزار "كشف الأستار" (٣/٣٩٧).

(٢) فَرِقَ: جَزِعَ وخاف.

وجدال المنافق. ثم إن معاذا اشتد به نزع الموت ، فنزع أشد العالَم نزعة ، فكان كلما أفاق من غمرة فتح طَرْفَه فقال: اخنقني خَنْقَك ، فوعزتك إنك لَتَعْلَم أني أحبك.

هذا إسناد حسن . وأخرجه الطبراني (من هذا الوجه مختصرا.

وأخرجه أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (١) ، والطبراني (٢)) (٣) من طريقه ، عن أبي معاوية ، ثنا داود بن أبي هند ، عن شهر بن حوشب ، عن الحارث بن عميرة الزبيدي قال: وقع الطاعون بالشام ، فقام معاذ فخطبهم بحمص فقال: إن هذا الطاعون رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم. وسقط من السند عبد الرحمن بن غنم ولا يتصل إلا به.

* طريق أخرى فيها بعض المخالفة لسياق التي قبلها :

قال أحمد(٤): ثنا يعقوب – هو ابن إبراهيم بن سعد – ثنا أبي ، عن محمد بن إسحاق ، حدثني أبان بن صالح ، عن شهر بن حوشب الأشعري ، عن راية رجل من قومه ، كان خلف على أمه بعد أبيه ، وكان قد شهد طاعون عمواس ، قال: لما اشتعل الوجع ، قام أبو عبيدة بن الجراح في الناس خطيبا فقال: أيها الناس ، إن هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم لأبي عبيدة حظه منه. فطعن فمات ، فاستخلف معاذ بن جبل على الناس ، فقام خطيبا بعده ، وقال مثل ما قال ، لكن قال: أن يقسم لآل معاذ حظهم. فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم قام فدعا لنفسه فطعن في راحته ، فكان يقول: ما أحب أن لي بها شيئا من الدنيا. فلما مات قام عمرو بن العاص خطيبا فقال: أيها الناس ، إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار ، فتحصنوا منه في الجبال . فقال أبو واثلة الهذلي : والله لقد صحبت رسول الله ﷺ وأنت شر من حماري هذا. فقال: والله ما أرد عليك ما تقول ، ووالله لا نقيم عليه . قال : ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا وارتفع الطاعون . قال: فبلَّغ ذلك عمر بن الخطاب مِنْ رأى عمرو بن العاص ، فوالله ما كرهه.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١١/١٥) ح ١٠٣٨٤.
(٢) المعجم الكبير (١١٦/٢٠).
(٣) ما بين القوسين سقط من الرباط.
(٤) المسند (١٩٦/١).

وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق في ترجمة أبي واثلة ، وقال: لا أعرف أبا واثلة إلا في هذه القصة.

قلت: وشهر فيه مقال ، وقد يكون في الواسطة بينه وبين معاذ في هذا الحديث ، وشيخه غير مُسَمّى ، وقد خالف في تسمية الذي رد على عمرو بن العاص ، وخالف أيضا في خروج عمرو بن العاص بالناس ، في الرواية المتقدمة الصحيحة أنه صدق شرحبيل بن حسنة ، وأن معاذ بن جبل قال كما قال شرحبيل ، كذا أبو عبيدة فإن كانت الرواية محفوظة احتمل أن يكون عمرو بن العاص خطب مرتين: مرة في أول الأمر فرد عليه (شرحبيل بن حسنة وغيره ، ومرة في أواخر الأمر فرد عليه) (١) أبو واثلة ، وقد جاء أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة يأمره بالانتقال بالناس من الأرض التي كانوا بها إلى أرض أخرى ، وأن أبا عبيدة أطاعه في ذلك ، فطعن قبل أن يرحل ، ورحل الناس بعد أن مات ، فلعل عمرو بن العاص هو الذي رحل بهم.

فروى ابن إسحاق عن شعبة ، عن المختار بن عبد الله البجلي ، عن طارق بن شهاب قال: أتينا أبا موسى وهو في داره بالكوفة لنتحدث عنده ، فلما جلسنا قال: لا تَحْفُوا(٢) ، (فقد مات)(٣) (إنسان)(٤) في الدار بهذا السُّقَم ، فلا عليكم أن تَنَزَّهوا(٥) عن هذه القرية ، فتخرجوا في فسيح بلادكم ونُزَهها ، حتى يرتفع هذا البلاء(٦) ، فإني سأخبركم بما يكره مما يتقى من(٧) ذلك ، أنه لو خرج لم يصبه ، فإذا لم يظن ذلك المرء المسلم فلا عليه أن يخرج يتنزه عنه.

إني كنت مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام عام طاعون عمواس ، فلما اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر ، كتب إلى أبي عبيدة يستخرجه منه: أن سلام عليك ، أما بعد ، فإنه

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الدار.
(٢) لا تَحْفُوا: بحاء مهملة ساكنة ، ثم فاء ، أي: لا تطيلوا. (منه رحمه الله تعالى).
(٣) ما بين القوسين سقط من الرباط.
(٤) في الرباط (اثنان).
(٥) أن تَنَزَّهوا: أي: تبعدوا. (منه رحمه الله تعالى).
(٦) في الرباط (الوباء).
(٧) في الحرم (به من).

عرضت لي إليك حاجة ، إذا نظرت في كتابي هذا أن لا تضعه من يدك حتى تقبل إليّ . قال: فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء ، فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين. ثم كتب إليه: يا أمير المؤمنين ، إني قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم ، ولست أريد فراقهم ، حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه ، فحللني[1] من عزيمتك يا أمير المؤمنين ودعني وجندي. فلما قرأ عمر الكتاب بكى ، فقال الناس: يا أمير المؤمنين ، أمَات أبو عبيدة؟ قال: لا. وكأنْ[2] قد ، قال: ثم كتب إليه: سلام عليكم ، أما بعد ، فإنك أنزلت الناس أرضا غميقة فارفعهم إلى أرض نزهة.

قال: فلما أتاه كتابه دعاني فقال: يا أبا موسى ، إن كتاب أمير المؤمنين قد جاءني بما ترى ، فاخرج فارتَدْ[3] للناس منزلا حتى انتقل بهم فرجعت إلى منزلي فإذا صاحبتي قد أصيبت ، فرجعت إليه فقلت له: قد كان في أهلي حدث. فأمر ببعيره فرُحِّل له ، فلما وضع رجله في الغرز[4] طعن ، فقال: والله لقد أصبت. ثم صار حتى نزل الجابية ، ورفع البلاء عن الناس.

أخرجه ابن عساكر في ترجمة أبي موسى الأشعري من تاريخه ، وهذا حديث في إسناده من لا يعرف.

لكن جاء من وجه آخر عن أبي موسى لا بأس به ، أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده ، والطحاوي في معاني الآثار جميعا من طريق شعبة ، وأخرجه البيهقي من طريق أيوب بن عائذ ، كلاهما عن قيس بن مسلم: سمعت طارق بن شهاب قال: كنا نتحدث إلى أبي موسى الأشعري فقال لنا ذات يوم: لا عليكم (أن تحفوا)[5] مني ، إن هذا الطاعون قد وقع في أهلي ، فمن شاء منكم أن يتنزه عنه فليتنزه واحذروا اثنتين ؛ أن يقول قائل: خرج خارج فسلم ، وجلس جالس فأصيب ، لو كنت خرجت لسلمت كما سلم

(١) فَحَلِّلْني: بحاء مهملة ، فعل أمر من الحِلّ بكسر أوله. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) وَكَأَنْ: بهمزة مفتوحة بعدها نون ساكنة ، كلمة تقال لتقريب الشيء ، والمعنى: كأنك به قد وقع. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) فارتَدْ: بسكون الراء وفتح المثناة ، فعل أمر من الارتياد ، وهو الاختيار. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) الغَرْز: بفتح المعجمة وسكون الراء ، بعدها زاي ، هو ركب الكور. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) في الحرم (لا تحفوا).

فلان. أو يقول قائل: لو كنت جلست أصبت كما أصيب فلان ، وإني سأحدثكم بما ينبغي للناس في الطاعون.

إني كنت مع أبي عبيدة ، وإن الطاعون وقع بالشام ، وإن عمر كتب إليه: إذا أتاك كتابي هذا فإني أعزم عليك إن أتاك مصبحا لا تمسي حتى تركب ، وإن أتاك ممسيا أن لا تصبح حتى تركب إليّ ، فقد عرضت لي إليك حاجة ، لا غنى بي عنك فيها. فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب قال: إن أمير المؤمنين يستبقي من ليس بباق. فكتب إليه أبو عبيدة : إني في جند من المسلمين لن أرغب بنفسي عنهم ، وقد عرفت حاجة أمير المؤمنين ، فحللني من عزيمتك. فلما جاء عمر الكتاب بكى ، فقيل له: توفي أبو عبيدة؟ قال: لا ، وكأن قد – أي قرب ، وكتب إليه عمر: إن الأردن أرض غميقة (١) ، وإن الجابية أرض نزهة ، فانهض بالمسلمين إلى الجابية.

فقال لي أبو عبيدة: انطلق فَبَوِّئْ للمسلمين (٢) منزلهم. فقلت: لا أستطيع. فذهب ليركب فقال لي: رحل الناس. قال: فأخذه أخذه (٣) فطعنه فمات ، وانكشف الطاعون. لفظ الطحاوي.

وفي رواية الهيثم: لا يقولن قائل إن هو جلس فعوفي الخارج: لو كنت خرجت لعوفيت كما عوفي فلان. ولا يقول الخارج إن هو عوفي وأصيب الذي جلس: لو كنت جلست أصبت كما أصيب فلان. وقال بعد قوله: فانهض بالمسلمين إلى الجابية: فقال أبو عبيدة حين قرأ الكتاب: أما هذا فنسمع فيه أمر أمير المؤمنين ونطيعه . فأمرني أن أُبَوِّئَ الناس منازلهم ، فطعنت امرأتي ، فجئت إلى أبي عبيدة فقلت : قد كان في أهلي بعض العرض . فانطلق هو يبوئ الناس منازلهم.

لفظ شعبة ، وهذا إسناد صحيح إلى أبي موسى.

وفي رواية أيوب بن عائذ ، عن قيس بن طارق: أتانا كتاب عمر لما وقع الوباء بالشام ، فكتب عمر إلى أبي عبيدة: إنه قد عرضت لي إليك حاجة ... الحديث بمعناه.

---

(١) في تركيا والحرم والدار (غمقة).
(٢) في الحرم (للناس).
(٣) في الدار (أخذ).

وهذا الذي قاله أبو موسى موافق لما يفسر الآية: إن الله تعالى مقت الذين قالوا ذلك أي: لو أقمنا لمتنا ، ولو خرجنا لبقينا.

وحاصل القصة: أن أبا موسى حمل النهي عن الخروج من البلد الذي يقع فيه الطاعون على من قصد الفرار منه ، من غير أن يضيفه إلى معنى آخر غير الفرار ، كما إذا كان الخارج عنها ممن لم يكن من أهلها ، فاستوخمها[1] فخرج عنها إلى بلد أخرى توافق ما ألفه من بلدته التي نشأ بها ، وإلى ذلك يشير قول عمر في كتابه لأبي عبيدة: إنك أنزلت الناس أرضا غميقة – وهي بغين معجمة مفتوحة ، وميم مكسورة ، وبعد التحتانية الساكنة قاف ، أي: قريبة من المياه والنزوز ، والغمق: فساد الريح وخمومها من كثرة الأنداء فيحدث منه الوباء – فإذن عمر في الخروج من تلك الأرض يلتحق بالتداوي ، وليس هو لمحض الفرار من الموت ، وعلى ذلك يحمل كتابه إلى أبي عبيدة يأمره بالرحيل إليه ، أو كان عمر يرى النهي عن الخروج أولا محمولا على ما إذا (كان)[2] بمحض الفرار ، أما إذا كان لحاجة أخرى فلا يدخل تحت النهي ، وتكون عرضت له في نفس الأمر حاجة عند أبي عبيدة ، ورجا – مع ذلك – أن يسلم أبو عبيدة من ذلك المرض في ضمنها ، وفَهِمَ أبو عبيدة أن هذا الثاني هو مراده بالأصالة ، فلم يوافقه على ذلك ، فعدل عمر إلى أمر يعم جميع من كان مع أبي عبيدة لما اعتذر له أبو عبيدة: أنه لا يرى أن يخص نفسه بأمر دونهم.

وقد اختلف العلماء في النهي عن الخروج من البلد الذي يقع به الطاعون ، هل هو على ظاهره من التحريم ، أو هو للتنزيه؟ على قولين:

قال ابن عبد البر: الطاعون موت شامل ، لا يحل لأحد أن يفر من أرض نزل فيها إذا كان من ساكنيها ، ولا أن يقدم عليه إذا كان خارجا عن الأرض التي نزل بها.

وقال تاج الدين السبكي في الجزء الذي جمعه في الطاعون : مذهبنا وهو الذي عليه الأكثر ، أنه للتحريم . قال : وقال بعض العلماء : هو للتنزيه ، روي ذلك عن أبي موسى الأشعري ومسروق والأسود بن هلال . قال : واتفقوا على جواز الخروج لشغل عَرَضَ غير الفرار . قال : وليس محل النزاع فيمن خرج فاراً من قضاء الله تعالى ،

---

(١) فاستوخمها: استثقلها ، ولم يوافق هواؤها بدنه.

(٢) غير موجودة في جميع النسخ ، وقد زدناها ليستقيم الكلام.

فذلك شيء لا سبيل إلى القول بأنه غير محرم ، بل الظاهر أن محل النزاع فيما إذا خرج للتداوي.

قلت: وهذا ليس بظاهر ؛ لأن الخروج إلى التداوي ليس حراما في مذهب الشافعي وجماعة ، وهو قد صحح أن الخروج حرام ، فكيف يجعل محله ما إذا خرج للتداوي ، والخروج للتداوي ليس بحرام! بل العبارة الصحيحة أن يقول: محل النزاع فيما إذا خرج فارا من المرض الواقع ، مع اعتقاده أنه لو قدره الله عليه لأصابه ، وأن فراره منه لا ينجيه من قدر الله ، لكن يخرج مؤملا أن ينجو ، هذا الذي ينبغي أن يكون محل النزاع ؛ فمن منع احتج بالنهي الوارد عن ذلك ، ومن أجاز حمل النهي على التنزيه كما تقدم. وقد ترجم ابن خزيمة في صحيحه بأن الفرار من الطاعون من الكبائر ، وأن الله يعاقب من وقع منه ذلك مالم يعف عنه ، واستدل بحديث عائشة في ذلك ، وأشار إلى أن الخلاف في نفس الفرار ، وهو الذي تقتضيه الأخبار التي تقدم ذكرها عن عمرو وغيره ، والله أعلم.

وأما ما نسبه إلى أبي موسى الأشعري فقد بينت مذهبه في ذلك. وقد أخرج ابن أبي الدنيا عنه بسند صحيح ما يقتضي منع الفرار منه ، فروى من طريق مسعر ، عن زياد بن علاقة ، عن كردوس ، عن المغيرة بن شعبة: أن الطاعون لما وقع ، قال المغيرة بن شعبة: إن هذا العذاب قد وقع فاخرجوا عنه. قال: فذكرته لأبي موسى فقال: لكن العبد الصالح أبو بكر – يعني الصديق – قال: اللهم طعنا وطاعونا في مرضاتك.

(ووقع لي هذا الأثر عاليا في الجزء الأول من فوائد أبي عمرو بن السماك قال: حدثنا الحسن بن سلام ، ثنا علي بن قادم ، أنا مسعر ، فذكره بلفظ: عن المغيرة أنه قال : اللهم ارفع عنا هذا الرجز – يعني الطاعون – فقال أبو موسى: أما أنا فلا أقول هكذا ، أقول كما قال العبد الصالح أبو بكر الصديق فذكر مثله. قرأته على الشيخ أبي إسحاق التنوخي ، وأجازنا به أبو هريرة بن الذهبي ، كلاهما عن أبي بكر بن أحمد بن عبد الدايم . قال أبو هريرة : حضورا . أنا سالم بن الحسن ، أنا نصر الله بن عبد الرحمن ، أنا أبو علي بن شهاب ، أنا أبو علي بن شاذان ، أنا أبو عمرو بن السماك فذكره.)[١]

---

(١) ما بين القوسين زيادة من الرباط وتيمور .

وهذا يجمع بينه وبين ما تقدم ، بأنه كان يمنع من الخروج إذا كان فرارا محضا ، لا إذا كان على وجه التداوي.

وقد فاته ذكر المغيرة بن شعبة الذي قدمناه ، وكذا ذكر عمرو بن العاص ، وعمرو بن عنبسة والجماعة الذين خالفوا معاذا وشرحبيل بن حسنة وغيرهما في الصبر والإقامة كما تقدم قريبا.

وقد نقل أبو الحسن المدائني أنه قال: ما فر أحد من الطاعون فَسَلِم ، قال القاضي تاج الدين: وهذا الذي حكاه مُجَرَّب ، وليس بعيدا أن يجعل الله الفرار منه سببا لقصر العمر ، وقد جاء في الكتاب العزيز ما يؤخذ منه أن الفرار من الجهاد سبب في قصر العمر ، قال تعالى: ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تُمَتَّعُونَ إلا قليلا ﴾ (١) ، وحكى أن والده استنبط ذلك من الآية ، قال: ويحتمل أن يراد أن بقاءهم وإن طال بعد الفرار فتمتعهم في الدنيا قليل بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقال ابن عبد البر: لم يبلغني أن أحدا من أهل العلم فرّ من الطاعون إلا ما ذكر المدائني أن علي بن زيد بن جدعان هرب من الطاعون إلي السيالة – يعني من البصرة – فكان يجمع كل جمعة ويرجع ، فكان إذا جمع صاحوا به : فر من الطاعون. فطعن فمات بالسيالة.

قلت: السيالة مكان خارج البصرة ، وهذا الحصر الذي ذكره ابن عبد البر عجيب ؛ فقد نقل عياض في شرح مسلم عن مسروق والأسود بن هلال أنهما أجازاه ، لكن يحتمل إن ثبت عنهما أن يكونا أَفْتَيَا بجوازه لكن لم يفعلاه. وذكر المدائني أيضا أن الطاعون وقع بمصر فخرج عبد العزيز بن مروان – وهو أميرها – فنزل قرية من قرى الصعيد فنزلها ، فَقَدِم عليه بها رسول من أخيه عبد الملك فقال له: ما اسمك؟ فقال: طالب بن مدرك. فقال عبد العزيز: أَوْهَ (٢) ما أراني راجعا إلى الفسطاط ، (فمات في تلك القرية) (٣).

* * *

(١) سورة الأحزاب : ١٦.
(٢) أَوْهِ : بكسر الهاء الخفيفة وفتحها ، كلمة معناها التَّحَزُّن.
(٣) ما بين القوسين زيادة من تيمور.

ذكر حجة من قال
النهي عن الخروج من البلد الذي وقع فيه الطاعون لقصد الفرار منه حرام

قد تقدمت الأحاديث بالنهي عن الخروج مطلقة ، وفي بعض طرقها التقييد بالفرار ، فيحمل مطلقها على مقيدها ، وظاهر النهي التحريم.

ويقويه ما أخرجه أحمد (١) قال : ثنا يحيى بن إسحاق ، أخبرني جعفر بن كيسان ، حدثتني معاذة ، سمعت عائشة تقول: قال رسول الله ﷺ: "فناء أمتي بالطعن والطاعون". قالت: فقلت : يارسول الله ، هذا الطعن قد عرفناه ، فما الطاعون ؟ قال : "غدة كغدة الإبل ، المقيم فيها كالشهيد ، والفَارُّ منها كالفَار من الزحف".

وأخرجه أيضا(٢) عن يزيد بن هارون ، عن جعفر ولفظه: دخلت على عائشة فقالت : قال رسول الله ﷺ: "لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون". الحديث.

وأخرجه أيضا(٣) عن عفان ، عن جعفر ، عن معاذة نحوه.

وأخرجه(٤) عن يحيى بن إسحاق ، عن جعفر المذكور ، عن عمرة بنت قيس ، سمعت عائشة تقول: (قال رسول الله ﷺ) (٥): "الفار من الطاعون كالفار من الزحف".

كذا أورده مختصرا ، فإن كان محفوظا فقد حمله جعفر عن معاذة وعمرة معا.

وقد أخرجه ابن خزيمة من طريق أمية بن خالد ، عن جعفر بن كيسان بالإسنادين معاً ، قال: عن عمرة العدوية أنها دخلت مع أمها على عائشة فسألتها: ما سمِعت من رسول الله ﷺ يقول في الفرار من الطاعون؟ قالت سمعته يقول: ... فذكر مثل رواية يحيى بن إسحاق سواء.

---

(١) المسند (٦/٢٥٥).
(٢) المسند (٦/١٤٥).
(٣) المسند (٦/١٣٣).
(٤) المسند (٦/٨٢).
(٥) ما بين القوسين زيادة من المسند.

ثم ساقه من طريق أمية بن خالد ، ثنا جعفر بن كيسان ، سمعت معاذة تحدث عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: " تفنى أمتي (بالطاعون) [1] ". قالوا: وما الطاعون ؟ قال: "غدة كغدة الإبل". مختصرا.

وأخرجه أيضا من طريق أبي عامر العقدي ، ثنا أبو معروف ، حدثتنا عمرة بنت قيس: سألت عائشة عن الفرار من الطاعون ، فقالت: قال رسول الله ﷺ: "الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف".

وقال: أبو معروف هذا هو جعفر بن كيسان فيما أحسب.

قلت: وأخرجه الطبراني في الأوسط من طريق حوثرة[2] بن أشرس[3] ، (ثنا جعفر بن كيسان – أبو معروف بصري – عن عمرة بنت أرطاة العدوية بصرية)[4] عن عائشة: ... فذكر مثل سياق يزيد بن هارون سواء ، وقال: لم يروه عن عمرة إلا جعفر.

والذي يظهر أن جعفر بن كيسان سمعه من معاذة ، ومن عمرة وهي بنت قيس بن أرطاة ، نسبت في رواية حوثرة إلى جدها ؛ فإن سياقه عنها مختلف ، والله أعلم. وله طريق أخرى عن عائشة أخرجها أبو يعلى[5] من طريق معتمر بن سليمان ، قال: سمعت ليثا – هو ابن أبي سليمان – يحدث عن صاحب له ، عن عطاء ، قال: قالت عائشة: وذكر الطاعون فذكرت أن النبي ﷺ قال: "وخز يصيب أمتي من أعدائهم من الجن ، غدة كغدة الإبل ، من أقام عليه كان مرابطا ، ومن أصيب به كان شهيدا ، ومن فر منه كان كالفارِّ من الزحف".

وهذا الطريق ضعيف لضعف ليث ، وجَهالة شيخه.

وقد أخرجه البزار[6] من طريق حفص بن سليمان ، عن ليث ، عن عطاء ، عن عائشة

(١) في الحرم (بالطعن والطاعون).

(٢) حَوْثَرة: بفتح المهملة وسكون الواو ، وبعدها مثلثة. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) أشْرَس: بشين معجمة ثم سين مهملة ، بوزن أحمر. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) ما بين القوسين ساقط من الرباط.

(٥) مسند أبي يعلى (١٢٥/٨).

(٦) البزار "كشف الأستار": (٣٩٦/٣).

مختصرا ، بإسقاط المجهول بين ليث وعطاء ، ولفظه: قلت يا رسول الله ، هذا الطعن قد عرفناه ، فما الطاعون؟ قال: "شبه الدمل ، يخرج في الآباط والمراق ، وفيه تزكية أعمالهم ، وهو لكل مسلم شهادة". قال البزار: لا نعلمه يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد.

قلت: وهو إسناد ضعيف ، فيه ثلاث علل: ضعف حفص ، وشيخه ، وإسقاط الواسطة المجهول بين ليث وعطاء ، وقد أدخل بعضهم فيه بين عطاء وعائشة واسطة أيضا.

أخرجه الطبراني في الأوسط ، وأبو أحمد بن عدي في الكامل ، وابن أبي الدنيا في كتاب الطواعين ، وأبو عمر بن عبد البر في التمهيد مطولا بطرق إلى علي بن مسهر قال: أنا يوسف بن ميمون ، عن عطاء ، عن ابن عمر ، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: "الطاعون شهادة لأمتي ، ووخز أعدائكم من الجن ، يخرج في آباط الرجال ومراقها ، الفار منه كالفار من الزحف ، والصابر فيه كالمجاهد في سبيل الله".

قال الطبراني : لا يروى عن ابن عمر ، عن عائشة إلا بهذا الإسناد ، تفرد به يوسف بن ميمون. وكذا قال الدارقطني في الأفراد أن يوسف بن ميمون تفرد به ، ومرادهم أنه تفرد بإدخال ابن عمر بين عطاء وعائشة ، وأما نفس المتن فثابت عن عائشة وغيرها من الأوجه التي تقدم ذكرها.

والمقصود هنا شاهد من حديث جابر.

قال أحمد (1) : ثنا أبو عبد الرحمن – هو عبد الله بن يزيد المقري – ثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني عمرو بن جابر الحضرمي ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : قال رسول الله ﷺ: "الفار من الطاعون ، كالفار من الزحف ، والصابر فيه كالصابر في الزحف".

قرأته عاليا على إبراهيم بن محمد المؤذن بمكة ، أن أحمد بن أبي طالب أخبرهم ، أنا أبو المنجا ، أنا أبو الوقت ، أنا أبو الحسن بن داود ، أنا أبو محمد بن أعين ، أنا

---

(1) المسند (٣/٣٢٤).

إبراهيم بن خزيم ، أنا عبد بن حميد ، ثنا عبد الله بن يزيد ، ثنا سعيد ، عن عمرو بن جابر الحضرمي ، عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال: ... فذكر مثله.

وأخرجه ابن خزيمة وأحمد أيضا من طرق عن أبي زرعة عمرو بن جابر الحضرمي المصري وحديثه صالح في الشواهد ، وإن كان بعضهم قد ضعفه.

ذكر مواعظ قد وقعت لمن فرَّ من الطاعون فاتعظ بها وأقام

روى سيف في الفتوح ، عن عبد الله بن سعيد ، عن أبي سعيد قال: أصاب أهل البصرة موت ذريع ، فأمر رجل من بني تميم غلاما له أن يحمل ابنا صغيرا ليس له ولد غيره ، على حمار ثم يسوق به إلى مكان ذَكَرَه حتى يلحقه ، فخرج الغلام بالولد في آخر الليل ، ثم أتبعه مولاه ، فلما أشرف على المكان ، سمع الغلام وقد رفع عقيرته وهو يقول: لن تعجز الله على حمار ، ولا على ذي منعة مطار ، قد يصبح الله أمام الساري . قال : فلما انتهى إلى الغلام قال : ماكنت تقول ؟ قال : لم أقل شيئا ، فعرف أنه قد أسمع ، فأمره أن يرجع فرجع.

ونقله ابن أبي الدنيا عن الأصمعي قال: خرج رجل فذكر نحوه ، وزاد: أو يأتي الحتف على مقدار.

وفي شرح الموطأ للتلمساني من طريق أبي التياح : قلت لمطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير: ما تقول في الفرار من الطاعون؟ قال: هو قدر الله ، تخافونه ، وليس منه مفر.

وقال أبو بكر الرازي في الأحكام: إذا كانت الآجال مقدرة محصورة ، لا تقديم فيها ولا تأخير عمّا قدره الله تعالى ، فالفرار من الطاعون عدول عن مقتضى ذلك ، وكذلك العمل بالطيرة ، والزجر والنجوم ، كل ذلك فرارا من قدر الله الذي لا محيص لأحد عنه.

وذكر أبو نعيم في الحلية (1) عن شريح: أنه كتب إلى أخ له قد فر من الطاعون: أما بعد ، فإنك والمكان الذي أنت فيه بعين (من لا يعجزه ولا يفوته من هرب) (2) ، والمكان

---

(١) حلية الأولياء (٤/١٣٦).

(٢) ما بين القوسين جاء في الحلية بلفظ: (مَنْ لا يعجزه مَنْ طلب ، ولا يفوته مَن هرب).

الذي خليته لا يعجل لامرئ حمامه ، ولا يظلمه أيامه ، وإنك وإياهم لعلى بساط واحد ، وإن المنتجع من ذي قدرة (لغير ثبت).(١)

وسيأتي في الباب الخامس كلام من أنكر من الصحابة على من فر من الطاعون وبالغ في ذلك.

ذكر ما اعتل به من أجاز الفرار والجواب عن شبهته

احتجوا بأمور :

الأمر الأول :

قال الطحاوي بعد أن أورد حديث: " لا يورد ممرض على مصح" (٢) ، من طريق الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا ، قال: فذهب قوم إلى هذا ، وقالوا: إنما كره ذلك مخافة الإعداء ، وأمروا باجتناب ذي الداء والفرار منه ، واحتجوا برجوع عمر عن سرغ بسبب الطاعون. ثم ساق الحديث في ذلك. قال: فقالوا: قد أمرنا في هذه الآثار أن لا نقدم على الطاعون ، وذلك للخوف منه خشية أن يُعدى من دخل عليه.

ثم ردّ عليهم بأن الأمر بترك القدوم عليه لو كان للخوف منه لجاز لأهل الموضع الذي وقع فيه أيضا الخروج منه للعلة المذكورة ، فلما منع أهل الموضع الذي وقع فيه الطاعون من الخروج ، ثبت أن المعنى الذي من أجله منعوا من القدوم عليه غير المعنى الذي ذكروا.

وهو عندنا والله أعلم: على أن لا يقدم عليه رجل فيصيبه بتقدير الله عليه فيقول: لولا أني قدمت هذه الأرض لما أصابني. ولعله لو أقام في الموضع الذي كان فيه لأصابه ، فأمر أن لا يقدم عليها حسما للمادّة ، ولذلك أمر أن لا يخرج من الأرض التي نزل بها لئلا يسلم فيقول: لو أقمت في تلك الأرض لأصابني ما أصاب أهلها. ولعله لو كان أقام بها ما أصابه من ذلك شيء ، فأمر بترك القدوم على الطاعون للمعنى الذي وصفنا.

قلت: وهذا الذي ذكره الطحاوي بيِّن في كلام أبي موسى كما تقدم ، لكن المانع عمم

---

(١) في الحلية (لقريب).

(٢) البخاري (١٠/٢٤١) ٧٦ – كتاب الطب ، ٥٣ – باب لاهامة.
ومسلم (٤/١٧٤٣) ٣٩ – كتاب السلام ، ٣٣ – باب لاعدوى ولا طيرة ... إلخ.

النهي لمن اعتقد ذلك ولمن لم يعتقده حسما للمادة ، والمجيز نظر إلى المعنى الذي منع الخروج من أجله ، فخص المنع به ، والأول أسعد بالعمل بالحديث.

والذي يظهر لي أن صنيع عمر برجوعه من قبل أن يدخل البلد الذي وقع فيه الطاعون ليس من الفرار في شيء[1] ، وإنما هو بمنزلة من قصد دخول دار فرأى فيها حريقا تعذر طفؤه ، فعدل عن دخولها لئلا يصيبه ، فهو من باب اجتناب المهالك ، وهو مأمور به ، هذا الذي يظهر أنه جنح إليه عمر ومن وافقه قبل أن يبلغهم الحديث المرفوع ، فلما بلغهم جاء مطابقا لما اختاره ، فلأجل ذلك قال من قال : إنما رجع لأجل حديث عبد الرحمن ، لا لأجل ما اقتضاه نظره ، والحق أنه هَمَّ أن يرجع ، فلما بلغه الخبر استمر عزمه كما تقدم تقريره ، وأما الذين خالفوا رأي عمر في ذلك قبل أن يبلغهم الخبر ، فسلكوا [2] سبيل التوكل المحض مع قطع النظر عن الأسباب ، وهو مقام شريف يناسب مرتبة خيار الصحابة ، ولهذا كان الكثير من المهاجرين والأنصار على هذا الرأي ، ولم يجنح إليه أحد من مشايخ قريش ، وإنما وافقهم عمر وإن كان من كبار المهاجرين ؛ لأنه غلب عليه النظر في مصالح المسلمين ، وذلك لا يتم إلا بالنظر في الأسباب والعمل بالراجح منها ، مع اعتقاده أن الأمور كلها بتقدير الله ، وقد ورد في ذلك حديث : "اعقلها وتوكل". أخرجه الترمذي [3] وغيره. ثم ساق الطحاوي من طريق زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر: اللهم إن الناس نَحَلوني [4] ثلاث خصال ، وأنا أبرأ إليك منهن : زعموا أني فررت من الطاعون ، وأنا أبرأ إليك من ذلك. وذكر الطلاء والمكس . وسنده صحيح ، قال : فدل على أن رجوعه كان لغير الفرار ، وكذا كتابه إلى أبي عبيدة فيما أمره به من خروجه هو ومن معه من الجند ، إنما هو بمعنى التداوي بالانتقال من أرض وخمة إلى أرض صحيحة.

ثم ساق قصة العرنيين [5] وقال: كان خروجهم من المدينة للعلاج لا للفرار ، وهو واضح من سياق قصتهم. انتهى ملخصا.

---

(١) في الرباط (شيء منه). (٢) في الرباط (فسلكوا به).

(٣) الترمذي (٦٦٨/٤) ٣٨ – كتاب صفة القيامة ، ٦٠ – باب حدثنا عمرو بن علي.

(٤) نَحَلوني: أي: نسبوا إليّ.

(٥) العرنيين: نسبة إلى عرينة ، بعين مهملة وراء ونون ، مصغر ، وحذفت ياء التصغير في النسب. (منه رحمه الله تعالى).

– وقد سبق تخريج حديثهم ص ٥٠ .

وكذلك يحمل ماورد عن عمر أنه ندم على رجوعه من سرغ ، وهو فيما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١) : حدثنا محمد بن بشر. وقال إسحاق في مسنده: أنا أبو عامر العقدي . قالا : أنا هشام بن سعد ، حدثني عروة بن رويم ، عن القاسم ، عن عبد الله بن عمر قال : جئتُ عمر حين قدم الشام فوجدته قائلا (٢) في خبائه (٣) ، فانتظرته في فيء (٤) الخباء ، فسمعته يقول حين تضوّر (٥) من نومه : اللهم اغفر لي رجوعي من سرغ . وسنده حسن.

وقال الزركشي في الجزء الذي جمعه في الطاعون ، تبعا لتاج الدين السبكي ، نقلا عن القرطبي في المفهم : لا يصح ندم عمر على رجوعه ، وكيف يندم على فِعْل ما أمر به النبي ﷺ ويرجع عنه ويستغفر منه !

قلت : أقر التاج هذا ، وأما الزركشي فرده وقال : هذا إسناد صحيح. قلت : وإني لأتعجب من القرطبي كيف يرد الأخبار القوية بمثل هذا مع إمكان الجمع.

ثم قال الزركشي: يحتمل أن يكون ندمه مخافة أن يكون فارا من القدر ، ورأى أن النهي عن القدوم عليه رخصة ، فقد حكى البغوي في شرح السنة عن قوم أن النهي عن الفرار من الطاعون على التحريم ، والنهي عن القدوم عليه على التنزيه ، فيكون القدوم عليه رخصة لمن غلب عليه التوكل ، والانصراف عنه رخصة لمن انصرف. انتهى.

وليس في كلام عمر ما يخص الأمر فيما ذكره ، بل يحتمل أن يكون ندمه واستغفاره لأنه خرج لأمر مهم من أمور المسلمين ، فوصل إلى قرب البلد الذي كانت حاجته فيه ، ثم رجع من ثَمَّ إلى المدينة للحديث الذي سمعه في النهي عن القدوم عليه ، وكان يمكنه أن لا يفعل واحدا من الأمرين ، وهو أن لا يقدم على البلد الذي فيه الطاعون امتثالا للحديث ، ولا يرجع إلى المدينة من غير قضاء الحاجة التي خرج لها ، بل كان يمكنه أمر ثالث ، وهو: أن يقيم بالقرب من البلد المذكورة إلى أن يرتفع الطاعون فيدخل إلى قضاء مأربه ،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٣/٤١) ح ١٥٦٩٥.
(٢) قائلا: من القيلولة. (منه رحمه الله تعالى).
(٣) في خبائه: بخاء معجمة ثم موحدة ، أي: خيمته. (منه رحمه الله تعالى).
(٤) فيء: الفيء: الظل. (منه رحمه الله تعالى).
(٥) تَضَوَّر: بضاد معجمة ، أي: قلق. (منه رحمه الله تعالى).

ولا سيما والواقع أن الطاعون وقع ارتفاعه بعد رجوعه بزمن يسير كما تقدم ، وهو قدر مسافة الطريق في كتابه إلى أبي عبيدة وجواب أبي عبيدة ، ثم كتابه إليه ثانيا يأمره بأن يتحول بالجند فامتثل أمره ، وشرع في التحول وارتفع الطاعون ، فلعله رأى أنه لو انتظر إلى أن يرتفع كان أولى من رجوعه ، لما كان في رجوعه بالعسكر الذي كان صحبته من المشقة عليه وعليهم ، والخبر لم يرد بالأمر بالرجوع ، وإنما ورد النهي عن القدوم أو الإقدام ، على ما جاء في لفظ الخبر من أنه: لا تَقْدُمُوا ، أو لا تُقْدِمُوا ، ثلاثيا أو رباعيا ، فاحتمل أن ندمه إنما كان على ذلك. وقد قال القاضي عياض لما ذكر اختلاف الصحابة من المهاجرين والأنصار في الرجوع: حجة كل من الطائفتين بينة ، لأنها مبنية على أصلين من أصول الشريعة:

الأول : التوكل والتسليم للقضاء والقدر.

والثاني : الحيطة والحذر بترك الإلقاء إلى التهلكة.

وهما فرعان متشعبان من أصل قاعدة القدر.

وقد قيل: إن رجوع عمر إنما كان للحديث ؛ لأنه لم يكن ليرجع إلى رأي دون رأي بغير حجة مُرَجِّحة ، وهذا قد قدمته قبل هذا.

نعم ، قد ورد عن غير عمر التصريح بالعمل بمحض التوكل ، فأخرج ابن خزيمة بسند صحيح إلى هشام بن عروة ، عن أبيه : أن الزبير بن العوام خرج غازيا نحو مصر ، فكتب إليه أمراء مصر أن الأرض قد وقع بها الطاعون فلا تدخلها . فقال الزبير : إنما خرجت للطعن والطاعون . فدخلها ، فلقي طعنا في جبهته فأفرق . وسنده صحيح على شرط البخاري .

وقوله : فأفرق : أي أفاق من مرضه. ذكره أبو موسى المديني في ذيل الغريبين له ، وقال أبو مِجْلَز[1] التابعي المشهور: لما وقع الطاعون بالبصرة وارتفع ، عَدُّوا من أفرق منه ، فكانت جملتهم كذا . قال أبو موسى : أي برأ من الطاعون . قال : ويقال : إن ذلك إنما يقال لمن برئ من علة لا تصيب الإنسان غالبا إلا مرة واحدة كالجدري ، والله أعلم.

---

(١) مجلز: بكسر الميم وسكون الجيم بعدها زاي. (منه رحمه الله تعالى).

قلت: أثر أبي مجلز المذكور أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من طريق عمران بن جرير قال : كان أبو مجلز يقول : لا يُحَدَّث المريض إلا بما يعجبه . فإنه كان يأتيني وأنا مطعون فيقول : عدوا اليوم في الحي كذا وكذا ممن أفرق وَعَدُّوك فيهم. قال: فأفرح بذلك. سنده صحيح.

تنبيه :

قد يعارض هذا الخبر[١] عن الزبير ما أخرجه البيهقي بسند حسن أيضا عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال: أقبلت إلى الزبير يوما وأنا غلام ، وعنده رجل أبرص ، فأردت أن أَمَسَّه ، فأشار إليَّ الزبير ، فأمرني أن أنصرف كراهة أن أمسه.

قلت: ولا معارضة بينهما على ما تقدم ، بل إقدام الزبير من قوة إيمانه وشدة يقينه ، ومنعه ابنه الصغير من مس الأبرص خشية أن يقدر الله عليه أن يصيبه ذلك ، فيظن – لعدم توسعه في العلم – أنه من المس ، فيعتقد العدوى المنهي عن اعتقادها ، وسيأتي بسط ذلك في الأمر الثالث.

الأمر الثاني :

قال القاضي تاج الدين السبكي: احتجوا أيضا بالقياس على الفرار من الأسد ، والعدو الذي لا يقدر على دفعه ؛ فإن الكفار وقطاع الطريق إذا قصدوا من لا طاقة له[٢] بهم جاز التنحي من بين أيديهم ، ونقل فيه أبو الحسن الكياهراس من الشافعية الاتفاق فقال: لا نعلم خلافا في الجواز ، وإن كانت الآجال لا تزيد ولا تنقص.

والجواب: أن القياس على الفرار من الأسد والعدو ضعيف ؛ فإن السلامة منهما نادرة والهلاك معهما كالمتيقَّن ، فصار كإلقاء الإنسان نفسه في النار ، بخلاف الفرار من البلد الذي يقع به الطاعون ، فإن السلامة منه كثيرة ، وإن لم تكن غالبة.

قلت: وعلى تقدير تسليم القياس المذكور فهو قياس مع وجود الفارق ؛ فإن مسألة الوقوف للأسد إلى أن يفترسه داخلة في النهي عن الإلقاء إلى الهلاك ، ومسألة الفرار جاء النهي الصريح عنها ، فكيف يستويان؟!

---

(١) في الحرم (الأثر).
(٢) في الحرم (لهم).

الأمر الثالث :

القياس على الخروج من الأرض المستوخمة كقصة العرنيين .

والجواب: أن ذلك من باب التداوي ، وترك ما لا يوافق المريض من الأغذية ، إذ لا فرق بين الأغذية والأهوية في تأثير المرض ، فكان الخروج من الأرض التي لا توافق مزاج المريض من باب التداوي.

قال القاضي تاج الدين: وعندي في هذا الجواب نظر.

قلت: كأن وجهه: أن لقائل أن يقول: إن الطاعون أيضا ينشأ من فساد الأهوية ، فالخروج من البلد التي يقع بها ينبغي أن يكون جائزا مطلقا كما جاز للعرنيين ، وهذا لا يتمشى على ما تقدم تحقيقه أن الطاعون من طعن الجن.

والحق: أن خروج العرنيين لم يكن لقصد الفرار أصلا ، وإنما كان لمحض التداوي – كما تقدم عن الطحاوي – وكان خروجهم من ضرورة الواقع ؛ لأن الإبل ما كان يتهيأ إقامتها في البلد ، وإنما كانت في مراعيها ، ودواؤهم كان بأبوالها وألبانها واستنشاق تلك الروائح ، فكان الخروج عن البلد ضمينا لأمر محقق الوجود ، بخلاف الخروج من البلد التى يقع فيه الطاعون إلى بلد آخر ؛ فإنه خروج إليه بالقصد لأمر مظنون ؛ إذ لا يؤمن وقوع الطاعون في البلد الآخر ، ويؤيد الفرق أيضا أن من جملة أصول التداوي الرجوع إلى المألوف والعادة ، وكان القوم أهل بادية وريف ، كما وقع صريحا في بعض طرق خبرهم ، فلم يوافق بلد الحضر أمزجتهم ، فأرشدهم الشارع إلى التداوي بما ألفوه من الكون في البدو ، ومن هنا يؤخذ توجيه أمر عمر أبا عبيدة بالانتقال بجنده إلى مكان آخر أوفق لأمزجتهم من المكان الذي كان نزل به أولا.

ويدخل في هذا ما أخرجه أبو داود والحاكم(١) من حديث فروة بن مُسَيْك(٢) قال: قلت:

---

(١) أبو داود (١٩/٤) كتاب الطب ، باب في الطيرة. وأحمد في المسند (٤٥١/٣).

ولقد بحثت عنه في المستدرك كثيرا فلم أجده ، ومما يؤكد أن الحديث لم يروه الحاكم أن الحافظ في الفتح (١٨٩/١٠) ذكر الحديث وعزاه إلى أبي داود وحده.

(٢) فروة: بفتح الفاء ، ابن مسيك: بمهملة وكاف ، مصغّر. (منه رحمه الله تعالى).

يارسول الله ، إن أرضا عندنا يقال لها أرض أبين (١) ، وهي أرض ريفنا وميرتنا (٢) وهي وبئة - أو قال : وباؤها شديد - قال : " دعها عنك فإن من القرف التلف " .

قال ابن قتيبة: القرف: مداناة الوباء. وقال الخطابي: ليس هذا من باب العدوى ، وإنما هو من باب التداوي ؛ فإن استصلاح الأهوية من أعود الأشياء على البدن بالصحة ، وفسادها من أضرها وأسرعها إلى سقمه عند الأطباء ، فكل ذلك بإذن الله ومشيئته سبحانه وتعالى.

الأمر الرابع :

قال الزركشي: احتجوا أيضا بالقياس على الفرار من المجذوم.

يعني ما أخرجه البخاري (٣) من طريق سعيد بن ميناء قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: "لا عدوى (٤) ، ولا طيرة (٥) ، ولا هامة ، ولا صفر ، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد".

وفي صحيح مسلم(٦) من طريق عمرو بن الشريد الثقفي عن أبيه قال: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبي ﷺ: "إنا قد بايعناك فارجع".

وفي سنن أبي داود (٧) من حديث ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: "لا تديموا النظر

(١) أَبْيَن: بموحدة ، بوزن أحمر. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) وميرتنا: بكسر الميم ، والميرة: الطعام.

(٣) البخاري (١٠/١٥٨) ٧٦ - كتاب الطب ، ١٩ - باب الجذام.

(٤) لا عدوى : بفتح العين المهملة ، مقصور ، كانت العرب تعتقد أن المرض يعدي وينتقل إلى الصحيح ، فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم اعتقادهم ، وأبطل العدوى فقال: "لا يعدي شيء شيئا". (منه رحمه الله تعالى).

(٥) ولا طيرة: بكسر الطاء المهملة وفتح التحتانية ، مأخوذة مما كانوا يعتادونه في الطير البارح والسانح من التشاؤم والتيامن ، وكان الواحد منهم إذا خرج فرأى الطير ذاهبا من جهة اليمين تيمّن به واعتقد نجح حاجته وبالعكس ، ثم توسعوا في ذلك حتى كانوا يهيجونه على الطيران لذلك ، فأبطل ذلك الإسلام. (منه رحمه الله تعالى).

(٦) مسلم (٤/١٧٥٢) ٣٩ - كتاب السلام ، ٣٦ - باب اجتناب المجذوم ونحوه.

(٧) لم أجد هذا الحديث في سنن أبي داود مع كثرة البحث والتحري ، ولعله سبق قلم ، وذلك لأن الحافظ نفسه ذكر الحديث في الفتح (١٠/١٥٩) وقال: وقد أخرجه ابن ماجة بسند ضعيف. سنن ابن ماجة (٢/١١٧٢) ٣١ - كتاب الطب ، ٤٤ - باب الجذام.

إلى المجذومين" وصححه ابن خزيمة.

والجواب عن ذلك من وجهين:

أحدهما: قاله ابن الصلاح تبعاً لغيره جامعاً بين ما ظاهره التعارض ، من حديث أبي هريرة ، وهو حديثه: "لا يورد ممرض على مصح" (١) ، وحديثه: "فر من المجذوم فرارك من الأسد" (٢) ، مع حديث: "لا عدوى" (٣) ، قال: وجه الجمع بينهما أن هذه الأمراض لا تعدي بطبعها ، ولكن الله تبارك وتعالى جعل مخالطة المريض بها للصحيح سبباً لإعدائه مرضه ، ثم قد يتخلف ذلك عن سببه كما في سائر الأسباب ، ففي حديث "لا عدوى" نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن ذلك يعدي بطبعه ، ولهذا قال: " فمن أعدى الأول " ؟ ، وفي الثاني أعلم بأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا لذلك ، وحذر من الضرر الذي يغلب وجوده عند وجوده بفعل الله سبحانه. انتهى كلامه.

وأقره مشايخنا في مختصراتهم ، لكن قال البلقيني منهم: العبارة الصحيحة أن يقول بدل قوله "جعل": "قد يجعل". انتهى.

وهو احتراز حسن لئلا يتخيل أن ذلك يقع دائما أو غالبا ، والواقع أنه ربما يتخلف.

والأصل فيه قول الشافعي ، قال البيهقي في المعرفة في كتاب النكاح عند ذكر العيوب: أخبرنا أبو سعيد الصيرفي ، ثنا أبو العباس الأصم ، ثنا الربيع بن سليمان قال : قال الشافعي : الجذام والبرص فيما يزعم أهل العلم بالطب والتجارب يعدي الزوج كثيرا ، وهو داء مانع للجماع ، لا تكاد نفس أحَدٍ أن تطيب بمجامعة مَنْ هو بها ، ولا نفس امرأة أن يجامعها مَن هو به ، وأما الولد فَتَبَيَّن - والله أعلم - أنه إذا ولد أجذم أو أبرص ، أوجذماء أو برصاء ، قَلَّ مَا سَلِمَ ، وإن سلم أدرك نسله ، ونسأل الله العافية.

---

(١) سبق تخريجه ص ١٧٤.

- ممرض على مصح: الممرض: بضم أوله ، الذي له إبل مرضى ، والمصح: الذي له إبل صحاح. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) سبق تخريجه ص ١٨٠.

(٣) البخاري (١٥٨/١٠) ٧٦ - كتاب الطب ، ١٩ - باب الجذام.

ومسلم (١٧٤٢/٤) ٣٩ - كتاب السلام ، ٣٣ - باب لا عدوى ولا طيرة ... إلخ.

قال البيهقي: قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "لا عدوى" ولكنه أراد به على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية ، من إضافة الفعل إلى غير الله ، وقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سببا لحدوث ذلك ، ولهذا قال ﷺ: "لا يورد ممرض على مصح". وقال في الطاعون: "من سمع به بأرض فلا يقدمن عليه". وغير ذلك مما في معناه ، وكل ذلك بتقدير الله تعالى. انتهى كلامه.

والذي يظهر لي أن الشافعي ما روى حديث نفي العدوى الذي سيأتي بيانه ، ولهذا اعتمد في ذلك على قول الأطباء وأهل التجربة من غير أن يعرج على تأويل الحديث.

وقد أورد ابن خزيمة في كتاب التوكل حديث "لا عدوى" من حديث أبي هريرة وابن عمر ، وأخرجه أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص ، وحديث "لا يورد ممرض على مصح" من حديث أبي هريرة ، وترجم على الأول: التوكل على الله في نفي العدوى ، وعلى الثاني : ذكر خبر غلط في معناه بعض العلماء فأثبت العدوى التي نفاها النبي ﷺ.

ثم ترجم: الدليل على أن النبي ﷺ لم يثبت العدوى بهذا القول ، ثم ساق حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "لا عدوى ولا هامة ولا صفر". فقال أعرابي: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء ، فيخالطهم البعير الأجرب فيجربها؟ فقال النبي ﷺ: "فمن أعدى الأول؟!".

وقد أخرجه البخاري ومسلم (١) من هذا الوجه.

ومن طريق أبي زرعة (٢) عن أبي هريرة قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، النُّقْبة (٣) تكون بمشفر البعير ، فتشمل الإبل كلها جربا. قال: فقال رسول الله ﷺ: "فمن أعدى الأول"؟!

---

(١) البخاري (١٧١/١٠) ٧٦ – كتاب الطب ، ٢٥ – باب لاصفر.
مسلم (١٧٤٢/٤) ٣٩ – كتاب السلام ، ٣٣ – باب لا عدوى ولا طيرة ... إلخ.
(٢) أحمد في مسنده (٣٢٧/٢).
(٣) النُّقْبة: بضم النون وسكون القاف بعدها موحدة ، أول شيء يظهر من الجرب ، وجمعها نُقْب ، بضم أوله وسكون ثانيه ، قيل لها ذلك ؛ لأنها تنقب الجلد. (منه رحمه الله تعالى).

وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "لا يعدي شيء شيئا". فقال أعرابي: يا رسول الله ، إنها تكون النقبة من الجرب بمشفر البعير - أو في ذنبه - فتكون في الإبل العظيمة فتجرب كلها. فقال رسول الله ﷺ: "لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ورزقها ومصيبتها".(١)

ثم ترجم: ذكر خبر روي عن النبي ﷺ في الأمر بالفرار من المجذوم أنا خائف أن يخطر ببال بعض الناس أنه أثبت العدوى وليس كذلك هو عندي بحمد الله ، ثم أخرج حديث أبي هريرة من طريق سعيد بن مِيناء عنه ، وأخرجه أيضا من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: "لا عدوى ، وإذا رأيت المجذوم ففر منه كما تفر من الأسد". ثم ساق حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: "لا تديموا النظر إلى المجذومين".(٢) وحديث عمرو بن الشريد عن أبيه: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم ... الحديث(٣) وحديث جابر (٤): أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فوضعها معه في القصعة ثم قال: "بسم الله ، ثقة بالله وتوكلا عليه". وفي لفظ: بينا النبي ﷺ يأكل إذ جاء مجذوم فقال: "ادن فكل ، ثقة بالله وتوكلا عليه".

قال ابن خزيمة: إن النبي ﷺ برأفته ورحمته بأمته ، أمرهم بالفرار من المجذوم ، كما نهى أن يورد الممرض على المصح ، شفقة عليهم وخشية أن يصيب بعض من يقرب من المجذوم الجذام ، والصحيح من الماشية الداء الذي بالمرضى منها ، فيسبق إلى قلب بعض المسلمين أن من أصابه الجذام أعداه جذام صاحبه الأول ، وكذلك الماشية إذا أصابها الجرب ، فيسبق إلى قلبه أن المرض الذي بالماشية الأولى أعداها ، فيثبت العدوى التي نفاها رسول الله ﷺ ، وقال بعد نفيها: "إنه لا يعدي شيء شيئا". فأمر باجتناب ذلك ؛ ليسلم المسلمون من التصديق بإثبات العدوى ، وقد أعلم النبي ﷺ أن

---

(١) أحمد في مسنده (١/ ٤٤٠).
والترمذي (٤/ ٤٥٠) ٣٣ - كتاب القدر ، ٩ - باب لا عدوى ولا هامة ولا صفر .
(٢) سبق تخريجه ص ١٨٠.
(٣) النسائي (٧/ ١٥٠) كتاب البيعة ، باب بيعة من به عاهة.
وابن ماجة (٢/ ١١٧٢) ٣١ - كتاب الطب ، ٤٤ - باب الجذام.
(٤) أبو داود (٤/ ٢٠) كتاب الطب ، باب في الطيرة.
والترمذي (٤/ ٢٦٦) ٢٦ - كتاب الأطعمة ، ١٩ - باب ما جاء في الأكل مع المجذوم.
وابن ماجة (٢/ ١١٧٢) ٣١ - كتاب الطب ، ٤٤ - باب الجذام.

الطيرة شيء يجده الناس في صدورهم ، ثم أعلم أن التوكل يذهبها ، فكذلك الجذام والجرب لا يسلم من ضعف توكله - إذا أصاب بعض من قرب منه المجنوم الجذام - أن يصدق بالعدوى والطيرة لضعف توكله ؛ لأن النبي ﷺ أثبت العدوى بأمره بالفرار من المجنوم ، وبعثه إلى المجذوم ليرجع ، ويؤيد هذا الجمع أكله مع المجنوم ثقة بالله وتوكلا عليه.

قال: وأما النهي عن إدامة النظر إلى المجنوم فعلى ما تقدم ، ويحتمل أيضا أن يكون معناه: أن المجنوم يقيم ويكره أن يديم [1] الصحيح النظر إليه ؛ لأنه قلَّ من يكون به من العقلاء آفة إلا وهو يحب أن يسترها. انتهى ملخصاً.

وهو في غاية التحقيق والإتقان ، وهو أولى عندي من الجمع الذي ذكره البيهقي وتبعه ابن الصلاح فمن بعده ؛ لأنه ينفي العدوى أصلا ورأسا كما صرحت به الأخبار الصحيحة ، ويحمل ما ورد في ضدها على إرادة حسم المادة ، بخلاف ما جمعوا به فإنه يثبت العدوى في الجملة. وقد قال مالك لما سئل عن الحديث في النظر إلى المجنومين : ما سمعت فيه كراهية ، وما أرى ما جاء من النهي عن ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء . يعني فيقع في اعتقاد العدوى .

وأما ما أخرجه البيهقي [2] من طريق أبي إسحاق الهاشمي ، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: " لا عدوى ، (ولا يَحُلُّ) [3] المُمْرِضُ المُصِحَّ ، ويحل المصح حيث شاء" . قيل : ما بال ذلك يا رسول الله؟ قال: "إنه أذى". فهو ضعيف ، لأنه من رواية ابن لهيعة عن بكير عنه ، وأبو إسحاق الهاشمي مجهول .

وقد رواه عبد الملك بن محمد الرقاشي ، عن بشير بن عمر الزهراني ، عن مالك ، عن بكير ، فقال: عن أبي عطية عن أبي هريرة. قال البيهقي: إن كان الرقاشي حفظه فهو غريب.

قلت : قد أخرجه الدارقطني في غرائب مالك من رواية الرقاشي ، ومن رواية

---

(١) في الرباط وتركيا (يدمن).

(٢) السنن الكبرى (٧/٢١٧).

(٣) في الحرم (ولا يؤاكل).

محمد بن يحيى بن سعيد القطان ، ومن رواية علي بن مسلم ، كلهم عن بشير بن عمر ، ثم قال: خالفهم أبو هشام الرفاعي فقال : عن بشير بن عمر عن مالك بهذا الإسناد ، عن أبي بردة الأسلمي بدل أبي هريرة ، وهو وهم من أبي هشام ، ورواه أبو قرة في السنن عن مالك قال: ذكر بكير بن عبد الله بن الأشج عن أبي عوسجة عن أبي هريرة ، والحديث في الموطأ [1] عن مالك: أنه بلغه عن بكير بن عبد الله بن الأشج عن أبي عطية الأشجعي عن أبي هريرة.

قلت: فترجّح أن الواسطة بين أبي هريرة وبكير هو أبو عطية الأشجعي وهو مجهول ، وأن بين مالك وبكير فيه واسطة ولعله ابن لهيعة ، فلم تثبت هذه الزيادة ، وعلى تقدير أن تكون محفوظة ، فالضمير في قوله: "إنه" للمرض ، والمرض بلا شك أذى ، ولا يكون الضمير للمورود لئلا يلزم منه إثبات العدوى التي نُفيت في صدر الحديث ، ويرجع الأمر إلى التأويل الماضي ، والله أعلم.

وقد سلك الطحاوي في كتاب معاني الآثار سبيل ابن خزيمة في هذا الجمع ، فأورد حديث "لا يورد ممرض على مصح" ثم قال: معناه أن المصح قد يصيبه ذلك المرض فيقول الذي أورده: لو أني ما أوردته عليه لم يصبه من هذا المرض شيء. والواقع أنه لو لم يورده لأصابه بتقدير الله عليه ، فنهى عن إيراده لهذه العلة التي لا يأمن على الناس غالبا من وقوعها في قلوبهم.

ثم ساق حديث "لا عدوى" من رواية سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وابن عمر وأبي هريرة وجابر وأنس.

ثم ساق من حديث علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال: "لا يعدي سقيم صحيحا".

ومن حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "لا عدوى ولا طيرة ولاهامة". فقال رجل: أطرح الشاة الجرباء في الغنم فتجربهن. فقال النبي ﷺ: "فَالأَوَّلى مَن أجْرَبَها"؟!

(١) الموطأ (٢/٩٤٦) ، ٥٠ - كتاب العين ، ٧ - باب عيادة المريض والطيرة.

وحديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: "لا عدوى" وقال: "فمن أعدى الأول"؟!

وحديث ابن مسعود كما تقدم من عند ابن خزيمة ، وكذا حديث أبي هريرة من طرق في جميعها "فمن أعدى الأول"؟!

ثم ساق حديث جابر في الأكل مع المجذوم كما تقدم.

وحديث أبي ذر عن النبي ﷺ: "كل مع صاحب البلاء تواضعا لربك وإيمانا".

ثم قال : فقد نفى النبي ﷺ العدوى وقال : "فمن أعدى الأول"؟! أي لو كان إنما أصاب الثاني بإعداء الأول لما كان أصاب الأول شيء ؛ لأنه لم يكن له ما يعديه ، ولكنه لما كان ما أصاب الأول بقدر الله تعالى ، كان ما أصاب الثاني كذلك.

ثم قال : فيحمل قوله ﷺ "لا عدوى" على نفي العدوى أن تكون أبدا ، وقوله "لا يورد ممرض على مصح" على الخوف منه أن يورده عليه فيصيبه بقدر الله ما أصاب الأول فيقع في النفس أن الأول هو أعداه ، فيكره إيراد المصح على الممرض خشية ذلك ، والله أعلم.

وتبع الطحاوي في هذا الجمع أبو بكر الرازي في كتابه (أحكام القرآن) ، فأورد كلامه مختصرا كعادته.

وقد جمع البيهقي بين حديثي مجذوم ثقيف والذي وضع يده في الصحفة ، بأن أحدهما في من يقدر على الصبر في المكاره ويترك الاختيار في موارد القضاء ، والحديث الآخر فيمن يخاف على نفسه العجز عن احتمال المكروه والصبر عليه ، فيحترز بما هو جائز في الشرع من أنواع الاحترازات.

وأجاب القرطبي في المفهم على الإشكال فقال: إنما نهى عن إيراد الممرض على المصح مخافة الوقوع فيما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد ذلك أو مخافة تشويش النفوس وتأثير الأوهام ، وهذا كنحو قوله: "فروا من المجذوم" لأنا وإن كنا نعتقد أن الجذام لا يعدي ، فإنا نجد في أنفسنا نفرة وكراهية لذلك ، حتى لو أكره الإنسان نفسه على القرب منه وعلى مجالسته تألمت نفسه وربما تأذت بذلك ، وإذا كان ذلك ظهر أن

الأَوْلى للمرء أن لا يتعرض الإنسان إلى ما يحتاج فيه إلى مجاهدة ، فيجانب طرق الأوهام ، ويباعد أسباب الآلام ، مع علمه بأنه لا ينجي حذر من قدر ، والله أعلم. ثم وجدت سلف الجميع في ذلك وهو أبو عبيد القاسم بن سلام فذكر مامعناه: أن النهي في أن لا يورد الممرض على المصح ليس لإثبات العدوى ، بل لأن الصحاح لو مرضت بتقدير الله ربما وقع في نفس صاحبها أن ذلك من العدوى ، فيفتتن ويتشكك في ذلك فأمر باجتنابه. قال أبو عبيد: وكان بعض الناس يحمله على أنه مخافة على الصحيحة من ذات العاهة. قال: وهذا شَرّ ما حُمِلَ عليه الحديث ؛ لأنه رخصة في التطير المنهي عنه ، ولكن وجهه عندي ما قدمته. انتهى.

* * * * *

* * *

*

[الفصل الثالث]

ذكر بيان الحكمة في النهي عن الخروج من البلد الذي وقع فيها الطاعون فرارا منه

ذهب بعض أهل العلم إلى أن ذلك أمر تعبدي لا يعقل معناه ، والسبب عندهم في ذلك أن الفرار من المهالك مأمور به ، وقد صح النهي عن الخروج من البلد الذي وقع فيه الطاعون ، فكان ذلك لسر فيه لا تعلم حقيقته ، فالأولى فيه التسليم وامتثال ما أمر به الشارع .

وذهب كثيرون من العلماء إلى التعليل وأبرزوا في ذلك حِكَماً :

منها : أن الطاعون في الغالب يكون عامًّا في البلد الذي يقع به ، فإذا وقع والشخص بها فالظاهر مداخلة سببه له ، فلا يفيده الفرار منه ، بل إن كان أجله حضر فهو ميت سواء أقام أم رحل ، وكذا بالعكس ، وإلى هذا صار من رجح أحد الوجهين في أن تصرفات الصحيح في البلد الذي يقع فيه الطاعون كتصرفات المريض مرض الموت ، كما سيأتي بيانه في الباب الخامس ، فلما كانت المفسدة قد تعينت ولا انفكاك عنها ، حسنت الإقامة لما في الخروج من العبث الذي لا يليق بالعقلاء .

وأيضا لو توارد الناس على الخروج لبقي من وقع به عاجزا عن الخروج ، فضاعت مصالح المرضى لفقد من يتعهدهم ، والموتى لفقد من يجهزهم ، ولِما في خروج الأقوياء على السفر من كسر قلوب من لا قوة له على ذلك .

وقد قيل في الحكمة في شدة الوعيد على الفرار من الزحف : لِما فيه من تخويف الباقين وإزعاجهم وخذلان من كان مستمرا في القتال .

وقد جمع الغزالي في الإحياء بين الأمرين فقال : الهواء لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن ، بل من حيث دوام الاستنشاق ، فيصل إلى الرئة والقلب فيؤثر فيهما ولا يظهر على الظاهر إلا بعد التأثير في الباطن ، فالخارج من البلد الذي يقع به لا يخلص غالبا من الأمر الذي استحكم من قبل ، ولكنه يتوهم الخلاص فيصير من الأوهام القادحة في التوكل ، ثم انضاف إلى ذلك أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقي من يتعهد المرضى ، وتضيع مصالحهم .

ومنها : ما تقدم من أن الخارج يقول : لو لم أخرج لَمُتُّ . ويقول المقيم لو خرجت كما خرج فلان لَسَلِمْت . فيقع في الـ " لو " المنهي عنها ، وإلى هذا مال ابن عبد البر فقال : النهي عن الخروج للإيمان بالقدر ، والنهي عن القدوم لدفع ملامة النفس . ونقل عن ابن مسعود أنه قال : الطاعون فتنة للمقيم والخارج عنه فذكر نحو ما تقدم .

مع ما في الخروج من الفرار من حكم قدَّره الله ، وأمَر بالصبر عليه ، وجعل في الموت به أجر شهيد ، بل للمقيم صابراً محتسباً مثل أجر شهيد ، ولو لم يمت بالطاعون كما تقدم تقريره ، ففي الفرار من مثل هذا خسارة كبيرة من الأجر ، مع الجهل بأن الموت الذي فر منه هل يسلم منه أولا ، كما قال الله تعالى : ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تُمَتَّعُونَ إلا قليلاً ﴾ . [الأحزاب : ١٦] .

وقال ابن العربي في شرح الترمذي : حكمة النهي عن الفرار لئلا يموت فينسب ذلك إلى الطاعون ، وإنما هو أجَلٌ حضر ، والأسـباب لا يضاف إليها (كلُّ ما) (١) وُجِدَ عندها ، وإنما يضاف إليها ما أضافه الشرع ، وقيل : إنما منع منه لأن سبب المرض قد تحكم . وقيل : لئلا تترك المرضى بغير قَيِّم عليهم .

قال : وأما حكمة منع القدوم عليه ، فالذي عندي : أن الله أمر أن لا يَتَعَرَّضُ أحد للحتف ، وإن كان لا نجاة من قدر الله ، إلا أنه من باب الحذر الذي شرعه الله ، وفيه الصيانة عن الشرك ، لئلا يقول القائل : لو لم أدخل لم أمرض ، ولو لم يدخل فلان لم يمت . قال : وقيل : إن حكمة منع الدخول لئلا يتعلق بهم من الوهم أكثر مما يتعلق بالخارج والله أعلم .

ثم وجدت للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد في هذا فصلاً حسناً نقله الزركشي في جزئه المذكور فقال : الذي يترجح عندي في الجمع بين النهي عن الفرار من البلد الذي وقع به الطاعون ، والنهي عن القدوم عليهم والله أعلم : أن الإقدام عليه يُعَرِّضُ النفس للبلاء ولعلها لا تصبر عليه ، وربما كان به ضرب من الدعوى لمقام الصبر أو التوكل ، فمنع ذلك لاغترار النفس ، ودعواها مالا تثبت عليه عند التحقيق .

وأما الفرار فقد يكون داخلا في باب التوغل في الأسباب متصورا بصورة من يحاول النجاة مما قدر عليه ، فيقع التكلف في القدوم كما يقع التكلف في الفرار ، فأمر بترك التكلف فيهما .

(١) في النسخ (كلما) ، ولعل ما أثبتناه هو الصواب.

وقد لمح الصحابي ما ذكرته في أحد الشقَّيْن فقال : أفراراً من قدر الله ؟ وإلى ما قررته يشير قوله ﷺ : " لا تتمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا " (١) . فأمرهم بترك التمني لما فيه من التعرض للبلاء وخوف الاغترار بالنفس : إذ لا يؤمن غدرها عند الوقوع ، ثم أمرهم بالصبر عند الوقوع تسليما لأمر الله تعالى . ورأيت فيما شرحه الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة من البخاري ما ملخصه : قوله : " فلا تقدموا عليه " ، فيه منع معارضة متضمن الحكمة بالقدر ، وهو من مادة قوله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ (٢) ، وقد قال عيسى عليه السلام : المولى يجرب عبده وليس للعبد أن يجرب مولاه . قوله : " فلا تخرجوا فرارا منه " فيه إشارة إلى الوقوف مع المقدور والرضى به ، وأيضا فالبلاء إذا نزل إنما يقصد به أهل البقعة لا البقعة نفسها ، فمن أراد الله إنزال البلاء به فهو واقع به لا محالة ، فأينما تَوَجَّهَ يدركه ، فأرشده الشارع إلى عدم النَّصَب بالفرار الذي لا يغني عنه شيئا ، والله أعلم .

ومنها : ما زعم بعض أهل الطب أن البلد الذي يقع الوباء فيه تتكيف أرواح أهله بكيفية هواء تلك الأماكن وتألفها أمزجتهم ، وتصير لهم بمنزلة الأهوية الصحيحة لغيرهم ، فإذا انتقلوا إلى الأماكن الصحيحة الهواء ، لم توافقهم ، بل إذا استنشقوا الهواء الصحيح استصحب معه إلى القلب ما يجده من الأبخرة الرديئة التي حصل تكيف بدنه بها ، فيصل إلى القلب فيقع ذلك المرض الذي فر منه به ، فمنع من الفرار منه من هذه الحيثية . انتهى .

وهذا والمذكور أولا مبني على أن الوباء والطاعون مُتَّحِدَان ، وعلى أن سبب الطاعون فساد الهواء ، وقد قدمت في آخر الباب الأول ما يخالف ذلك ، فالمعتمد في الحكمة في ذلك ما تقدم نقله عن ابن خزيمة والطحاوي وابن عبد البر ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

* * *

---

(١) البخاري (٦/ ١٢٠) ٥٦ – كتاب الجهاد ، ١١٢ – باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يُقاتل أوَّل النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس.

ومسلم (٣/ ١٣٦٢) ٣٢ – كتاب الجهاد والسير ، ٦ – باب كراهة تمني لقاء العدو ، والأمر بالصبر عند اللقاء.

(٢) سورة البقرة: ١٩٥.

[الفصل الرابع]
ذكر كشف مشكل ما في هذا الباب الرابع

قوله : حزْقيل : بكسر الحاء المهملة وسكون الزاي وكسر القاف ، بعدها تحتانية ثم لام ، وأبوه بُورَى : بضم الموحدة وفتح الراء .

قوله : السدِّي : بضم السين وتشديد الدال المهملتين ثم ياء النسب .

قوله : واديًا أفْيَح : بالفاء الساكنة ثم التحتانية بوزن أهيل ، أي واسع .

قوله : هزقيل : هو الماضي لكن الهاء بدل الحاء المهملة لقرب المخرج .

قوله : سِحْنة : بكسر المهملة وسكون الحاء المهملة ثم نون ، أي علامة .

قوله : يساف : بفتح التحتانية ثم مهملة خفيفة وآخره فاء .

قوله : النضر : بالضاد المعجمة ، والخزاز بمعجمات .

قوله : ميسرة : بفتح الميم وسكون التحتانية بعدها مهملة .

والنَّهْدي : بفتح النون وسكون الهاء .

قوله حَكَّام : بفتح المهملة وتشديد الكاف .

وعَنْبَسة : بفتح المهملة وسكون النون بعدها موحدة ثم مهملة .

قوله : قَرْنا : بفتح القاف وسكون الراء أي حصن ، وأما بكسر القاف فمعناه النظير .

قوله : جُوَيْبِر : بجيم وموحدة ثم راء ، مصغر .

قوله : سُنَيْد : بمهملة ثم نون مصغر .

قوله : فَحَظَروا : بحاء مهملة وظاء معجمة ، والحظائر جمع حظيرة ، وهو كالحوش عليه حائط بغير باب .

قوله : أرْوَحَتْ : بحاء مهملة .

وأنتنت : بنون ومثناة من النتن .

قوله : مُوتان : بضم الميم وسكون الواو أي الموت الكثير ، ويقال : بفتح أوله وثانيه أيضا .

قوله : غميقة : بيانه مذكور في الأصل .

قوله : منيب : ضبط بالأصل .

قوله : نكب : بنون وكاف ثم موحدة ، أي : عدل عنه .

قوله : مَيسَّرَة بن معبد : بفتح الميم والمهملة وتشديد الراء .

قوله : جسر مومسة : مكان بالشام قرب الجابية .

قوله : خرْجان : بخاء معجمة وراء ساكنة ثم جيم ، هو الخراج بضم أوله وتخفيف الراء كالدمل .

قوله : ذرب كالدمل : بذال معجمة وراء مفتوحتين وآخره موحدة ، هو ما لايقبل العلاج .

قوله : الجابية : بجيم ثم موحدة ، اسم مكان معروف بالشام ، والجويبية تصغيرها ، وأو الشك من الراوي .

والحسن بن يحيى الخُشَني : بضم الخاء وفتح الشين المعجمتين ثم نون .

قوله : أبو واثلة : بمثلثة .

قوله : لا تحْفوا : بحاء مهملة ساكنة ثم فاء أي : لا تطيلوا .

قوله : أن تنزهوا : أي تبعدوا .

قوله : فَحَلّني : بحاء مهملة ، فعل أمر من الحِل بكسر أوله .

قوله : وكَأنْ : بهمزة مفتوحة بعدها نون ساكنة كلمة تقال لتقريب الشيء ، والمعنى كأنك به قد وقع .

قوله : فارْتَد : بسكون الراء وفتح المثناة ، فعل أمر من الارتياد وهو الاختيار .

قوله : الفَرْز : بفتح المعجمة وسكون الراء ، بعدها زاى ، هو ركب الكور .

قوله : سرَغ : مكان فسر بالأصل ، وهو بفتح المهملة والراء وقد تسكن ثم غين معجمة ، وقد ذكر البكري في المعجم أنها مدينة افتتحها أبو عبيدة هي واليرموك والجابية متصلة ، وقال ابن وضاح : بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة .

قوله : عِدوتان : بعين مهملة مكسورة وتضم أيضا ، أي : جانبان .

قوله : أكنت مُعَجِّزَه : بالتشديد من العجز ، أي ينسبه إلى العجز ، والمعنى أن الناس رعيتي فيجب عليَّ الاحتياط لها ، فإن تركته نسبت إلى العجز ، كما ينسب راعي الإبل إذا رعاها في المكان الجدب مع قدرته على رعيها في المكان الخصب والله أعلم .

قوله : فتكركر : أي رجع .

قوله : فلا تقدموا : بفتح أوله من القدوم ، وهو الأشهر ، ويروى بضم أوله من الإقدام .

قال أبو النضر : لا يخرجكم إلا فرارا منه : في هذا التركيب إشكال ، ولهذا عزاه مالك لأبي النضر ، وقد وجهوه بأن التقدير : لا يخرجكم شيء إلا الخروج فرارا منه .

قوله : حَوْثرة : بفتح المهملة وسكون الواو وبعدها مثلثة .

وأشْرس : بشين معجمة ثم سين مهملة بوزن أحمر .

قوله : قائلا : من القيلولة .

قوله : في خبائه : بخاء معجمة ثم موحدة ، أي : خيمته .

والفيء : الظل .

قوله : تضور : بضاد معجمة ، أي : قلق .

قوله : أفرق : فسر بالأصل .

قوله : مِجْلز : بكسر الميم وسكون الجيم بعدها زاي .

قوله : العُرَنيين : نسبة إلى عرينة ، بعين مهملة وراء ونون مصغر ، وحذفت ياء التصغير في النسب .

قوله : فروة : بفتح الفاء ، ابن مُسَيْك : بمهملة وكاف مصغر .

قوله : أبْيَن : بموحدة بوزن أحمر .

قوله : ومِيرتنا : بكسر الميم .

قوله : القَرَف : فسر في الأصل .

قوله : الشرِّيد : بفتح الشين .

قوله : لا عدوى : بفتح العين المهملة مقصور ، كانت العرب تعتقد أن المرض يعدي وينتقل إلى الصحيح ، فأنكر النبي ﷺ اعتقادهم ، وأبطل العدوى فقال : "لا يعدي شيء شيئا" .

قوله : ولا طِيَرة : بكسر الطاء المهملة وفتح التحتانية ، مأخوذة مما كانوا يعتادونه في الطير البارح والسانح من التشاؤم والتيامن ، وكان الواحد منهم إذا خرج فرأى الطير ذاهبا من جهة اليمين تيمن به واعتقد نجح حاجته وبالعكس ، ثم توسعوا في ذلك حتى كانوا يهيجونه على الطيران لذلك ، فأبطل ذلك الإسلام .

قوله : "مُمْرِض على مُصِح" : الممرض : بضم أوله ، الذي له إبل مرضى ، والمصح الذي له إبل صحاح .

النُّقْبة : بضم النون وسكون القاف بعدها موحدة ، أول شيء يظهر من الجرب ، وجمعها نُقْب ، بضم أوله وسكون ثانيه ، قيل لها ذلك لأنها تنقب الجلد .

***

الباب الخامس

في معرفة ما يشرع فعله في الطاعون بعد وقوعه

[وفيه خمسة فصول]

[الفصل الأول]

هل يشرع الدعاء برفعه أولا ؟

تقدم في الأبواب الماضية الأمر بمنع الخروج من البلد الذي وقع به فراراً من الطاعون ، والترغيب في الإقامة صابرا محتسباً عالماً بأنه لا يصيبه إلا ما كتب الله ، وهذا يتعلق بما إذا وقع في البلد عموما ، فأما إذا وقع بالمرء خصوصا ، فسأذكره بعد الفراغ مما يتعلق بوقوعه عاما .

ومما ينبغي لكل أحد : المبادرة إلى رد المظالم والتخلص من التبعات ، والتوبة من العود إلى شيء من معصية الله تعالى ، والندم على ما مضى من ذلك ، والوصية من غير أن يقع فيها حَيْف أو جَنَف ، وهذا مطلوب في كل وقت ويتأكد عند وقوع الأمراض عموماً ، ولمن وقع به خصوصا ، وبقي الكلام في ثلاث مسائل :

أحدها (١) : هل يشرع الدعاء برفعه أولا ؟ وعلى الأول هل يشرع الاجتماع لذلك ، أو يدعو كل واحد على انفراد بما يناسب حاله؟ وعلى الأول هل يختص الاجتماع للدعاء بذلك بالقنوت كما في النوازل في بعض المذاهب أو يشرع الخروج إلى الصحراء والاجتماع بها بعد الصوم كما في الاستسقاء؟

والجواب : أن الدعاء برفعه عن المسلمين الذين وقع ذلك ببلدهم مشروع اجتماعا وانفرادا ، في القنوت خاصة عند الشافعية بناء على أنه من جملة النوازل ، وقد قال الشافعي بمشروعية القنوت في النازلة ومثّلها الرافعي وغيره بالوباء والقحط ، وفسر جماعة الطاعون بأنه الوباء كما تقدم البحث فيه في الباب الأول ، فأنتج ذلك أنه يشرع القنوت برفع الطاعون .

قال الشافعي في الأم : إن قنت عند نازلة لم أكرهه ، وإن قنت في غير نازلة كرهته .

وقد توقف بعض المتأخرين من الشافعية في ذلك وقال : الطاعون أخص من الوباء ، وقد وقع في زمن خيار الصحابة ، ثم في زمن خيار التابعين ولم ينقل عن أحد منهم أنه قنت برفعه .

وهذا الذي قاله هذا المتأخر فيه نظر ؛ لأنه يستلزم الطعن في أصل مشروعية القنوت

---

(١) وستأتي المسألة الثانية ص : ٢٠٩ ، والمسألة الثالثة ص : ٢١٢.

في النازلة ، لا في خصوص القنوت في الطاعون ، والقنوت في النازلة نصٌّ عليه الشافعي صاحب المذهب ، فيلزم من كان على مذهبه أن يقول به إلا إن كان هذا المتأخر اختار ذلك رأيا له خارجا عن المذهب فيستقيم كلامه . فإن (نفس) (١) الدليل الذي استدل به على المنع في الطاعون ، استدل به صاحب الفروع من الحنابلة على منع القنوت في النازلة ، فقال : لا يقنت لرفع الوباء في الأظهر ؛ لأنه لم يثبت القنوت في طاعون عمواس ولا في غيره . (نعم ، وغير) (٢) الشافعية ليس القنوت عندهم مشروع أصلا .

– وأما مطلق الدعاء فالراجح مشروعيته ، بل يستحب لأهل الأرض السالمة الدعاء لأهل الأرض (التي يقع بها الوباء ، كما يستحب لأهل الأرض الخصبة الدعاء لأهل الأرض) (٣) الجدبة .

وقد نازع في ذلك بعض الحنابلة ، فقرأت في الجزء الذي جمعه المنبجي : أنه يكره الدعاء برفعه ؛ لأن معاذا امتنع من ذلك واعتل بكونه شهادة ورحمة ودعوة نبينا ﷺ لأمته ، قال : فلو كان مشروعا لما أحوجهم أن يسألوه بل كان يفعله من تلقاء نفسه ، بل لو كان مباحا لبادر بفعله عند سؤال الرعية له ما ظنوا أنه مصلحة لهم ، فلولا أنه غير مباح لبادر إلى إجابتهم ، ولا يرد على ذلك ورود الدعاء برفع الحمى ؛ لأن الموت بها لا يقع غالبا بخلاف الطاعون ؛ لأن الموت غالب به ، فيتضمن الدعاء برفعه الدعاء برفع الموت ، والموت حتم مقضي ، لا يتقدم ولا يتأخر من انقضى أجله طرفة عين . انتهى .

وهذا الذي قاله ضعيف ؛ فإن الاحتجاج في ترك الدعاء بالقدر يستلزم ترك الدعاء في جميع الأمور ، وترك الأسباب كلها ، وقد حكاه عياض عن بعض المتصوفة وبالغ في إنكاره ، والأحاديث في مشروعية الدعاء للمريض بالعافية والشفاء ، وكذلك الأحاديث في الاستعاذة من الجنون والجذام وسيئ الأسقام ، والاستعاذة من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء (٤) ، أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ، وكذا يستلزم التمسك بالقدر ترك التداوي في الأسقام مع ثبوته والإذن فيه في الأحاديث الصحيحة ، ولا شك

---

(١) في الحرم (نصٌّ).
(٢) في الرباط (وأما غير).
(٣) ما بين القوسين ساقط من الرباط.
(٤) الأدواء: جمع داء. (منه رحمه الله تعالى).

أن التداوي بالأدعية أنجع من التداوي بالعقاقير ، والطاعون ليس هو الموت ، وإنما هو مرض من الأمراض ، فيُدعى برفعه ويستعاذ منه كما في سائر الأمراض ، وإن كانت تكفر الذنوب والموت ببعضها شهادة ، وقد ثبت كما تقدم أنه من وخز الجان وقد أمرنا بالاستعاذة منهم .

وأيضا فإنه لا يجوز الدعاء به على أحد من المسلمين ؛ لأن فيه عموم بلاء فيمتنع ولو كان في ضمنه الشهادة ، كما لا يجوز الدعاء عليهم بالغرق والهدم ونحو ذلك ، بل في الطاعون من عموم الضرر أكثر من الغرق ، وكذا لا يجوز الدعاء على أحد من المسلمين بشئ من الأمراض ولو كان يحصل لمن وقعت له الأجور الكثيرة .

(فرع :

لا يباح الدعاء على أحد من المسلمين بالموت بغير موجب له ، وفي كلام الكرابيسي في أدب القضاء ما يشعر بكراهته دون تحريمه ، فإنه قال : لو دعا على غيره بالموت لم يجب عليه التعزير . ولعله لحظ أن الأجل لا يتقدم ولا يتأخر فلم ير للدعاء بتعجيله تأثيرا .) (١)

وقد جمع الشيخ ولي الدين الملوي جزءا جمعه في الدعاء برفع الوباء ، سماه " حَلّ الحُبا " (٢) وحصر شبه من منع الدعاء بذلك في خمسة أشياء :

أحدها : أن الطاعون رحمة ، فكيف يطلب رفعه؟

ثانيها : أن الصابر له مثل أجر شهيد ، فطلب رفعه تَبَرُّم بهذا الثواب الجزيل .

ثالثها : أن الإيمان بالقدر يقتضي أن لا يصيب أحدا إلا ما كتب له ، فطلب ما قدر رفعه تحصيل الحاصل ، وطلب ما قدر وقوعه مستحيل .

رابعها : ثبوت النهي عن الفرار منه ، وفي طلب رفعه نوع فرار .

خامسها : أن النبي ﷺ دعا به لأمته ، ففي طلب رفعه معارضة له .

---

(١) ما بين القوسين زيادة من الرباط وتيمور.

(٢) حل الحُبَا: بضم الحاء المهملة وتخفيف الموحدة ، جمع حُبْوة: بضم أوله وسكون ثانيه ، ثوب يلف به على الظهر والركبتين ، يستريح به الجالس ، وكأنه أراد أنه نهض في جمعه وحل حُبْوته ، أو أشار إلى أنه ينبغي النهوض في الدعاء. (منه رحمه الله تعالى).

وأجاب عن ذلك بجوابين : إجمالي وتفصيلي .

الأول : أن الدعاء برفع الوباء إذا ثبت شرعيته لم يُقْبَل منعه إلا بنهي صريح راجح على الإثبات . قال : وثبوت الشرعية حصل بأدلة ؛ منها : الدعاء للمريض بالعافية ، ومنها : الاستعاذة ، ومنها : التداوي . وساق الأحاديث في ذلك ، ومنها ما أخرجه ابن السني (١) من حديث عائشة : أن النبي ﷺ كان إذا أشرف على أرض يريد دخولها قال : " اللهم إني أسألك من خير هذه الأرض وخير ما جمعت فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جمعت فيها ، اللهم ارزقنا جناها (٢) ، وأعذنا من وباها ، وحببنا إلى أهلها ، وحبب صالحي أهلها إلينا " .

قلت : في سنده عيسى بن ميمون يرويه عن القاسم عن عائشة ، وعيسى ضعيف .

الثاني : ردُّ الإيرادات واحدة واحدة :

– أما كون الطاعون رحمة فإنه لا ينافي طلب رفعه ؛ لأن الرحمة شئ وأثرها أو سببها شئ آخر ، والآثار والأسباب تتفاوت مراتبها ، فرب أمر منها يطلب من الله ما هو أعلى منه .

– وأما كونه شهادة فهي حاصلة لمن أقام صابرا محتسبا راضيا بوقوعه إن لو وقع به ، سواء دعا برفعه أم لا ، والطلب من الله والالتجاء إليه مرغوب فيه مندوب إليه ، وغاية الطاعون أن يكون كملاقاة العدو ، وقد ثبت سؤال العافية منه ، ثم الصبر إذا وقع اللقاء ، فوزانه أن لا يتمنى الطاعون ويسأل العافية منه ، فإن قُدِّر نزوله به صبر واحتسب .

قلت : ويقوِّى ذلك بما قدمناه أنه من طعن أعدائنا من الجن ، ويكفي في امتثال الأمر بالصبر عند وقوعه عدم الفرار منه بالخروج من البلد التي يقع فيها إلى بلدة أخرى طلبا للنجاة منه ، وعدم التضجر منه والتبرم ، وليس ذلك مباينا لسؤال العبد ربه العافية ، ولا يعارض ذلك الإيمان بالقدر ؛ لاحتمال أن يكون الله تعالى جعل الدعاء سببا لسلامة الداعي من الطاعون ، فيجمع له أجر الشهيد بالصبر ، والعافية بالدعاء ، وكل ذلك من فضل الله ورحمته .

---

(١) عمل اليوم والليلة لأبي بكر بن السني ص: ١٥٤ حديث ٥٢٨.

(٢) جناها: بفتح الجيم وتخفيف النون ، أي: طيب ثمرها ، وأراد به الخير. (منه رحمه الله تعالى).

وقد ثبتت الاستعاذة في أمور كثيرة جاء أن صاحبها شهيد ، فقد أخرج أبو داود والنسائي وصححه الحاكم[1] من حديث أبي اليَسَر: أن رسول الله ﷺ كان يدعو :" اللهم إني أعوذ بك من الهدم ، وأعوذ بك من التردي ، وأعوذ بك من الغرق والحرق ، وأعوذ بك أن أموت لديغا " الحديث .

– وأما كونه مقدورا فحق وصدق ، ولا يستلزم منع الدعاء ، بل منع الدعاء من جنس ترك الأعمال الصالحة اتّكالا على ما قدر ، فيستلزم ترك جميع الأسباب المرتب عليها السعادة ، وتضاد مدح الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، وقد جاء من حديث أنس مرفوعا : " لا تعجزوا في الدعاء ، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد " صححه ابن حبان والحاكم[2] ، ومن حديث سلمان رفعه " لا يرد القضاء إلا الدعاء " أخرجه الترمذي[3] وصححه ابن حبان من حديث ثوبان ، وعن عائشة مرفوعا " لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان[4] " صححه الحاكم[5] ، فرد البلاء بالدعاء ، مثل دفع السهم بالترس ، وليس من شرط الإيمان بالقدر أن لا يحمل السهم ولا يتقي بالترس .

– وأما أن فيه نوعا من الفرار فممنوع ؛ فإن معنى النهي عن الفرار : أن لا يغالب القدر بالحول والقوة والحيلة ، فيشارك الذين ظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ، والدعاء بخلاف ذلك ، فإنه اعتراف من الداعي بالعجز عن الحول والحيلة ، مع ما فيه من الخضوع والتذلل ، فلا ينافي التسليم لأمر الله والتفويض لقضائه .

– وأما دعاء النبي ﷺ به لأمته فجوابه : أن في الدعاء برفعه معاضدة له ﷺ أن يرفع الهرج عن أمته ، ولا يمنع من ذلك قوله " اللهم فبالطاعون " ؛ لأنه ليس فيه طلب

---

(١) أبو داود (٢/٩٢) كتاب الصلاة ، باب في الاستعاذة.
النسائي (٨/٢٨٢) كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من التردي والهدم.
المستدرك (١/٥٣١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) ابن حبان: "موارد الظمآن" (ص ٥٩٦ ، ح ٢٣٩٨).
المستدرك(١/٤٩٣).

(٣) الترمذي (٤/٤٤٨) ٣٣ – كتاب القدر ، ٦ – باب ما جاء لا يرد القضاء إلا الدعاء.

(٤) فيعتلجان: بالجيم ، أي: يتصارعان ، وكأنه من المعالجة. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) المستدرك(١/٤٩٢).

ذلك ، بل معناه أن لا يجعل عليهم سبيلا لكافر ، وأن الآفة السماوية كافية في الفناء مع دوام العز ، فليس الطاعون مقصودا لذاته ، لا بقصد أول ولا بقصد ثان ، بل المقصود دوام العز ورد الذين كفروا بغيظهم ، وتطهير المؤمنين من دماء إخوانهم . انتهى ملخصا .

وجميع ما ذكره من الأجوبة مقبول إلا هذا الأخير ، فهو متعقب بما ثبت من الطلب الصريح كما تقدم بيانه في الباب الثالث ، والسبب في ذلك أنه اعتمد على حديث ذكره ابن الأثير في جامع الأصول عن أنس: أن النبي ﷺ سئل عن الطاعون ، فقال :" رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم حين سأل ربه أن يرفع الهرج عن أمته فمنع فقال : اللهم فناء بالطاعون والموت " وفي رواية " طعنا وطاعونا " ، وهذا الحديث لم يثبت ، والأحاديث المصرحة بقوله : " اللهم اجعل فناء أمتي قتلا في سبيلك بالطعن والطاعون " صحيحة ، وكأنه لم يقف عليها .

وأنا أتبرع عنه بالجواب وحاصله : أن دعاءه ﷺ لأمته بذلك لا يستلزم منع الدعاء برفع الطاعون إذا وقع ، فَيُنَزَّل طلب الوقوع على أن يقع ذلك لمن انقضى أجله بأن يموت به ليحصل له درجة الشهادة بأحد الأمرين ، ويُنَزَّل طلب الرفع على أن لا يقع ذلك عاما ، فيموت الجمع الكثير في الزمن اليسير ، فيقع بسبب ذلك من خراب غالب البلد ، وتعطيل كثير من المعايش ، وشماتة عدو الدين ، مالا يتوقف العالم عن الدعاء برفعه .

فكونه نازلة إنما جاء من إصابته للجم الغفير في الزمن اليسير ، بخلاف ما لو وقع الموت به لواحد بعد واحد ، وكونه رحمة ومَنْ يموت به يكون شهيدا لا يدفع كونه نازلة ، كما أن العدو إذا نازلوا بلد المسلمين فإنه لا يتوقف عن الدعاء للمسلمين بالسلامة والنصر على أعدائهم ، وإن كان من يموت بأيدي العدو حينئذ يكون شهيداً لا محالة .

وإلى هذا الجواب نحا تاج الدين السبكي ثم قال : هذا من حيث الدعاء برفعه مطلقا عن أهل البلد ، وأما دعاء الشخص الخاص لنفسه بأن لا يقع له ، فلا يظهر لي فيه محذور ؛ فإنه يسأل أن لا تنزل به عاهة ويعينها ، فكأنه قال : لا تسلط عليّ فلانا الظالم ، وقد دعا النبي ﷺ لأنس بطول العمر ، والخبر بذلك ثابت في الصحيح [1] ، وهو

---

(١) لعله يشير إلى ما رواه مسلم (١٩٢٨/٤) ٤٤ - كتاب الفضائل ، ٣٢ - باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه عن أنس ، عن أم سليم أنها قالت: يا رسول الله ، خادمك أنس ادع الله له. فقال: "اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما أعطيته".

صريح في جواز الدعاء بطول العمر ، ويؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ﴾ (١) إلى غير ذلك .

فرع :

(إذا جاز الدعاء بطول العمر فينبغي أن يتقيد بمن كان في بقائه منفعة للمسلمين) (٢) بل يندب ، فإن كان نفعه قاصرا على نفسه فهو دون الأول ، ومن عداهما قد يصل إلى الكراهة ، والتحريم إن اتصف بضدهما ، وإن لم يتصف فقد قال بعضهم : لا ينبغي لأحد أن يحب ما يحبه إبليس ، فإنه يحب طول البقاء ، والحق أن الضابط الرجوع إلى المتعلق والله أعلم .

قال العلماء : الأجل يزيد ولا ينقص ، ولكن فائدة الدعاء تتصور في أنه قد يجوز أن الله قدر أن زيدا عمره ثلاثون ، فإن دعا فأربعون ، فيقع أحد الأمرين ، وعلى هذا ينزل جميع أنواع الدعاء ، وإلا لم يكن له فائدة ، لأن الأشياء كلها بتقدير الله جلت قدرته .

قال تاج الدين السبكي : وأما دعاء معاذ فلم يكن بأن لا يرفع الله الوباء عن المسلمين ، بل كان طلب ذلك لنفسه لينال درجة الشهادة .

قلت : أو ليموت على خلوص من عمله وجهاده قبل حدوث الفتن ، كما تمنى ذلك غير واحد من الصحابة ، وصرحوا بالتعليل بذلك .

فمن ذلك : ما أخرجه أحمد (٣) من طريق عثمان بن عُمَيْر (٤) ، عن زاذان أبي عمر ، عن عُلَيْم (٥) – هو الكندي – قال : كنا جلوسا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبي ﷺ ، والناس يخرجون في الطاعون ، فقال الغفاري – وهو عبس : ياطاعون خذني . ثلاثا يقولها ، فقال له عُلَيْم : لم تقول هكذا ، ألم يقل رسول الله ﷺ : " لا يتمنى أحدكم الموت ، فإنه عند انقطاع عمله ، ولا يرد فيستعتِب (٦) " . فقال : إني سمعت

(١) سورة هود : ٣ .
(٢) ما بين القوسين ساقط من الرباط.
(٣) المسند (٣/٤٩٤).
(٤) عُمَيْر: بالتصغير. (منه رحمه الله تعالى).
(٥) عُلَيْم: بمهملة ولام مصغر. (منه رحمه الله تعالى).
(٦) فيستعتِب: بكسر المثناة قبل الموحدة التي في آخره. (منه رحمه الله تعالى).

رسول الله ﷺ يقول : " بادروا بالموت ستا : إمرة السفهاء ، وكثرة الشُرَط [1] ، وبيع الحكم ... " الحديث .

وأخرجه الطبراني في الأوسط وابن شاهين في الصحابة من طريق موسى الجهني ، عن زاذان : كنت مع رجل من أصحاب رسـول الله ﷺ ، يقال له عابس [2] أو ابن عابس ، على سطح فرأى الناس يتحملون ، فقال : ماللناس؟ قيل : يفرون من الطاعون . فذكره لكن قال : فقال له رجل كانت له صحبة . وقال فيه : " إمرة الصبيان ، وكثرة الشُرَط ، والأثرة في الحكم ... " الحديث .

وللحديث شاهد من حديث الحكم بن عمرو الغفاري أخرجه الطبراني بنحو سياق حديث عبس [3] .

وفي هذا الحديث فوائد منها :

– وقوع الفرار من الطاعون في زمن الصحابة ، وإنكار بعض الصحابة عليهم .

– وجواز تمني الموت خشية الوقوع في الفتنة .

– وحمل الضر المذكور في الحديث على الضر الدنيوي لا على الضر الديني والله أعلم .

وقدأخرج أحمد [4] من حديث عوف بن مالك أنه قال : ياطاعون خذني . فقالوا له : أليس قد سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما عمر المسلم كان خيرا له " قال : بلى ، ولكني أخاف شيئا : إمارة السفهاء ... الحديث . وهو شاهد لا بأس به للحديث الذي قبله .

* * * * *

---

(١) الشُرَط: بضم المعجمة ، وفتح الراء. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) عابس: بموحدة بعد الألف ، ثم سين مهملة. (منه رحمه الله تعالى).

(٣) المعجم الكبير (٢١٢/٣).

(٤) المسند (٢٢/٦).

فصل

وأما الامتناع من الدعاء أصلا ورأسا فقد حصل الجواب عنه ، وحاصله أنه غير محظور ؛ إذ ليس فيه محذور ، وقد قال ﷺ : " ولكن عافيتك أوسع لي (١) " . ومع ذلك فالمعتمد أنه يختلف باختلاف الأشخاص ، فمن قويَ يقينُه وغلب توكلُه فمقامُه أفضل المقامات فيفوِّض ويسلِّم ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأنه إن عوفي شكر ، وإن لم يعاف صبر ، بل ربما ارتقى عن ذلك درجة فطلب الشهادة كما وقع ذلك لغير واحد من الصحابة والسلف الصالح ، وعلى ذلك حمل أبو بكر الرازي عمل أبي عبيدة حيث أبَى الخروج من الشام ، وكذا معاذ حيث سأل الحظ الأوفر منه ، وكذا عمر حيث قال : اللهم ارزقني شهادة في سبيلك .

ومن لم يصل إلى هذه المرتبة فيسلِّم ويفوِّض ويفعل ما ثبت في صحيح مسلم عن أنس : أن رسول الله ﷺ أمر الصحابي الذي اشتد مرضه أن يدعو " اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي (٢) " .

فإن امرءاً خشي على نفسه فتنة في دينه ، فرجح جانب البلاء على جانب العافية ليسلم له دينه ، فهو مثاب على نيته كما وقع لعابس وعوف .

ومن كان بخلاف ذلك ، فطلب من ربه أن يعافيه من سقم حل به ، فهو جائز بشرط أن يستحضر أنه لا راد لما قضى الله وإن دعاه بذلك ، لاحتمال أن يكون الله قدره سببا لعافيته ، لا لأن الذي قدره الله يندفع بالحيلة ، ولا فرق في هذا بين من يصاب بالحمى أو بالطاعون أو بغيرهما من الأسقام .

ويرشد إلى التفصيل الذي ذكرته حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، أخرجاه في الصحيح (٣) عن ابن عباس ، مع الأحاديث الواردة بالإذن في الرقى والتداوي وغير

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢٢.

(٢) البخاري (١٠/١٢٧) ٧٥ - كتاب المرضى ، ١٩ - باب تمني المريض الموت.
مسلم (٤/٢٠٦٤) ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء ، ٤ - باب كراهة تمني الموت لضر نزل به.

(٣) البخاري (١٠/١٥٥) ٧٦ - كتاب الطب ، ١٧ - باب من اكتوى أو كوى غيره.
مسلم (١/١٩٨) ١ - كتاب الإيمان ، ٩٤ - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ذلك ، فليس الدعاء برفع البلاء ممنوعا ولا مُصَادماً للمقدور من حيث هو هو أصلا) (١)

– وأما الاجتماع له كما في الاستسقاء فبدعة حدثت في الطاعون الكبير سنة تسع وأربعين وسبعمائة بدمشق .

فقرأت في جزء المنبجي بعد إنكاره على مَنْ جمع الناس في موضع فصاروا يدعون ويصرخون صراخا عاليا ، وذلك في سنة أربع وستين وسبعمائة لما وقع الطاعون بدمشق ، فذكر أن ذلك حدث في سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وخرج الناس إلى الصحراء ، ومعظم أكابر البلد فدعوا واستغاثوا ، فعظم الطاعون بعد ذلك وكثر ، وكان قبل دعائهم أخف .

قلت : ووقع هذا في زماننا حين وقع أول الطاعون بالقاهرة ، في السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، فكان عدد من يموت بها دون الأربعين ، فخرجوا إلى الصحراء في الرابع من جمادى الأولى ، بعد أن نودي فيهم بصيام ثلاثة أيام كما في الاستسقاء ، واجتمعوا ودعوا وأقاموا ساعة ثم رجعوا ، فما انسلخ الشهر حتى صار عدد من يموت في كل يوم بالقاهرة فوق الألف ثم تزايد .

ووقع الاستفتاء عن ذلك فأفتى بعض الناس بمشروعية ذلك ، واستند فيه إلى العمومات الواردة في الدعاء ، واستند آخر إلى أنه وقع في زمن الملك المؤيد وأجْدَى ذلك وحضره جمع من العلماء فما أنكروه . وأفتى جماعة منهم بأن ترك ذلك أولى ، لما يخشى من الفتنة به إثباتا ونفيا ، لأنه إن أجدى لم يأمن خطر الدعوى ، وإن لم يجد لم يأمن سوء الظن بالعلماء والصلحاء والدعاء .

ونحوت هذا النحو في جوابي ، وأضفت إلى ذلك أنه لو كان مشروعا ما خفي على السلف ، ثم على فقهاء الأمصار وأتباعهم في الأعصار الماضية ، فلم يبلغنا في ذلك خبر ولا أثر عن المحدثين ، ولا فرع مسطور عن أحد من الفقهاء ، وألفاظ الدعاء وصفات الداعي لها خواص وأسرار يختص كل حادث بما يليق به ، والمعتمد في ذلك الاتباع ، لأنه لا مدخل للقياس في ذلك .

ومثال ذلك : أن ماورد في التخويف بالكسوفيين له هيئة تغاير ماورد في التخويف بالجدب ، وماورد في النازلة كالقحط والوباء – على رأي من رأى القنوت في ذلك – يغاير

---

(١) إلى هنا ينتهي السقط من نسخة الهند وكانت بدايته ص ١٣٧ .

ماورد في الكسوف والاستسقاء ، فالذي يأتي بهذا لهذا ، وبهذا لهذا ، يلتحق بمن أحدث في أمر الدين ما ليس منه فيرد عليه ، وقد نص الشافعي في الأم على أنه لا قنوت في الاستسقاء وهو يؤيد ما ذكرنا والله أعلم .

وهذا من الأسباب الحاملة لي على تبييض الكتاب بعد أن كنت جمعت منه أكثر الأحاديث وبعض الكلام عليها في سنة تسع عشرة وثمانمائة .

وكنت امتنعت من الخروج في هذه المرة الأخيرة ولا حضرت صحبة الملك المؤيد في تلك المرة – مع اختصاصي به – لهذا المعنى الذي أشرت إليه ، وقد وقع ما تخيلته من الأمرين معا في المرة الأولى وفي المرة الثانية ، وقيل ما قيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وأمر بعض من ينسب إلى الصلاح السلطان الأشرف ، مستندا إلى منام رآه فيما قيل ، أن يأمر الخطباء والمؤذنين والمدرسين والقصاص أن يختموا أدعيتهم بالدعاء بهذه الآية ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾[1] ، وسئلت عن ذلك فأجبت : بأن الأولى أن يكون بدلها ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ الآية[2] ، ومستندي في ذلك : أن هذه الآية وقع الإجداء بقولها لآدم فتاب الله عليه ورحمه ، والأخرى حكاها الله عن الكفار وعقّبها بالرد عليهم ، فالآية التي ذكرتها أولى في هذا المقام ، من هذا الوجه ومن عدة أوجه .

ثم وجدت في كتاب (ابن أبي الدنيا) : أن عمر بن عبد العزيز كتب لما وقعت الزلازل في زمانه إلى الأمصار : أن يجتمعوا للصلاة في وقت بعينه ، ومن عنده شيء)[3] فليتصدق ، فإن الله يقول : ﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى﴾ [4] ، وقولوا كما قال آدم : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ الآية .

تكملة

تقدمت قصة عمر بن عبد العزيز في أمره بالتصدق والدعاء بقوله : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ الآية ، وهذا أوقع[5] ما وقفت عليه في ذلك ، وهو وإن كان ورد في الزلزلة ،

---

(١) سورة الدخان: ١٢.

(٢) سورة الأعراف: ٢٣.

(٣) ما بين القوسين ساقط من الهند.

(٤) الأعلى: ١٤ ، ١٥.

(٥) في الحرم والهند (أرفع).

فلا يمتنع أن يفعل مثله في الطاعون ، والجامع وقوع التخويف بهما .

وقد ذكر عن الشيخ تقي الدين السبكي أنه كتب في الطاعون العام سنة تسع وأربعين إلى ولده أبي حامد : أن رجلا صالحا رأى النبي ﷺ في المنام بجامع بني أمية ، والناس حوله يسألونه رفع الوباء ، فقال لهم : قولوا : ياودود ، ياودود ، ياودود ، ياذا العرش المجيد ، (يامبدئ يامعيد) (٢) ، يافعال لما يريد ، أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك ، وبقدرتك التي قدرت بها على خلقك ، وبرحمتك التي وسعت كل شئ ، ارفع عنا هذا الوباء . انتهى .

وقد جاء هذا الدعاء في قصة التاجر واللص(٣) ، وذلك مما يبعد وقوع المنام المذكور ، مع احتمال صحته .

ومن ذلك ما ذكره الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة في جزء جمعه في الصلاة على النبي ﷺ، وذكر فيه أشياء في الطاعون ، قال : شاع بالقاهرة – يعني في سنة أربع وستين وسبعمائة – أن بعض الصالحين حين كثر الطاعون في المحلة ، ذكر أنه رأى النبي ﷺ في المنام ، وشكى إليه الحال ، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء : اللهم إنا نعوذ

---

(١) زيادة من الحرم وتيمور.

(٢) لعله يشير إلى ما يلي:

قال ابن القيم في كتاب الجواب الكافي ص : ١٢:

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين وفي الدعاء عن الحسن قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان تاجرا يتجر بمال له ولغيره ، يضرب به في الآفاق ، وكان ناسكا ورعا ، فخرج مرة فلقيه لص مقنع في السلاح ، فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك. قال: ما تريد من دمي؟ شأنك بالمال. قال: أما المال فلي ، ولست أريد إلا دمك. أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات. قال: صل ما بدا لك ، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات ، فكان من دعائه في آخر سجوده أن قال: ياودود ياودود ، ياذا العرش المجيد ، يافعالا لما تريد ، أسألك بعزك الذي لا يرام ، وبملكك الذي لا يضام ، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك : أن تكفيني شر هذا اللص ، يامغيث أغثني ، يامغيث أغثني. ثلاث مرات ، فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه ، فلما بصر به اللص أقبل نحوه ، فطعنه فقتله ، ثم أقبل إليه فقال: قم. فقال: من أنت بأبي وأمي؟ فقد أغاثني الله بك. فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة ، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة ، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي: دعاء مكروب. فسألت الله أن يوليني قتله. قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات ، ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب. أ هـ.

بك من الطعن والطاعون ، وعظيم البلاء في النفس والمال والأهل والولد ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر مما نخاف ونحذر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر عدد ذنوبنا حتى تغفر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم صاحب الكوثر (١) ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر كما شفعت نبيك فينا فأمهلنا ، وعمِّر بنا منازلنا ، ولا تهلكنا بذنوبنا يا أرحم الراحمين .

قلت : ويبعد صحة صدر هذا الدعاء ؛ لأنه مصادم لما ثبت عنه ﷺ أنه دعا بذلك لأمته ، فكيف يتصور أن يأمرهم أن يستعينوا مما دعا لهم به والله أعلم .

وذكر الأديب شهاب الدين بن أبي حجلة في جزء جمعه في الطاعون : أن بعض الصالحين ذكر له أن من أعظم الأشياء الدافعة للطاعون وغيره من البلايا العظام ، كثرة الصلاة على النبي ﷺ ، وأنه ذكر ذلك للشيخ شمس الدين بن خطيب بيرود فاستصوبه واستدل له بحديث أبي بن كعب : أن رجلا قال للنبي ﷺ : أجعل لك نصف صلاتي ... الحديث ، وفي آخره : أجعل لك صلاتي كلها؟ قال : " إذاً تكفى همك ، ويغفر ذنبك " . أخرجه الحاكم وصححه (٢) وسنده قوي والله أعلم .

فرع :

لم أقف في شيء من كتب الفقهاء على تعيين ما يدعو به في القنوت في النوازل ، والذي يظهر أنهم وكلوا ذلك إلى فهم السامع ، وأنه يدعو في كل نازلة بما يناسبها .

وذكر الزركشي أن بعض السلف كان يدعو عقب صلاته : اللهم إنا نعوذ بك من عظيم البلاء في النفس والأهل والمال والولد ، (الله أكبر - ثلاثا - مما نخاف ونحذر ، الله أكبر - ثلاثا - عدد ذنوبنا حتى تغفر ، اللهم كما شفعت نبينا محمدا فينا فأمهلنا وعمر بنا منازلنا ، ولا تؤاخذنا بسوء فعالنا ، ولا تهلكنا بخطايانا يارب العالمين .) (٣) وذكر أشياء اقتصرت منها على هذا القدر .

وثَمَّ فروع أخرى في كونه هل يتوقف على إذن الإمام أو لا؟ ونحو ذلك ، لم أر الإطالة بها .

---

(١) (صاحب الكوثر) من الحرم وتيمور.

(٢) المستدرك (٤٢١/٢ ، ٥١٣) وصححه ووافقه الذهبي.
والترمذي (٦٣٦/٤) ٣٨ - كتاب صفة القيامة ، باب ٢٣.

(٣) ما بين القوسين جاء في نسخة تيمور هكذا: (فذكر ما تقدم عن ابن أبي حجلة) وكأنه تصرف من الناسخ والله أعلم.

[الفصل الثاني]

هل الطاعون إذا وقع عاما بالنسبة للشخص الواحد كالمرض المخوف إذا حصل له أو لا ؟

المسألة الثانية :

قال تاج الدين : اختلف أصحابنا إذا ظهر الطاعون في بلد هل هو مخوف أوْ لا؟ على وجهين ، وهما جاريان فيما إذا فشا الموت في البلد ، وأصحهما عند صاحب التهذيب أنه مخوف ، وحكاه الإمام عن النص ، وهو الذي صححه الرافعي والنووي ، وجزم الماوردي في الحاوي بمقابله .

قلت : وهو اختيار أكثر العراقيين ، وعبارة البندنيجي منهم بعد أن حكى قول الشافعي : (الطاعون مخوف حتى يذهب . أي أن الإنسان إذا ضَرَبَه الطاعون فهو مخوف حتى يذهب . انتهى .

وكلام الشافعي) (١) يحتمل الوجهين وليس نصا في أحدهما ، والخلاف في هذا نظير الخلاف فيمن اعترضه الأسد أو وقع الحريق في دار هو فيها ، فإنه يعد أخذ الأسد له أو وصول النار إلى شئ من جسده مخوف ، وقبل ذلك على الخلاف .

وفائدة الخلاف تظهر في التصرف في تلك الحالة ، فمن خصه بمن نزل به أنفذ تصرفاته من رأس المال ، ومن جعله مخوفا إذا ظهر خصها بالثلث ولو لم ينزل به إلى أن يرتفع ، فإن مات المذكور استمر اختصاصها بالثلث ، وإن لم يمت تبين أنه لم يكن مخوفا في حقه كسائر الأمراض المخوفة . وقد جزم الفوراني بما صححه صاحب التهذيب ، ويحتمل أن يكون الإمام وقف على نص للشافعي أصرح من الذي ذكره في الأم ، فإن لفظ الإمام في النهاية : نص الشافعي على أن الرجل إذا كان في قطر وقع فيه الطاعون وعمَّ طريانه ، فَأمْر المقيم في ذلك القطر مخوف وإن لم يطعن بعد .

ونقل الروياني الخلاف وصحح ما جزم به الماوردي ، واستدل القاضي حسين لأنه مخوف بنهي النبي ﷺ عن الخروج من البلد الذي وقع فيه ، قال : ووجه الدلالة منه أنه إذا وقع ببلد يصيب جميع أهله .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الهند .

كذا قال ، وليست هذه الدلالة ظاهرة ، ولو كان كذلك لاستمر الحكم فيمن خرج من البلد المذكور غير فارٍ من الطاعون بل لأمر آخر كما تقدم ، فلم يحسب تصرفه إلا من الثلث ، ولا أحسب أحدا يقول بذلك .

وحاول الزركشي تنزيل الوجهين على حالين ، فالقول بأنه مخوف عند ظهوره في الحالة التي يقع فيها فاشيا جدا ، بحيث يقيم الأيام اليسيرة ويذهب أكثر أهل البلد ، حتى تجيف الموتى في بيوتهم ، وتغلق عليهم أبوابها لعدم من يتفرغ لدفنهم ، كما حكى عن طاعون الجارف .

والقول بأنه غير مخوف إلا في حق من نزل به حيث يقع ويفشو ، لكن يقع الموت فيه بالتدريج ويمتد زمانه ، كما وقع كثيرا في الأزمان المتأخرة . وهو تفصيل حسن ، (ويلتحق بذلك ما إذا فشا فشوا ظاهرا في طائفة من أهل البلد دون طائفة ، كما لو فشا في الرقيق والأطفال دون الرجال والأكابر فكان فيهم نادرا ، فإنه يقوي القول بأنه في هذه الحالة غير مخوف والله أعلم .)(١) وحكى المنبجي عن مذهب أحمد روايتين ، وقال : نص في رواية إسحاق بن منصور وقد سئل عن الطاعون وركوب البحر وحضور القتل فقال : لا يجوز إلا من الثلث . فكان فشو الطاعون مثل ركوب البحر ، ومن نزل به الطاعون مثل من انكسرت به المركب مثلا ، والرواية الثانية عن أحمد : يجوز من رأس المال . يعني حتى ينزل به ، رواها صالح بن أحمد عن أبيه .

قال : ووجه الأولى : أن الموت فيه متوقع فصار كما لو حضر بين الصفين ، فلا يأمن من أن يصاب بما أصيب به غيره ؛ لأنه يرى الموت يتخطف جيرانه ، بل وبعض من في منزله ، فسلامته منه ليست غالبة .

ووجه الثانية : أن عطية الأصحَّاء نافذة من رأس المال ، وهذا صحيح البدن ، ودعوى الأطباء أن الطاعون ناشئ من فساد الهواء ، فيعم كل من استنشقه مردودة كما تقدم ، ووجود السبب العام لا يساوي وجود السبب الخاص ؛ فإن صاحب السبب الخاص قد أصيب ، وصاحب السبب العام لم يُصب بعد ، فكيف يتساوى من يتوقع المرض الذي يتوقع منه الموت ، ومن يتوقع الموت . انتهى .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من تركيا والرباط.

ثم قال المنبجي : لم أر للمالكية والحنفية في ذلك كلاما .

(قلت : والمسألة منقولة في كتب المالكية وعندهم فيها روايتان ، المرجح منها عندهم أن حكمه حكم الصحيح ، وأما الحنفية) [1] فلم ينصوا على خصوص المسألة ، ولكن قواعدهم تقتضي أن يكون الحكم كما هو المصحح عند المالكية ، هكذا قال لي جماعة من علمائهم ، ويحصل من ذلك أن المرجح عند متأخري الشافعية مرجوح عند أكثر العلماء من غيرهم والله أعلم .

ويتفرع على كونه في حكم المرض المخوف ما ذكر من الخلاف في من نزل به المرض المخوف إذا طلق امرأته طلاقا بائنا ، هل ترثه إذا مات وهي في العدة كما هو القول القديم أولا؟ وغير ذلك من الفروع .

وأما استحباب أن يكون ميله إلى الرجاء أكثر من الخوف أو يساوي بينهما فظاهر في الحالة المذكورة إذا قلنا مخوفاً .

وأما المبادرة إلى رد المظالم والتبعات ، والتوبة من الذنوب والمخالفات ، والاستغفار من الدخول فيما لا يعنيه ، فلا شك في استحبابه ، بل وجوبه على الحالين ، بل هو مشروع في كل حال ، إلا أنه يتأكد في حق المريض ولو كان مرضه غير مخوف ، وعند وقوع الموت العام آكد للخلاف في كونه مخوفا ، ويزداد تأكده في المخوف ، وهو في حق من نزل به الطاعون آكد ، والله أعلم .

***

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الرباط.

[الفصل الثالث]
في بيان ما يحترز به أيام وقوع الطاعون وغيره من الأمراض العامة واتصل بذلك الكلام على العدوى أيضا

المسألة الثالثة :

تستنبط من أحد الأوجه في النهي عن الدخول إلى بلد الطاعون . وهو منع التعرض إلى البلاء ، ومن الأدلة الدالة على مشروعية الدواء ، التحرز في أيام الوباء من أمور أوصى بها حذاق الأطباء مثل : إخراج الرطوبات الفضلية ، وتقليل الغذاء ، وترك الرياضة ، والمكث في الحمام ، وملازمة السكون والدعة ، وأن لا يكثر من استنشاق الهواء الذي عفن .

وصرح الرئيس أبو علي بن سينا بأن أول شئ يبدأ به في علاج الطاعون الشرط إن أمكن ، فيسيل ما فيه ولا يترك حتى يجمد فتزداد سميته ، فإن احتيج إلى مصه بالمحجمة فليفعل بلطف .

وقال أيضا : يعالج الطاعون بما يقبض ويبرد ، بإسفنجة مغموسة في خل وماء ، أو دهن ورد ، أو دهن تفاح ، أو دهن آس ، ويعالج بالاستفراغ بالفصد بما يحتمله الوقت ، أو يوجر ما يخرج الخلط ، ثم يقبل على القلب بالحفظ والتقوية بالمبردات والمعطرات ، ويجعل على القلب من أدوية أصحاب الخفقان الجبائر .

قلت : وقد أغفل الأطباء في عصرنا وما قبله هذا التدبير ، فوقع التفريط الشديد من تواطئهم على عدم التعرض لصاحب الطاعون بإخراج الدم ، حتى شاع ذلك فيهم وذاع ، بحيث صار عامتهم يعتقد تحريم ذلك ، وهذا النقل عن رئيسهم يخالف ما اعتمدوه ، والعقل يوافقه كما تقدم أن الطعن يثير الدم الكائن فيهيج في البدن ، فيصل إلى مكان منه ، ثم يصل أثر ضرره إلى القلب فيقتل ، ولذلك قال ابن سينا لما ذكر العلاج بالشرط أو الفصد : إنه واجب .

وذكر جمع من الأطباء فيما يحذره الصحيح في زمن الطاعون : مخالطة من أصابه الطاعون .

قال القاضي تاج الدين : قد رأينا العامة تمتنع من ذلك ، حتى تركوا عيادة المطعون ، والذي نقوله في ذلك : إن شهد طبيبان عارفان مسلمان عدلان أن ذلك سبب في أذى المخالِط ، فالامتناع من مخالطته جائز ، وأبلغ من ذلك .

قلت : لا تقبل شهادة من يشهد بذلك ؛ لأن الحس يكذبه ، فهذه الطواعين قد تكرر وجودها [1] في الديار المصرية والشامية ، وقلَّ أن يخلو بيت منها ويوجد به مَنْ أصيب به مَنْ يقوم عليه من أهله وخاصته ، ومخالطتهم له أشد من مخالطة الأجانب قطعا ، والكثير منهم بل الأكثر سالم من ذلك ، فمن شهد بأن ذلك سبب في أذى المخالِط فهو مكابر ، وقد تقدم من الكلام في إبطال العدوى ما يغني عن إعادته ، وتاج الدين - رحمه الله - جرى على إثبات العدوى بطريق العادة ، وأن الذي ورد في نفي العدوى إنما المراد به أنها لا تعدي بطبعها .

وقد قال القرطبي في المفهم : العدوى من أوهام جهال العرب ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن المريض إذا دخل في الأصحاء أمرضهم ، فنفى النبي ﷺ ذلك وأبطله ، وأزاح شبهتهم بكلمة واحدة وهو قوله : " فمن أعدى الأول " ؟ ومعناه : من أين جاء الجرب ، أمِنْ بعير آخر أجربه ، فيلزم التسلسل إلى ما لا نهاية له وهو محال ، أو من سبب غير البعير ، فالذي فعل الجرب الأول هو فعل الجرب الثاني ، وهو الله الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء .

قال : وهذه الشبهة التي وقعت لهؤلاء ، هي التي وقعت للطبائعيين أولا ، فقالوا بتأثير الأشياء بعضها في بعض ، وسموا المؤثر طبيعة ، وللمعتزلة ثانيا في أفعال الحيوانات وقالوا : إن قدرتهم مؤثرة فيها بالإيجاد ، وأنهم الخالقون لأفعالهم مستقلون باختراعها ، واستند الطائفتان إلى المشاهدة الحسية ، وربما نسبوا منكر ذلك إلى إنكار البديهية وهو غلط ، وسببه التباس إدراك الحس بإدراك العقل ، فإن الذي شاهده إنما هو تأثير شيء عند شيء آخر وهذا حظ الحس ، أما تأثيره فيه فلا يدرك حساً بل عقلاً ، والله أعلم .

قلت : فالمحصل من المذاهب في العدوى أربعة :

الأول : أن المرض يعدي بطبعه صرفا ، وهذا قول الكفار .

---

(١) في الرباط (دخولها).

الثاني : أن المرض يعدي بأمر خلقه الله تعالى فيه ، وأودعه فيه لا ينفك عنه أصلا ، إلا إن وقع لصاحب معجزة أو كرامة فيتخلف ، وهو مذهب إسلامي لكنه مرجوح .

الثالث : أن المرض يعدي لكن لا بطبعه ، بل بعادة أجراها الله تعالى فيه غالبا ، كما أجرى العادة بإحراق النار ، وقد يتخلف ذلك بإرادة الله ، لكن التخلف نادراً في العادة .

الرابع : أن المرض لا يعدي بطبعه أصلا ، بل من اتفق له وقوع ذلك المرض فهو بخلق الله سبحانه وتعالى ذلك فيه ابتداءً ، ولهذا يُرى الكثير ممن يصيبه المرض الذي يقال إنه يعدي ، يخالطه الصحيح كثيرا ولا يصيبه شئ ، ويُرى الكثير ممن لم يخالط صاحب ذلك المرض أصلا ، يصيبه ذلك المرض ، وكل ذلك بتقدير الله .

والمذهبان الأخيران مشهوران ، والذي يترجح في باب العدوى هو المذهب الأخير ، عملا بعموم قوله ﷺ : " لا يعدي شئ شيئا " ، وقوله ﷺ ردا على من أثبت العدوى : " فمن أعدى الأول " ، كما تقدم تقريره (١) والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * * * *

* * *

*

(١) زاد هنا في نسخة تيمور (في الباب الرابع في الفصل الثاني منه عند مساق الكلام في بيان الجمع بين حديثي العدوى) وكأنها زيادة من الناسخ.

[الفصل الرابع]

ذكر الآداب المتعلقة بمن أصابه الطاعون أو غيره من الأسقام

الأدب الأول : سؤال الله العافية والاستعاذة من السقم .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ادعو ربكم تضرعا وخيفة ﴾ (١)

وقال النبي ﷺ : " ياعباس ، أكثر من الدعاء بالعافية " أخرجه الحاكم (٢) من حديث (٣) ابن عباس وصححه .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : " ما سئل الله شيئا أحب إليه من العافية " . أخرجه الترمذي (٤) واستغربه ، وصححه الحاكم فوهم ؛ فإن في سنده ضعفا (٥) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " ما من دعوة يدعو بها العبد أفضل من : اللهم إني أسألك المعافاة في الدنيا والآخرة" . أخرجه ابن ماجة (٦) ، ورواته ثقات (مخرج لهم في الصحيحين ، إلا أنه من رواية العلاء بن زياد البصري عن أبي هريرة ، وفي سماعه من أبي هريرة عندي نظر .) (٧)

وعن أبي بكر الصديق عن النبي ﷺ قال : " إن الناس لم يعطوا بعد اليقين خيرا من العافية" . أخرجه الترمذي والنسائي (٨) من طرق بعضها صحيح .

وعن عثمان بن أبي العاص : أنه شكى إلى النبي ﷺ وجعا يجده في جسده فقال : " ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل : بسم الله ثلاثا . وقل سبع مرات : أعوذ

---

(١) الأعراف: ٥٥.

(٢) المستدرك (٥٢٩/١) وقال: صحيح على شرط البخاري.

(٣) في الرباط (طريق).

(٤) الترمذي (٥٥٢/٥) ٤٩ - كتاب الدعوات ، ١٠٢ - باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم.

(٥) في الرباط (ضعيفا).

(٦) ابن ماجة (١٢٦٦/٢) ٣٤ - كتاب الدعاء ٥ - باب الدعاء بالعفو والعافية.

(٧) ما بين القوسين ساقط من تيمور.

(٨) الترمذي (٥٥٧/٥) ٤٩ - كتاب الدعوات ، باب ١٠٦.
النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٥٠١ وما بعدها).

بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . رواه مسلم ومالك [1] وعنده " أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد" ، وكذا أخرجه أبو داود والترمذي [2] وفيه " امسح بيمينك" ، وعند الترمذي [3] نحوه من حديث أنس وزاد : أنه يرفع يده في كل مرة .

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : خرج عليّ خراج في عنقي فتخوفت منه ، فأخبرت عائشة فقلت : سلي لي رسول الله ﷺ ، فسألته فقال : " ضعي يدك عليه ثم قولي ثلاث مرات : بسم الله ، اللهم أذْهِبْ عني شر ما أجد وفحشَه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك ، بسم الله" . قالت : فقلتها فذهب . أخرجه الطبراني في الدعاء [4] .

وعن أبي الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من اشتكى منكم شيئا أو اشتكاه أخ له فليقل : ربنا الله الذي في السماء ، تقدس اسمك ، أمرك في السماء والأرض ، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض ، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا ، أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك ، وشفاء من شفائك على هذا الوجع . فيبرأ (بإذن الله) [5] " أخرجه أبو داود [6] .

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا من الأوجاع كلها ومن الحمى : " بسم الله الكبير ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عِرْقٍ نعَّار ، ومن شر حر النار" . أخرجه الطبراني والترمذي وابن ماجة [7] ، وسيأتي شئ من هذا في آخر العيادة .

---

(١) مسلم (١٧٢٨/٤) ٣٩ - كتاب السلام ، ٢٤ - باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء.
الموطأ (٩٤٢/٢) ٥٠ - كتاب العين ، ٤ - باب التعوذ والرقية في المرض.

(٢) أبو داود (١٢/٤) كتاب الطب ، باب كيف الرقى .
الترمذي (٤٠٨/٤) ٢٩ - كتاب الطب ، باب ٢٩.

(٣) الترمذي (٥٧٤/٥) ٤٩ - كتاب الدعوات ، ٢٦ - باب في الرقية إذا اشتكى.

(٤) الطبراني في كتاب الدعاء (١٣٣٦/٣) حديث ١١٣٥.

(٥) زيادة من الحرم.

(٦) أبو داود (١٢/٤) كتاب الطب ، باب كيف الرقى .

(٧) المعجم الكبير (٢٢٥/١١).
الترمذي (٤٠٥/٤) ٢٩ - كتاب الطب ، باب ٢٦.
ابن ماجة (١١٦٥/٢) ٣١ - كتاب الطب ، ٣٧ - باب ما يعوذ به من الحمى.

الأدب الثاني : الصبر على قضاء الله والرضى بما يقدره ، وبيان ما في ذلك باختصار :

عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ : " عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره له كله خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له" . رواه مسلم(1) .

وعن سخبرة(2) قال : قال رسول الله ﷺ : " من أعطي فشكر ، وابتلي فصبر وظُلم فاستغفر ، وظَلم فغفر" . قالوا : يارسول الله ماله؟ قال : " أولئك لهم الأمن وهم مهتدون" . أخرجه أبو نعيم في كتاب المعرفة بسند ليِّن .

وعن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : " من يرد الله به خيرا يصب منه" . أخرجهالبخاري(3) .

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : " إذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع " . أخرجه أحمد ورواته ثقات ، وأخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجة(4) من حديث أنس ولفظه : " إن عُظم(5) الجزاء مع عُظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط " .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل ، فما يزال يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها" . أخرجه ابن حبان في صحيحه ، وأخرجه أحمد وأبو داود(6) من طريق محمد بن خالد عن أبيه عن جده قال :

---

(1) مسلم (2295/4) 53 - كتاب الزهد والرقائق 13 - باب المؤمن كله خير .
(2) سخبرة : بفتح المهملة ، بعدها معجمة ساكنة ، ثم موحدة مفتوحة ، ثم راء ، ثم هاء ، هو الأزدي (منه رحمه الله) .
(3) البخاري (103/10) 75 - كتاب المرضى ، 1 - باب ما جاء في كفارة المرضى.
(4) المسند (427/5).
الترمذي (601/4) 37 - كتاب الزهد ، 56 - باب ما جاء في الصبر على البلاء.
ابن ماجة (1338/2) 36 - كتاب الفتن ، 23 - باب الصبر على البلاء.
(5) عظم : بضم العين المهملة ، وسكون الظاء المعجمة. (منه رحمه الله تعالى).
(6) سبق تخريجه ص 128 .

سمعت رسول الله ﷺ : فذكر نحوه ، وقال : " ابتلاه الله في جسده أو ماله أو ولده ، ثم صبّره على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له" .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ : " ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه" . أخرجاه في الصحيحين واللفظ للبخاري[1] . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : " من أصيب بمصيبة في ماله أو في نفسه ، فكتمها ولم يشكها إلى الناس ، كان حقا على الله أن يغفر له" . أخرجه الطبراني بسند لا بأس به[2] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " قال الله عز وجل : إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عواده ، أطلقته من إساري[3] ، ثم أبدلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، ثم يستأنف العمل" . أخرجه الحاكم[4] وصححه ، وأصله في الموطأ[5] من مرسل عطاء بن يسار بمعناه ، وقال بدل قوله : " فلم يشكني إلى عواده" : " حمد الله وأثنى عليه" ، وفيه : " وإن توفيته أن أدخله الجنة " .

وعن عائشة : أن النبي ﷺ قال : " إذا اشتكى المؤمن أخلصه الله من الذنوب كما يخلص الكير خَبَث الحديد[6] " . أخرجه الطبراني وصححه ابن حبان[7] .

الأدب الثالث : في الترغيب في حسن الظن بالله تعالى .

وهو يتأكد في حق من وقع في الأمراض المخوفة ، وطريق من وقع له ذلك أن

---

(١) البخاري (١٠/١٠٣) ٧٥ - كتاب المرضى ، ١ - باب ما جاء في كفارة المرضى.
مسلم (٤/١٩٩٢) ٤٥ - كتاب البر والصلة ، ١٤ - باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك.

(٢) المعجم الكبير (١١/١٨٤).

(٣) إساري: بكسر الهمزة ، بعدها مهملة خفيفة. (منه رحمه الله تعالى).

(٤) المستدرك (١/٣٤٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٥) الموطأ (٢/٩٤٠) ٥٠ - كتاب العين ، ٣ - باب ما جاء في أجر المريض.

(٦) خبث الحديد: بفتح الخاء المعجمة ، والموحدة ، بعدها مثلثة ، هو وسخه. (منه رحمه الله تعالى).

(٧) ابن حبان: "موارد الظمآن" (ص ١٦٩ ، ح ٦٩٥).
وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٣٠٢) وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات ، إلا أني لم أعرف شيخ الطبراني.

يستحضر أنه حقير في مخلوقات الله تعالى ، وأن رحمة الله تَسَع أمثال أمثال أمثاله ، وأن الله غني عن تعذيبه ، ويعترف بذنوبه وتقصيره ، ويعتقد أنه لا ينفعه في الصفح والعفو عنها عمله ، ولا شفاعة غيره إن لم يأذن الله في ذلك ، ويستحضر آيات الرجاء وأحاديثها .

قال معتمر بن سليمان : قال لي أبي عند موته : حدثني بالرخص لعلي ألقى الله وأنا حسن الظن به .

ويتوجه بكليته إلى سؤال ربه أن يختم له بالحسنى ، ويميته على التوحيد .

ومن أحسن ما ورد في حسن الظن ، ما ثبت في صحيح البخاري[(١)] عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال : " سيد الاستغفار : اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء[(٢)] لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة ، ومن قالها حين يمسي فمات من ليلته دخل الجنة " .

وأخرج الترمذي[(٣)] من حديث أبي سعيد بسند حسن مرفوعا : " من قال لا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، لا إله إلا الله ، ولا قوة إلا بالله ، من قالها في مرضه ثم مات لم تطعمه النار " .

الأدب الرابع : في العيادة وفضلها .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " من عاد مريضا ناداه مناد من السماء : طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلا " . أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن حبان وصححه[(٤)] .

---

(١) البخاري (١١/٩٧) ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٢ - باب أفضل الاستغفار.
(٢) أبوء: بموحدة مضمومة ومدة ، أي: أعترف. (منه رحمه الله تعالى).
(٣) الترمذي (٥/٤٩٢) ٤٩ - كتاب الدعوات ، ٣٧ - باب ما يقول العبد إذا مرض.
(٤) الترمذي (٤/٣٦٥) ٢٨ - كتاب البر والصلة ، ٦٤ - باب ما جاء في زيارة الإخوان.
ابن حبان: "موارد الظمآن" (ص ١٨٣ ، ح ٧١٢).

وعن ثوبان ، عن رسول الله ﷺ قال : " إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع" . قالوا : يا رسول الله ، ما خرفة الجنة؟ قال : " جناها " [1] أخرجه مسلم [2] .

وعن علي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما من مسلم يعود مسلما غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي ، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة" . رواه الترمذي وحسنه وقال : وقد روي موقوفا [3] . وكذا أخرجه أحمد وأبو داود موقوفا ومرفوعا [4] .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : " من عاد مريضا لم يزل يخوض في الرحمة حتى يجلس ، فإذا جلس اغتمس فيها" أخرجه مالك بلاغا ، وأحمد والبزار ، وصححه ابن حبان [5] .

وعن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : " من عاد مريضا لم يحضر أجله ، فقال عنده سبع مرات : أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم أن يشفيك . إلا عافاه الله من ذلك المرض" . أخرجه أصحاب السنن ، وصححه ابن حبان [6] .

---

(١) خُرْفة الجنة: بضم الخاء المعجمة ، وسكون الراء ، بعدها فاء ، فسرها في الحديث أنه جناها: بفتح الجيم وتخفيف النون وهو ما يجنى ، أي: ما يقطف من الثمار ، وإنما قيل له خرفة ؛ لأنه يقع غالبا في الحجاز في الخريف ، ويقال للروض خريف لذلك. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) مسلم (١٩٨٩/٤) ٤٥ - كتاب البر والصلة ، ١٣ - باب فضل عيادة المريض.

(٣) الترمذي (٢٩١/٣) ٨ - كتاب الجنائز ، ٢ - باب ما جاء في عيادة المريض.

(٤) المسند (١٢١/١).
أبو داود ١٨٥/٣) كتاب الجنائز ، باب في فضل العيادة.

(٥) الموطأ (٩٤٦/٢) ٥٠ - كتاب العين ، ٧ - باب عيادة المريض والطيرة.
المسند (٣٠٤/٣).
البزار: "كشف الأستار" (٣٦٨/١).
ابن حبان: "موارد الظمآن" (ص ١٨٣ ، ح ٧١١).

(٦) أبو داود (١٨٧/٣) كتاب الجنائز ، باب الدعاء للمريض عند العيادة.
الترمذي (٤١٠/٤) ٢٩ - كتاب الطب ، باب ٣٢.
النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٥٦٩) ، ح ١٠٤٣).
ابن حبان: "موارد الظمآن" (ص ١٨٣ ، ح ٧١٤).

وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : " إذا دخلتم على المريض فنفسوا له (١) في أجله ، فإن ذلك لا يرد شيئا ، وهو يطيب نفس المريض" . أخرجه الترمذي وابن ماجة بسند ليِّن (٢) .

ويدخل فيه حديث ابن عباس : أن النبي ﷺ عاد أعرابيا ، وكان إذا دخل على من يعوده قال : " لا بأس طهور إن شاء الله" . الحديث في الصحيح (٣) .

وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عاد مريضا مسح وجهه وصدره بيده وقال : " اذهب الباس ، رب الناس ، واشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر (٤) سقما" . أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة (٥) .

وفي رواية (٦) : " امسح الباس ، رب الناس ، بيدك الشفاء ، لا كاشف له إلا أنت " .

وعن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : " إذا جاء الرجل يعود مريضا فليقل : اللهم اشف عبدك ، يَنْكأ (٧) لك عدوا ، ويمشي إلى صلاة " . أخرجه أبو داود (٨)

---

(١) فنفسوا له: بفاء ومهملة ، من التفتيش ، أي: وسعوا له في أجله. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) الترمذي (٤١٢/٤) ٢٩ – كتاب الطب ، باب ٣٥.
ابن ماجة (٤٦٢/١) ٦ – كتاب الجنائز ، ١ – باب ما جاء في عيادة المريض.

(٣) البخاري (١١٨/١٠) ٧٥ – كتاب المرضى ، ١٠ – باب عيادة الأعراب.

(٤) لا يغادر: بغين معجمة ، أي: لا يترك. (منه رحمه الله تعالى).

(٥) البخاري (٢٠٦/١٠) ٧٦ – كتاب الطب ، ٣٨ – باب رقية النبي ﷺ .
مسلم (١٧٢١/٤) ٣٩ – كتاب السلام ، ١٩ – باب استحباب رقية المريض.
النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٥٥٧ ، ح ١٠١٦).
ابن ماجة (١١٦٣/٢) ٣١ – كتاب الطب ٣٦ – باب ما عوذ به النبي ﷺ وما عوذ به.

(٦) البخاري في الموضع السابق.
النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٥٥٨ ، ح ١٠٢٠).

(٧) ينكأ: بفتح أوله ، وسكون النون وبالهمزة ، أي: يطعن ، يقال نكات القرحة إذا طعنتها فاستخرجت ما فيها ، وصوب بعضهم أنه بضم أوله وكسر الكاف بغير همز ، من الكناية وهو موجه ، واستبعد الأول ؛ لأن الذي ينكأ القرحة لاستخراج ما فيها يكون محسنا لمن يفعل به ذلك ، والسياق يقتضي أنه يسيء إليه لكونه سماه عدوا ، وليس المراد ذلك ، وإنما المراد أصل الطعن فيها ، فعليه وقع التشبيه ، لا إلى ما يؤول إليه الأمر ، أو يراد به في الأصل ، وقد ثبت في الروايات المعتمدة بفتح أوله والهمزة ، فلا يلتفت إلى من أنكر ذلك مع توجيهه. (منه رحمه الله تعالى).

(٨) أبو داود (١٨٧/٣) كتاب الجنائز ، باب الدعاء للمريض عند العيادة.
المسند (١٧٢/٢).

وعن بعض أزواج النبي ﷺ قالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ وقد خرج في أصبعي بثرة ، فقال : " عندك ذريرة؟ (1) " فوضعها عليها وقال : " قولي : اللهم مصغر الكبير ومكبر الصغير صغر ما بي" . فطفئت (2) .

وعن عائشة : أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشئ ، أو كانت قرحة أو جرح ، قال بإصبعه هكذا بالأرض وقال : " بسم الله ، تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، يشفى سقيمنا ، بإذن ربنا" . أخرجه البخاري ومسلم (3) .

وعن أبي سعيد الخدري : أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : يامحمد اشتكيت ؟ قال : نعم . قال : بسم الله أرقيك ، من كل شئ يؤذيك ، ومن شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك " . أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح . والنسائي وهو عند مسلم أيضا (4) .

وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : " تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده فيسأله كيف هو" . أخرجه الترمذي بسند ليّن . (5) .

---

(1) ذريرة: بفتح المعجمة ، نوع من الطيب معروف. (منه رحمه الله تعالى).

(2) فطفئت: بالهمز ، أي: خمدت. (منه رحمه اله تعالى).

والحديث أخرجه أحمد في المسند (370/5).

والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 562 ، ح 1031) لكن بسياق مختلف ، ولفظه: عن مريم بنت إياس ، عن بعض أزواج النبي ﷺ : أن النبي ﷺ دخل عليها فقال: "أعندك ذريرة" قالت: نعم. فدعا بها فوضعها على بثرة بين أصابع رجليه ، ثم قال: "اللهم مطفئ الكبير ، ومكبر الصغير ، اطفئها عني". فطفئت.

(3) البخاري (206/10) 76 - كتاب الطب ، 38 - باب رقية النبي ﷺ .

مسلم (1724/4) 39 - كتاب السلام ، 21 - باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة.

(4) الترمذي (294/3) 8 - كتاب الجنائز ، 4 - باب في التعوذ للمريض.

النسائي وعمل اليوم والليلة (ص 553 ، ح 1005).

مسلم (1718/4) 39 - كتاب السلام ، 16 - باب الطب والمرض والرقي.

(5) الترمذي (76/5) 43 - كتاب الاستئذان ، 31 - باب مما جاء في المصافحة.

المسند (260/5).

وعن الأَصْبَغ بن نُبَاتة (١) قال : دخلت مع عليٍّ بن أبي طالب على الحسن بن عليٍّ نعوده ، فقال له : كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟ قال : أصبحت بحمد الله بارئا . (قال : كذلك إن شاء الله . أخرجه الطبراني في الدعاء(٢) .

وفي صحيح البخاري(٣) عن ابن عباس : أن عليا خرج من عند رسول الله ﷺ ، فقال له الناس : يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئًا .)(٤)

* * * * *

* * *

*

(١) الأَصْبَغ بن نُبَاتة: بفتح الهمزة ، وسكون المهملة ، وفتح الموحدة ، ثم معجمة ، بوزن أحمد. نباتة: بضم النون ، بعدها موحدة خفيفة. (منه رحمه الله تعالى).

(٢) الطبراني في الدعاء (١٣٣٧/٣) حديث ١١٣٨.

(٣) البخاري (١٤٢/٨) ٦٤ - كتاب المغازي ، ٨٣ - باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٤) ما بين القوسين ساقط من الرباط.

[الفصل الخامس]

ذكر كشف مشكل ما في هذا الباب الخامس من الغريب وغيره

قوله : الأدواء : جمع داء .

قوله : حل الحبا : بضم الحاء المهملة وتخفيف الموحدة ، جمع حُبْوَة : بضم أوله وسكون ثانيه ، ثوب يلف به على الظهر والركبتين ، ويستريح به الجالس ، وكأنه أراد أنه نهض في جمعه وحل حُبْوَته ، أو أشار إلى أنه ينبغي النهوض في الدعاء .

قوله : جناها : بفتح الجيم وتخفيف النون ، أي طيب ثمرها ، وأراد به الخير .

قوله : فيعتلجان : بالجيم ، أي : يتصارعان ، وكأنه من المعالجة .

قوله : عثمان بن عمير : بالتصغير .

وزاذان : أوله زاي معجمة .

وعلَيْم : بمهملة ولام مصغر .

قوله : فيستعتِب : بكسر المثناة قبل الموحدة التي في آخره .

قوله : الشُرَط : بضم المعجمة ، وفتح الراء .

قوله : عابس : بموحدة بعد الألف ، ثم سين مهملة .

والأثرة في الحكم : بفتح الهمزة والمثلثة .

قوله : إمرة الصبيان : بكسر الهمزة .

قوله : سَخْبرة : بفتح المهملة ، بعدها معجمة ساكنة ، ثم موحدة مفتوحة ، ثم راء ، ثم هاء ، هو الأزدي .

قوله : عظم : بضم العين المهملة ، وسكون الظاء المعجمة .

قوله : إسارى : بكسر الهمزة ، بعدها مهملة خفيفة .

قوله : خبث الحديد : بفتح الخاء المعجمة ، والموحدة ، بعدها مثلثة ، هو وسخه .

والكير : بكسر الكاف بعدها تحتانية ساكنة ، معروف .

قوله : أبوء : بموحدة مضمومة ومدة ، أي : أعترف .

قوله : خُرفة الجنة : بضم الخاء المعجمة ، وسكون الراء ، بعدها فاء ، فسرها في الحديث أنه جناها : بفتح الجيم وتخفيف النون ، وهو ما يجنى ، أي ما يقطف من

الثمار ، وإنما قيل له خرفة ؛ لأنه يقع غالبا في الحجاز في الخريف ، ويقال للروض خريف لذلك .

قوله : فنفسوا له : بفاء ومهملة ، من التنفيس ، أي وسعوا له في أجله .

وقوله : لا يغادر : بغين معجمة ، أي لا يترك .

قوله : ينكأ : بفتح أوله ، وسكون النون وبالهمزة ، أي يطعن ، يقال : نكأت القرحة . إذا طعنتها فاستخرجت ما فيها . وصوب بعضهم أنه بضم أوله ، وكسر الكاف ، بغير همز ، من النكاية وهو موجه ، واستبعد الأول ؛ لأن الذي ينكأ القرحة لاستخراج ما فيها يكون محسنا لمن يفعل به ذلك ، والسياق يقتضي أنه يسيء إليه لكونه سماه عدوا ، وليس المراد ذلك ، وإنما المراد أصل الطعن فيها ، فعليه وقع التشبيه ، لا إلى ما يؤول إليه الأمر ، أو يراد به في الأصل ، وقد ثبت في الروايات المعتمدة بفتح أوله والهمزة ، فلا يلتفت إلى من أنكر ذلك مع توجيهه .

قوله : ذريرة : بفتح المعجمة ، نوع من الطيب معروف .

قوله : فطفئت : بالهمز أي خمدت .

قوله : الأصْبَغ : بفتح الهمزة ، وسكون المهملة ، وفتح الموحدة ، ثم معجمة ، بوزن أحمد .

قوله : نباتة : بضم النون ، بعدها موحدة خفيفة .

* * * * *

* * *

*

خاتمـــــة

في الإشارة إلى الطواعين الواقعة في الإسلام

وقد ذكر المدائني ثم ابن أبي الدنيا وابن قتيبة منها يسيرا ، وتوسع بعض المتأخرين ممن أدركناه فسرد نحوا من أربعين فصلا ، لكن الكثير منها في مطلق ما وقع فيه الفناء الكثير ، بمثل الجوع الناشئ عن القحط ، أو بسبب الحمى بالنافض ، أو بسبب الموت بالنزلات ، وقد اقتصرت من ذلك على خصوص ما وقفت عليه من الموت بالطاعون ، فأقول :

[الطواعين الواقعة في القرن الأول]

قال أبو الحسن المدائني : كانت الطواعين العظام المشهورة في الإسلام خمسة طواعين : طاعون شيرويه بالمدائن في عهد رسول الله ﷺ ، ثم طاعون عمواس في زمن عمر كان بالشام ، مات فيه خمسة وعشرون ألفا ، ثم طاعون الجارف سنة تسع وستين ، ثم طاعون الفتيات سنة سبع وثمانين . (وذكر الخامس وذكر عشرة زيادة على ذلك)(١) .

وقد تقدمت الإشارة إلى طاعون عمواس ، وإلى الطاعون الذي وقع في زمن أبي موسى الأشعري بالكوفة ، وإلى الطاعون الذي فر المغيرة بن شعبة بسببه ، حيث كان أمير الكوفة وقدّر الله أن مات فيه ، وذلك سُنة خمسين ، وكان بمصر سنة ست وستين طاعون ، ثم في سنة وفاة عبد العزيز بن مروان سنة خمس وثمانين ، وقيل : سنة اثنين ، وقيل : سنة أربع ، وقيل ست .

قال المدائني : وقع الطاعون بمصر ، ففر عبد العزيز بن مروان وكان أميرها يومئذ ، إلى قرية له فأقام بها ، فقدم عليه بها رسول من قِبَل أخيه عبد الملك وهو خليفة ، فقال له عبد العزيز : ما اسمك؟ قال : طالب بن مدرك . فقال عبد العزيز : أوه ما أراني راجعا إلى الفسطاط . فمات في تلك القرية .

ثم الطاعون الذي مات فيه زياد .

ثم طاعون الجارف واختلف في سنته ، فقيل : سنة تسع وستين ، وقيل : سنة اثنين وسبعين ، وقيل سنة سبعين ، وقيل غير ذلك .

وفي سنة سبع وثمانين كان طاعون الفتيات ، لكثرة من مات به من النساء الشواب .

(١) ما بين القوسين زيادة من الهند.

ثم طاعون الأشراف ، وقع والحجاج بواسط ، حتى قيل فيه : لا يكون الطاعون والحجاج .

[الطواعين الواقعة في القرن الثاني :]

ثم طاعون عدي بن أرطاة سنة مائة ، ثم في سنة سبع ومائة ، ثم في سنة خمسة عشر ومائة ، (كلاهما بالشام . ثم كان طاعون غراب سنة سبع وعشرين ومائة) (١)

ثم طاعون سلم بن قتيبة سنة إحدى وثلاثين ومائة ، قال المدائني : كان بالبصرة في شهر رجب ، واشتد في رمضان ، ثم خف في شوال ، وبلغ في كل يوم ألف جنازة .

وهذا كله في الدولة الأموية ، بل نقل بعض المؤرخين أن الطواعين في زمن بني أمية كانت لا تنقطع بالشام ، حتى كان خلفاء بني أمية إذا جاء زمن الطاعون يخرجون إلى الصحراء ، ومن ثم اتخذ هشام بن عبد الملك الرصافة منزلا ، وكانت بلدا قديمة للروم ، ثم خف ذلك في الدولة العباسية ، فيقال : إن بعض أمرائهم بالشام خطب فقال : احمدوا الله الذي رفع عنكم الطاعون منذ وُلّينا عليكم ، فقام بعض من له جُرْأة فقال : الله أعدل من أن يجمعكم علينا والطاعون .

وكان في الدولة العباسية في سنة أربع وثلاثين طاعون بالري .

ثم في سنة ست وأربعين ببغداد .

[الطواعين الواقعة في القرن الثالث]

(ثم في سنة إحدى وعشرين ومائتين بالبصرة ، ذكره في المنتظم وقال : مات فيه خلق كثير ، حتى كان لشخص سبعة أولاد فماتوا في يوم واحد .) (٢)

ثم في سنة تسع وأربعين ومائتين طاعون بالعراق .

[الطواعين الواقعة في القرن الرابع]

ثم في سنة إحدى وثلاثمائة .

ثم في سنة أربع وعشرين طاعون أصبهان .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الرباط والهند.

(٢) ما بين القوسين ساقط من تركيا.

ثم في سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، وكثر الموت بالفجاءة فيه ، حتى أن القاضي لبس ثيابه ليخرج إلى الحكم فطعن فمات وهو يلبس فردة خُفّه .

[الطواعين الواقعة في القرن الخامس]

ثم في سنة ست وأربعمائة كان طاعون البصرة .

ثم كان في سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة طاعون عظيم ببلاد الهند والعجم ، كثر في غزنة وخراسان وجرجان والري وأصبهان ونواحي الجبل إلى حلوان وامتد إلى الموصل ، حتى يقال إنه خرج من أصبهان وحدها أربعون ألف جنازة ، ثم امتد إلى بغداد .

ثم وقع بشيراز في سنة خمس وعشرين ، حتى كانت الدور تسد أبوابها على أهلها وهم موتى لقلة من يدفنهم ، ثم انتقل إلى واسط ، الأهواز والبصرة ، ثم إلى بغداد حتى كان يموت بها في كل يوم عدد كثير ، فيقال إنه مات بها في أيام يسيرة سبعون ألفا .

ثم في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة كان بالموصل والجزيرة وبغداد ، وصُلِّيَ بالموصل على أربعمائة نفس دفعة واحدة ، وبلغت الموتى ثلاثمائة ألف إنسان . ثم وقع الطاعون في سنة اثنين وخمســين وأربعمائة بالحجاز واليمن ، حتى خربت قرى كثيرة فلم تعمر بعد ، وصار من دخلها هلك من ساعته .

ثم كان الطاعون في سنة خمس وخمسين وأربعمائة بمصر ، فمات بها في عشرة أشهر في كل يوم ألف نفس

ونقل سبط ابن الجوزي في المرآة في حوادث سنة تسع وأربعين وأربعمائة : أنه ورد في جمادى الآخرة كتاب من بخارى أنه وقع عندهم فناء لم يعهد مثله ولا سمع به ، حتى أنه خرج من الإقليم في يوم واحد ثمانية عشر ألف إنسان ، وحُصر من مات فيه فكان ألف ألف وستمائة ألف وخمسين ألف شخص .

ثم وقع إلى أذربيجان ، ثم الأهواز ، ثم واسط ، ثم البصرة ، حتى كانوا يحفرون الزُّبْيَة ويلقون فيها العشرين والثلاثين جميعا ، ووقع بسمرقند وبلخ فكان يموت كل يوم ستة آلاف وأكثر ، واشتغل الناس ليلا ونهارا بالتغسيل والتكفين والدفن ، وكان منهم من ينشق قلبه عن دم المهجة فيخرج من فمه قطرة فيخر ميتا ، وربما خرجت من فيه دودة لا يدري ما هي فيموت ، وأغلقت من البلد أكثر من ألفي دار لم يبق بها أحد ، وتاب الناس وتصدقوا ولزموا المساجد والقراءة ، وأراقوا الخمور وكسروا الآلات .

واتفق أن دارا كان بها خمر فمات أهلها في ليلة واحدة ، وأن رجلاً أدخل امرأة حراما فماتا جميعا ، ودخل جماعة داراً فوجدوا رجلاً في النزع ، فأشار لهم إلى خزانة فيها خابية خمر ، فأراقوها فعوفي من ساعته .

وكان مؤدب للأطفال عنده تسعمائة طفل ، فلم يبق منهم أحد ، ومات من عاشر شوال إلى سلخ ذي القعدة بسمرقند خاصة مائتا ألف وستة وثلاثون ألفا .

وكان ابتداء هذا الطاعون من تركستان ، ثم إلى كاشغر وفرغانة ، ثم دخل سمرقند ولم يدخل بلخ ولا ما وراء النهر ، حتى أن جماعة توجهوا من بخارى إلى بلخ فنزلوا في رباط ، فأصبح الجميع موتى دون أهل بلخ .

قال : وكان عامة الموت في النساء والأطفال والشباب والعواتق والصبيان ، أكثر من الكهول ، ثم في الكهول أكثر من الشيوخ ، وكان في العوام أكثر من الجند ، فالحاصل أنه لم يمت فيه من العساكر والشيوخ والعجائز إلا اليسير ، وكان ابتدأ أولا بالشام ومصر ثم ببغداد في سنة ثمان وأربعين ، فوصل إلى أن كان يموت في مصر فيه كل يوم عشرة آلاف .

ثم كان بمصر في سنة) (١) خمس وأربعين وأربعمائة ، وامتد إلى سنة ست ، ابتدأ في فصل الربيع ودام إلى أن دخل الخريف ، ذكره ابن بطال (٢) في رسالته ، قال : ودفن السلطان من الأموات ثمانين ألفا .

ثم كان بدمشق في سنة تسع وستين وأربعمائة طاعون ، وكان أهلها نحو خمسمائة ألف شخص ، فلم يبق منهم سوى ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وكان من جملتهم مائتان وأربعون خبازا فبقي منهم اثنان .

ثم في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وقع الطعون بالعراق ، ثم عمَّ الدنيا حتى كان أهل الدرب يموتون فيُسَد الدرب عليهم ، حكاه سبط ابن الجوزي في المرآة .

ثم كان بمصر سنة سبع وسبعين الفناء العظيم لكنه بغير الطاعون .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الرباط.

(٢) في الحرم وتيمور (ابن بطلان).

[الطواعين الواقعة في القرن السادس]

ووقع في سنة خمس وسبعين وخمسمائة فناء عظيم ببغداد .

[الطواعين الواقعة في القرن السابع]

ثم كان بمصر في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة طاعون كبير مات فيه خلق كثير من أهلها .

[الطواعين الواقعة في القرن الثامن]

– ثم كان الطاعون العام في سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وسيأتي في كلام ابن الوردي والصفدي وابن أبي حجلة وغيرهم بيانه ، ولم يعهد نظيره فيما مضى ، فإنه طبق شرق الأرض وغربها ، ودخل حتى مكة المشرفة كما سيأتي .

ثم وقع في سنة أربع وستين بالقاهرة ودمشق الطاعون ، ولكنه كان أخف من الذي قبله .

ثم في سنة إحدى وسبعين بدمشق .

ثم في سنة إحدى وثمانين بالقاهرة .

ثم في سنة إحدى وتسعين .

[الطواعين الواقعة في القرن التاسع]

(ثم في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

ثم في سنة تسع عشرة وثمانمائة .

ثم في سنة إحدى وعشرين ، ثم في التي تليها) . (١)

ثم في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وهو أوسع هذه الطواعين كلها وأفظعها ، ولم يقع بالقاهرة ومصر بعد الطاعون العام الذي كان في سنة تسع وأربعين نظير هذا ، وخالف الطواعين الماضية في أمور كثيرة :

منها : أنه وقع في الشتاء وارتفع في الربيع ، وكانت الطواعين الماضية تقع في

(١) ما بين القوسين ساقط من الهند.

فصل الربيع بعد انقضاء الشتاء ، وترتفع في أول الصيف .

ومنها : أن غالب من كان يموت بالطاعون يغيب عقله ، وهذا غالب من يموت به يموت وهو يعقل ، فيتحسّر على نفسه ويوقن بالموت ، ولا يستطيع لنفسه نفعا ، ولا يستطيع أحد من أحبائه عنه دفعا .

ومنها : أنه كثر النقل عن كثير منهم أنه يخبر بمشاهدة خيرات تترى ، ورؤيت له منامات حسنة ، تشتمل على أنواع من البشرى ، فلله الحمد على ذلك ، وكان ابتداؤه بالديار المصرية في الجانب الأسفل من الأرض ، ثم دخل مصر وبدأ بطرق القاهرة من ناحية الساحل ، ثم كان دخوله القاهرة في أواخر شهر ربيع الآخر ، واشتد الخطب من نصف جمادى الأولى إلى نصف جمادى الآخرة ، ثم تناقص من أول نصف جمادى الآخرة إلى آخر رجب ، فلما دخل شعبان كان قليلا جدا ، إلى أن ارتفع جملة بعد ذلك ، حتى صار لا يدخل ديوان الموتى سوى الآحاد ، كما جرت العادة في غير زمن الطاعون .

(ثم وقع في سنة إحدى وأربعين وثمانمائة بالديار المصرية طاعون ابتدأ في رمضان ، فما انسلخ حتى بلغ المائة ، ثم زاد في شوال ، ثم تناقص في ذي الحجة ، إلى أن ارتفع في آخره ، وأكثر ما بلغ في اليوم عمّن يوثق به ألف نفس .

ثم وقع في سنة سبع وأربعين ، فابتدأ في ذي الحجة فما انسلخ حتى بلغ المائة ، ثم زاد على الألف في المحرم سنة ثمان ، ثم زاد في صفر ، وشرع في النقص في اليوم السادس منه إلى أن ارتفع) (١)

* * * * *

* * *

*

(١) ما بين القوسين ساقط من الرباط وتركيا ، وهذا من الزيادات التي أضافها الحافظ للكتاب بعد أن انتهى من تصنيفه سنة ٨٣٣ هـ ، كما أشار إلى ذلك في نهاية الكتاب.

فصل
في
بعض ما قيل في وصف الطاعون

وأكثر ما وقع من ذلك في الذي كان في سنة تسع وأربعين ، وأجله وأفحله ما قال لنا شيخنا أبو اليسر أحمد بن عبد الله بن الصايغ ، أخبرنا الشيخ زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي إجازة مشافهة إن لم يكن سماعا قال :

هذه مقامة سميتها " النباء عن الوباء " وهي :

الله لي عُدَّة في كل شدَّة ، حسبي الله وحده ، أليس الله بكاف عبدَه ، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وسلِّمْ ، ونَجِّنا بجاهه من طغيان الطاعون وسلِّم ، طاعون روَّع وأمات ، وابتدأ خبره من الظلمات ، ياله من زائر ، من خمس عشرة سنة دائر ، ما صين عنه الصِّين ، ولا مُنِعَ منه حصن حصين ، سلَّ هنديًا في الهند ، وأسند على السِّند ، وقبض بكفه وشبك ، على بلادك أزْبَك ، وكم قصم من ظهر ، فيما وراء النهر ، ثم ارتفع ونجم ، وهجم على العجم ، وأوسع الخُطَا ، إلى أرض الخطا ، وقَرم القرَم ، ورمى الروم بجمر مضطرم ، وجَرَّ الجرائر ، إلى قبرص والجزائر ، ثم قهر خلقا بالقاهرة ، وتنبَّهت عينه بمصر فإذا هم بالساهرة ، وسكَّن حركة الإسكندرية ، فعمل شغل الفقراء الحريرية ، وأخذ من دَار الطِّرَاز طراز الدار ، وصنع بصنَّاعها ماجرت به الأقدار ،

إسكندرية ذا الوباء ∴ سَبُعٌ يمد إليكِ ضَـــبْعَه

صبراً لقسمته التي ∴ تركت من السبعين سبعه

ثم تيمَّم(١) الصعيد الطيب ، وأبرق على بَرْقَة منه صَيِّب ، ثم غزا غزة ، وهزَّ عسقلان هزَّة ، وَعَكَّ إلى عكّا ، واستشهد بالقدس وزكّا ، فَلَحق من الهاربين للأقصى بقلب كالصخرة ولولا فتح باب الرحمة لقامت القيامة في كَرَّة ، ثم طوى المراحل ، ونزل بالساحل ، فصاد صيدا ، وبغت(٢) بيروت كيدا ، ثم شدد الرشق ، إلى مدينة دمشق ، فتربَّع وتمدَّد ، وفتك في كل يوم بألف أو أزيد ، وأقل الكثرة ، وقتل خلقا ببَثْرة ، فالله

---

(١) تيمم: قصد.

(٢) في الحرم (وكاد).

تعالى يُجْرِي دمشق على سُنّتها ، ويُطفئ لفحات ناره عن نفحات جنتها ،

أصلح الله دمشقا وحماها (عن مسبة .·. نفسها خست إلى أن) [1] تقتل الناس بحبة

ثم أمرَ [2] بالمزّة ، وبرز إلى برزة ، وركب تركيب مزج بعلبك ، وأنشد في قارة قفا نبك ، وغسل الفَسْوُلَه ، وبلغ من كسوف شمس شَمْسِين سوله ، وطرح على الجبة بُرْشَة ، وأزْبَد على الزَّبَدَانيّ نَعْشَه ، ورمى حِمْصَ بِخَلَل ، وصرفها مع علمه أن فيها ثلاث عِلَلْ ، ثم طلق الكنّة [3] في حماه ، فبردت أطراف عاصيها [4] من حمّاه ،

يا أيها الطاعون إن حماه من .·. خير البلاد ومن أعز حصونها

لا كنت حين شممتها فسممتها .·. ولَثَمْت فـاهًا آخـذا بقـرونها

ثم دخل معرة النّعْمان ، فقال لها أنت مني في أمان ، حماة تكفي في تعذيبك ، فلا حاجة لي بك.

رأى المعرة عينا زانها حَـــــوَرٌ .·. لكن حاجبهـا بالجَوْر مقرون

ماذا الذي يصنع الطاعون في بلد .·. في كل يوم له بالظلم طاعـــون

(ثم رأى حرمانها لهذا الأجر من الحيف ، فعاد إليها ولكن كيف) [5]

ثم سرى إلى سرمين والفوعة ، وشغَب على السنة والشـيعة ، وسَنَّ للسُّنَّة أسِنَّةً مَشْرَعا ، وشيّع في بلاد الشيعة مَصْرَعا ، ثم أنطا [6] أنطاكيّة بعض نصيب ، ورحل عنها حياء من نسيانه ذكرى حبيب ،

ثم قال لشيزر والحارم لا تخافا مني ، فأنتما من قبل ومن بعد في غنىً عني ، فالأمكنة الردية ، تصح في الأزمنة الوبية ، (ثم أذل عَزَازَة وكِلِّزَة ، وأصبح في بيوتهما الحارث ولا أعني بن حِلِّزَة) [7] ، وأخذ من أهل الباب ، أهل الألباب ، وباشر تل باشر ،

---

(١) في الحرم (عن صيرها لعبت بهم أحس لعبة وصارت).

(٢) أمر: كَثُر وتَمّ. وفي بعض النسخ (مرّ) من المرور.

(٣) (طلق الكنة) وفي تيمور (أطلق النكبة).

(٤) في الرباط (عافيتها).

(٥) ما بين القوسين زيادة من تيمور.

(٦) أنطا: أعطى.

(٧) ما بين القوسين زيادة من تيمور .

وذاك دلوك ناشر ، وقصد الوهاد (١) والتّلاع (٢) ، وقلع خلقا من القلاع ، ثم طلب حلب ، ولكنه ما غلب ، فهو ولله الحمد أخف وطأة ، ولم (٣) أقل كزرع أخرج شطأه.

إن الوَبَا قد غَلَبــا ∴ وقد بَدَا في حلَبــا

قالوا له على الورى ∴ كافٌ وراءٌ قلت وَبَـا

ومن الأقدار أنه يتتبع أهل الدار ، فمتى بصق واحد منهم دما ، تحقق كل واحد منهم عدما ، ثم يسكن الباصق الأجداث ، بعد ليلتين أو ثلاث.

سألت بارئ النَّسَمْ ∴ في دفع طاعون صَدَم

فمن أحسَّ بَلْعَ دَم ∴ فقد أحَسَّ بالعَـــدَم

اللهم إنه فاعل بأمرك فارفع عنا الفاعل ، وحاصل عند من شئت فاصرف عنا الحاصل ، فمَن لِدَفْع هذا الهَوْل ، غيرك يا ذا الحَوْل.

الله أكبر من وباء قد سَبَا ∴ ويصول في العقلاء كالمجنون

سَنَّتْ أسِنَّتُه لكل مدينــة ∴ فعجبتُ للمكروه في المســنون

كم دخل إلى مكان ، فحلف أن لا يخرج إلا بالسكان ، ففتش عليهم بسراج ، وهذا الذي جلب لأهل حلب الانزعاج ، استرسل بعنانه أو انساب ، وسُمِّيَ طاعون الأنساب ، وهو أعظم طاعون وقع في الإسلام ، وعندي أنه الموت (٤) الذي أنذر به نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ، فلو رأيت الأعيان ، وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض ، ويكثرون في العلاج من أكل النواشف والحوامض ، قد تنغّص عيشهم الهنِي ، بملاطخة مسلم الطينة الطين الأرمني ، وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدل ، وبخّروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصندل ، وتختموا بالياقوت ، وجعلوا البصل والخل والصحنة من جملة الأدم والقوت ، وأقلوا من الأمراق والفاكهة ، وقربوا إليهم الأترج وما شابهه.

حلبٌ والله يكفي شــرها أرض مشقّة ∴ أصبحت حية سوء تقبل الناس ببزقة

فلو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى وسمعت بكل قُطْر من حلب نعيا وصوتا لَوَلّيْت

---

(١) الوهاد: جمع وَهْدَة ، المطمئن من الأرض.

(٢) التّلاع: جمع تَلْعَة ، مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض.

(٣) في تيمور : (وتأدبت فلم) .

(٤) في تيمور (الموتان).

منهم فرارا ، وأبيت فيهم قرارا ، ولقد كثرت فيها أرزاق الجنائزيّة فلا رُزِقُوا ، وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا فلا عاشوا ولا عرقوا ، فهم يَلْهُوْن ويلعبون ، ويتقاعدون على الزبون ،

اسْوَدَّت الشَّهْبَاء في ∴ عيني من وَهْم وغَشْ
كانوا بنو نعش بها ∴ أن يلحقوا بينات نَعْش(١)

فنستغفر الله من هوى النفوس فهذا بعض عقابه ، ونعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقابه(٢).

قالوا فساد الهوى يردي ∴ فقلت يردي هوى الفساد
كم سيئات وكم خطايا ∴ نادى علينا بها المنادي

ومما أغضب الإسلام ، وأوجب الآلام ، أن أهل سيس الملاعين ، مسرورين لبلائنا بالطواعين ، حتى كأنهم في أمان ، أو عليه أن لا يقربهم ضمان ، أو كأنهم إذا ظفروا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ،

سكان سيس يَسُرُّهم ما ساءنا ∴ وكذا العوائد من عدو الدين
الله يُنفذه(٣) إليهم عاجلا ∴ ليمزق الطاغوت بالطاعون

هذا وهو للمسلمين شهادة (وأجر ، وعلى الكافرين رِجْزٌ وزجر ، إذا صبر المسلم على مصيبته فالصبر عبادة ، وقد ثبت عن نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أن المطعون شهيد فهذا الثبوت حكم بالشهادة)(٤) وهذه الخَفِيَّة ، تعجب الحنفيَّة ، فإن قال قائل هو يعدي ويُبيد ، قل بل الله يُبدئ ويعيد ، فإن جادل الكاذب في دعوى العدوى وتأوَّل ، قلت قد قال الصادق المصدوق : فمن أعدى الأوَّل ، ولو سلّمْنا فتكه بأهل الدار ، فهو بإرادة الفاعل المختار ،

أعوذ بالله ربي من شر طاعون النسب
باروده المستعلي قد طار في الأقطار

---

(١) بناتُ نَعْش: سبعة كواكب ، يقال للواحد منها ابن نعش ؛ لأن الكوكب مذكّر فيذكّرونه على تذكيره ، وقد يقال: بنو نعش .

(٢) في تيمور (عذابه) .

(٣) في الرباط وتيمور (ينقله) .

(٤) ما بين القوسين ساقط من الهند .

فتّاش دها شـــانه ســـاعي لصارخ مارثا

ولا فُـديَ بذخـــيرة دولابُه الطيـــــار

يدخل إلى الدار يحلف[1] ما يخرج إلا بأهلها

معي كتاب القاضي بكل من في الـدار

ومن فوائده : تقصير الآمال ، وتحسين الأعمال ، واليقظة من الغفلة ، والتزود للرحلة.

فهذا يُوصــــــي بأولاده	∴	وهذا يودِّع إخوانَــــــه
وهذا يهـــــيئُ أشـغاله	∴	وهذا يجهِّز أكفانَــــــه
وهذا يصــــــالح أعداءه	∴	وهذا يلاطف جيرانــــه
وهذا يوســــع إنفاقه	∴	وهذا يحالل من خانــــه
وهذا يحبـــــس أملاكه	∴	وهذا يحرِّر غلمانــــــه
وهذا يُغَـــــيِّر أخلاقــه	∴	وهذا يُغَيِّر ميزانــــــه
فإن كان هذا الوبا قد سبا	∴	وقد كاد[2] يرسل طوفانه
فلا عاصم اليوم من أمره	∴	سوى رحمة الله سبحانه

وما منعنا الفرار منه إلا التمسك بالحديث ، فقم بنا نستغيث (إلى الله)[3] في رفعه فهو خير مغيث ، اللهم إنا ندعوك بأفضل ما دعاك به الداعون ، أن ترفع عنا الوباء والطاعون ، لا نلتجئ في رفعه إلا إليك ، ولا نُعَوِّل في العافية منهما إلا عليك ، نعوذ بك يا رب الفلق من الضرب بهذه العصى ، ونسألك رحمتك التى وَسِعت كل شيء فهي أوسع من ذنوبنا ولو كانت عدد الرمل والحصى ، ونتشفَّع إليك ، بأكرم الشفعاء لديك ، محمد نبي الرحمة ، أن تكشف عنا هذه الغمة ، وأن تجيرنا من الوبال والتنكيل ، وأن تعصمنا فأنت حسبنا ونعم الوكيل " .

(هذا)[4] آخرها وهو أجود ما قيل في ذلك ، وأوسعه عبارة ، وألطفه إشارة.

---

(١) هكذا في الحرم وتيمور ، وفي بقية النسخ (يخطف).

(٢) (كاد) في تيمور ، وفي بقية النسخ (كان).

(٣) في الرباط (بالله).

(٤) زيادة من الهند.

وقرأت في كتاب الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة في وصف الطاعون الكبير : " عمَّ البلاد ، وأباد العباد ، وقطع كل درب ، وساوى بين أهل الشرق والغرب ، فكثرت به الأوجاع ، وانتقل بمصر من الأصبع إلى الذراع ، ثم تيمم بها الصعيد ، وترك الناس كالزرع ما بين قائم وحصيد ، واتفقت فيه غرائب وعجائب ؛

منها : أن الطاعون الذي وقع في سنة تسع وأربعين وأربعمائة عمَّ الأرض ، فساواه هذا في ذلك ولم يتفق ذلك في غيرهما .

ومنها : أن مكة لم يدخلها الطاعون قط إلا هذه المرة ، فمات بها خلق كثير من أهلها والمجاورين بالطاعون ، وتواتر النقل بذلك.

ومنها : أنه مات فيه الطيور والوحوش والغزلان والكلاب والقطاط بالخُرَّاج تحت الآباط ، وبغير ذلك من أنواع الطاعون ، قال : ولم يسلم منه في هذا العام من مدن الأرض كلها غير مدينة رسول الله ﷺ.

ومنها : أن من مات فيه على سبيل التقريب نصف الموجودين من العالم الحيواني ، وبلغ الموت بالقاهرة في كل يوم عشرين ألفا وقيل : خمسة وعشرين ألفا ، وقيل : سبعة وعشرين ألفا .

قلت : ذكر ابن كثير في تاريخه : أن من الناس في أمر القاهرة المقلل والمكثر ، فالمقلل يقول : أحد عشر ألفا ، والمكثر يقول : ثلاثون ألفا . انتهى.

قال ابن أبي حجلة : وذكر لي مجد الدين الإسعِرْدي تاجر الخواص السلطانية : أنه وَكَّل بأبواب القاهرة مَنْ حَفظ له (عِدَّة) [١] الأموات في شهريْ شعبان ورمضان ، فبلغوا تسعمائة ألف نفس وزيادة. قال : وهذا خارج عمن لم يُضْبَط ، وخلت حكور كثيرة حول القاهرة ، فلم تسكن بعد ذلك. قال : والتلخيص أن جميع الطواعين الماضية بالنسبة إلى هذا قطرة من بحر ، أو نقطة من دائرة.

قال : وأما دمشق فإني كنت بها ، فشاهدت حالها الحائل ، وحائطها المائل ، ورأيت بها موت الأحبة بالحبة ، ثم نفث الدم والكُبة فأناخ بها الرجال ، وهبت شماله ذات اليمين وذات الشمال ، وفي شهر ربيع الأول اجتمع الناس على قراءة البخاري ، وقرأوا سورة [٢] نوح بمحراب الصحابة ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثا وستين مرة ؛ اتباعا لرؤيا

---

(١) في الحرم (عدد).

(٢) إلى هنا تنتهي نسخة الحرم.

رآها رجل ، ودعوا برفع الطاعون فازداد ، ثم شرع الخطيب في القنوت في الصلاة والدعاء ، وحصل للناس الخشوع والخضوع والتضرع والتوجع والتوبة والإنابة ، ثم إن نائب السلطنة رسم بإبطال ضمان النعوش وجميع ما يتعلق بالأموات ، ونودي بذلك في الطرقات ، وصنع الناس نعوشا وقفوها ، فاتسعوا بها في تشييع الموتى (١) ، ثم نودي في البلد بصوم ثلاثة أيام ففعلوا ، ثم وقفوا بالجامع كما يفعلون في شهر رمضان ، ثم خرجوا يوم الجمعة سابع عشر الشهر إلى مسجد القَدَم ، فتضرعوا إلى الله تعالى في رفع الطاعون ، وخرج الناس من كل فج عميق حتى أهل الذمة والأطفال ، وانتشروا في الطرقات وأكثروا التضرع والبكاء ، ولم يزد الأمر إلا شدة ، ولا الموت إلا كثرة. فلما كان في ثاني شهر رجب بعد الظهر ، هبت ريح شديدة أثارت غبارا أصفر ثم أحمر ثم أسود ، حتى أظلمت الأرض وبقي الناس نحو ثلاث ساعات يجأرون إلى الله تعالى ويستغفرونه حتى انكشف ، ورجوا أن يكون ذلك ختام ما هم فيه ، فلم ينقص عدد الأموات ، بل استمر الطاعون بدمشق إلى سلخ السنة ، وبلغ عدد من يموت داخل السور خاصة في كل يوم ألف نفس ، وصلى الخطيب بالجامع على خمسة وستين نفساً دفعة واحدة ، فكان ذلك أمرا مهولا ، وحصل بسبب ذلك في الجامع ضجة عظيمة.

قلت : وحكى لي من أثق به أنه شاهد في جامع عمرو بن العاص نحو ذلك. وقرأت في تذكرة القاضي صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٢) : أول ما بدأ الطاعون الكائن في سنة تسع وأربعين من الشام بغزة ، ثم تعدى إلى بيروت ، ثم إلى الشام كلها ، وكان يقتل بالرائحة ، وبقدر الحبة يظهر في المغابن كالإبط ونحوه ، وببثرة خلف الأذن ، وبقدر الخيارة في الورك وبعضهم يبصق دما فيخر ميتا.

وكتب في رسالة : وإنما عاقته العوائق ، وشغله ما شغل جميع الخلائق ، وهو أمر هذا الوباء وما بلغكم عنه من النباء ، فإنه قد عم البلاد ، وغم النفوس وأذاب الأكباد ، وقدم مصر في أول هذه السنة ، فقصد أهلها الفرار والسنة ، وتقدم بعساكر المنايا ، ودهم بكبائر الرزايا ، وألقى الرعب في قلوب البرايا ، وأبقى في صدورهم البلايا ، وشهر لكل أحد نصابه ، وترك بباب كل بيت منه عصابه ، فالناس بين كل ميت ومائت ، ومتوقع الفوات وفائت ، وأصبح كل جبار وهو منه خائف ، ويظن أن الموت على بابه واقف ، إن

---

(١) في الرباط (الجنائز).
(٢) إلى هنا تنتهي نسخة الهند.

دخل بيتا كان آخر أهله خروجا ، وإن عدل إلى فِنَاء أجَّج نارَ الفَنَاء فيه تأجيجا ، فقصم عند ذلك الآمال ، وكثرت لديه الأعمال ، وعظم التضرع إلى الله والصياح ، وعمل الناس بقوله ﷺ : " إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح " . غير أن له خلائق محمودة ، وغرائب ليست في سواه موجودة ، لا يفرق بين الشخص وأقاربه ، ولا يؤرق جفن المفجوع على ذاهبه ، بل إن أخذ واحدا آنسه بجميع أهله ، وجمع شملهم في الرَّدَى بإهدام ذلك النسب من أصله ، لا تطول معه الأمراض ، ولا تكثر على الجسد الأعراض ، وقد طالت مدته على الأمة ، وقويت عليهم الشدة والغمة ، واشترك في مصابه الخلائق والبلدان ، وعمَّت الأشجان والأحزان ، وهذا أمر لم يسمع بمثله في الوجود ، ولم يقع نظيره في الجدود ، وأي طاعون دخل الأرضين من كل جانب ، ووصل إلى المشارق والمغارب ، بل طاعون عمواس كالقطرة منه في القياس ، وطاعون الأشراف خاص ببعض الأصناف ، وطاعون الفتيات ، لغير الأبكار لم يوات ، فاللهَ اللهَ في التضرع بارتفاع هذه النازلة ، وانقطاع هذه النقمة برحمة متواصلة.

وقرأت في كتاب القاضي تاج الدين السبكي سنة أربع وستين وسبعمائة : لما عمَّ الطاعون على النفوس وغم ، وهم بالردى فأودع القلوب(1) الهم ، طاف البلاد فما ترك طارفة ولا تليدة ، وطاف في الربع العامر فَأَذِن بالخراب وما تلك الصفة بحميدة ، وغزا الإقليم المصري منه ما شيَّب النواصي ، وشغلهم بأنفسهم من القيام بالطاعات بل وبالمعاصي ، ودخل الشام منه رعب يُرَوِّع ولا يراعي ، (فبطلت عنده الشهوات وذهبت لديه الدواعي) (2) ، إلى غير ذلك من تخريب الممالك ، وتضييق المسالك ، وتوسيع أبواب المهالك فياله من حِمام شمَّرت حروبه عن ساقها ولا توقفت ولا تَرَوَّت ، وصاحت صوارم شربت من دماء البرايا حتى تروت ، لقد صرح في هذه المعركة غضبه وما أضمر ولا وَرَّى ، ولقد روى فيها سهمه كبد قوسه الحَرَّى ، وما ذاك إلا لمقدور إلهي لا يُدْفَع ، وأمر سماوي لا تفيد فيه المعالجة ولا تنفع ، لقد قطع نياط القلوب ، وشاهدنا منه العجب والأرواح تنوب ، إن طلعت حبته لابن آدم هبطت به إلى الرمس ، وإن بصق دماً قال يا حسرتى على ما فرطت بالأمس ، ولقد رَخُصَت الأنفس فيه حتى بيعت بِحَبَّة ، وقال من ساومها سيقضي صاحبها نحبه ، فمات من لا عمره مات ، وصرت لا تسمع إلا كان وفات ، إذا أخذ واحدا تداركه بجمع شمله ، وأخذ على إثره جميع أهله ، وإذا نزل بامرئ

(1) في الرباط (البيوت).
(2) ما بين القوسين ساقط من الرباط.

أفصله في يومه ، ولا يطيل بتعلله المرض على قومه ، والله المستعان في جميع الأحوال ، وعليه فيما نخافه ونحذره الاتكال.

وقرأت بخط شيخنا ناصر الدين بن الفرات في تاريخه : أنه صلى الجمعة في سطح الجامع الحاكمي فشاهد الجنائز مصفوفة ثلاثة صفوف ، من أول الأروقة إلى باب الخزائن ، لكن الصف الثالث ينقص قليلا ، قال : وكثر الموت حتى خلت الطرقات . قال : ولقد مشيت ليلة بين القصرين ، بين المغرب والعشاء ، من الحريريين إلى سوق الدجاج بقرب الجامع الأقمر ، فما رأيت من السرج في الحوانيت إلا اليسير. قال : وعدمت البضائع لقلة الجالب ، (وبيعت الرمانة الواحدة بنصف دينار) [1] ، وبلغ طحن الأردب القمح تقديرا فلوري.

قال : وشرح ذلك يطول ، وهذا عنوانه.

قلت : إنما عظم الخطب لامتداده ، فإنه امتد من أول السنة ، فلم يزل يتكاثر حتى إلى شهر رجب ، وعظم في شعبان ثم في رمضان ، ثم تناقص في شوال ، وارتفع في ذي القعدة.

وإلى هنا انتهى القول بنا فيما قصدناه من نقل ما اتصل بنا من نبأ الطواعين الواقعة في الإسلام ، والله المسؤول أن يختم لنا بالحسنى ، ويرفعنا إلى المقام الأسنى.

قرأت على عبد الله بن عمر بن علي ، عن أحمد بن كشتقدي سماعا ، أن النجيب الحراني أخبرهم ، أنا أبو الفرج بن الجوزي سماعا ، أنا أبو منصور القزاز ، أنا أبو بكر أحمد بن علي ، أنا أبو علي عبد الرحمن بن محمد بن فضالة ، أنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن شاذان ، سمعت أبا جعفر التستري يقول : حضرنا أبا زرعة - يعني عبيد الله بن عبد الكريم الرازي الحافظ - وكان في السَّوْق - يعني بفتح السين ، أي سوق روحه إلى الموت - وعنده أبو حاتم ومحمد بن مسلم والمنذر بن شاذان وجماعة من العلماء ، فذكروا حديث التلقين وهو قوله ﷺ : " لقنوا موتاكم لا إله إلا الله " [2] . فاستحيوا من أبي زرعة وهابوا أن يلقنوه ، فقالوا : تعالوا نذكر الحديث.

---

(١) في الرباط والدار (وبلغت الرمانة الواحدة نصف دينار).

(٢) مسلم (٦٣١/٢) ١١ - كتاب الجنائز ، ١ - باب تلقين الموتى لا إله إلا الله.

فقال محمد بن مسلم : حدثنا الضحاك بن مخلد ، عن عبد الحميد جعفر ، عن صالح ،وسكت.

وقال أبو حاتم : حدثنا بندار ، ثنا أبو عاصم ، عن عبد الحميد ، عن صالح ، ولم يجاوز وسكت الباقون.

فقال أبو زرعة : حدثنا بندار ، ثنا أبو عاصم ، ثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح بن أبي غَريب ، عن كثير بن مرة الحضرمي ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : " من كان آخر كلامه [1] لا إله إلا الله دخل الجنة " . وتوفي.

رواها الحاكم[2] عن أبي بكر بن شاذان المذكور وفيه مقال ، وأبو جعفر التستري هو محمد بن علي ورّاق أبي زرعة.

وقد ذكر أبو محمد بن أبي حاتم هذه القصة في ترجمة أبي زرعة [3] مختصرة فقال : سمعت أبي يقول : مات أبو زرعة مطعونا مبطونا يعرق الجبين منه في النزع ، فقلت لمحمد بن مسلم : ما تحفظ في تلقين الموتى لا إله إلا الله ؟ فقال : يروى عن معاذ فرفع أبو زرعة رأسه وهو في النزع فقال : روي عن عبد الحميد بن جعفر ، فذكره وزاد : فصار للبيت ضجة من البكاء ممن حضر .

وقد وقع لي هذا الحديث عاليا من وجه آخر عن أبي عاصم : كتب إلينا أبو العباس أحمد بن أبي بكر المقدسي ، أن يحيى بن سعد أخبرهم ، عن زهرة بنت محمد بن حاضر ، قالت: أنا يحيى بن ثابت بن بندار ، أنا أبي ، أنا أبو منصور محمد بن محمد ابن عثمان والحسين بن علي بن رقنان [4] ، قالا : أنا أبو بكر بن مالك ، أنا أبو مسلم الكجي ، ثنا أبو عاصم ، عن عبد الحميد حدثني صالح بن أبي عَريب ، فذكر مثله .

أخرجه أبو داود [5] عن مالك بن عبد الواحد ، عن أبي عاصم ، فوقع لنا بدلا عاليا .

---

(١) في الرباط (كلامه من الدنيا).

(٢) روى الحاكم الحديث المرفوع في المستدرك (١/٥٠٠) ، وروى الحديث مع القصة في معرفة علوم الحديث ص ٧٦ في النوع العشرين.

(٣) الجرح والتعديل (١/٣٤٥).

(٤) في الدار: (قتادة).

(٥) أبو داود (٣/١٩٠) كتاب الجنائز ، باب في التلقين.

آخر الكتاب ، قال مصنفه أدام الله النفع بوجوده : وكان الفراغ منه في جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، سوى ما ألحق بعد ذلك إلى أن ختم في شوال منها (١) ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين. آمين.

* * * * *

* * *

*

(١) جاء بعد هذه العبارة في نسخة تيمور: (ثم ألحق فيه زيادات يسيرة بعد ذلك) . ا . هـ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

* * * * *
* * *
*